

صَوْنُ حَقِّكَ مِنَ الْبَيْعِ الْأَسْوَءِ

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

تأليف

عبد الحميد العباري

[الطبعة الأولى]

١٩٥٣

ملشزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

2262
.076
.389

2252.076.389
al-'Abbadi
Suwar wa-buhuth

DATE _____

ISSUED TO

10.17

Finderv

DATE ISSUED

2.96 - 298

DATE ISSUED _____

DATE DUE





32101 073830018



صَوْنٌ فِي مَحْجُوثِ الْمَنَاحِ الْأَسْطَلَا

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

Suwar wa-buhūth

تأليف

عبد الحميد القباري

العبد السابق لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربي
بمهد الدراسات العربية العالية

[الطبعة الأولى]

١٩٥٢

مستورم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

الطبعة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

تقدمة وإهداء

من خمس سنوات مضت نشرت لى الجمعية التاريخية غربي كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تفصل بالعصر العربي الإسلامى القديم ، وكان ذلك فى كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى » .

واليوم تنشر لى مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة أخرى من مقالات وبحوث نشر بعضها منفردا وبعضها الآخر لم يسبق نشره ، وذلك فى كتاب عنوانه « صور وبحوث من التاريخ الإسلامى : عصر الدولة العباسية والغرب والأندلس » .

والمقالات والبحوث المنشورة فى الكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام فى العصر المذكور فى العنوان ومسائل أخرى علمية ، إلا أن الناظر المتوسم لا يعدم أن يلمح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلامية القديمة من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية . فعلى من أجل ذلك لا تخلو من الفائدة للجيل الجديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامى بوجه خاص . ولعل هذا المقزى هو الباحث الأول على جمعها ونشرها فى كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الكتاب والمؤلفين أن يهدوا تأليفهم إلى بعض من يحبون أو يجلون ، فغريا على هذا السنن الطيف والرف للأولف أهدى هذا الكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابى السابق : أهديه إلى أصحابى من خريجى مدرسة القضاء الشرعى والأزهر الشريف ، ودار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودار المعلمين العالية ببغداد . فالحق أن الكتابين كليهما من وحى الدروس والمحاضرات التى سعدت بإلقائها عليهم .

عبد الحميد العبادى

رمل الإسكندرية فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٣
١٠ المحرم سنة ١٣٧٣

2262

. 076

389

القسم الأول
عصر الدولة العباسية

أبو العباس «السفاح»*

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدماء حقاً ؟

كان أبو العباس الملقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس ؛ وَلَّى الخِلافة عام ١٣٢ ، وتوفي عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنه وقت أن توفي على ست وثلاثين سنة هل أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم الطلعة ؛ يقول فيه الطبري إنه « كان ذا شعرة حسنة ، طويل أبيض ، أقى الأنف ، حسن الوجه واللحية » . ويروي ابن الأثير أنه « نظر يوماً في المرأة ، وكان من أحمل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إني لا أقول كما قال سيديان ابن عبد الملك : أما الملك الشاب ، ولكني أقول : اللهم عمرني طويلًا في طاعتك ممتناً بالعافية ! »

وكان أبو العباس متصوفاً عفيفاً ، حسن المعاشرة لأهل بيته . روى المسعودي أنه كان قبل الخِلافة فقيراً ممثقاً ، واعتق أن رأته أم سلمة المخزومية ، أرملة سيديان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورأست الخروج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من المال ما ولى بحق الصداق والهدية . وقد حلف لها ألا يخرج عليها ولا يتسرى . فلما صارت إليه الخِلافة ، وسيقت إليه الدنيا ، وفي لها كأشد ما يكون إوفاء ، والبر بالمعهد .

وكان أبو العباس مقبضاً في معيشته ، لم تخرجه أبهة الملك وعظمة السلطان من حد البساطة في مأكله ومشربه وملسه ؛ وقد أحصوا ما حلف من الثياب ، فإذا هي تسع جباب ، وأربعة أقمص ، ورحمة سراويلات ، وأربعة طيلاسة ، وثلاثة مطارف خز . تلك ثياب رجل ملك مشرق الأرض ومفاresها نحو خمس سنوات ١١

* لقائمة : عدد ٤٧ سنة ١٩٣٩ آثار هذا المقال جدلاً ونقاشاً في الموسوع وقد سجل كل ذلك في مجلي الثقافة والرسالة في السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً عطواً ، يقول فيه السعدي : « وكان إذا حضر طعامه أوسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطريه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً » .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من لمنين : أحسنت والله ! فأعد هذا الصوت ! » . (السعدي) .

وكان أشد الخفاء حياءً لمسرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما المعجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقد له أبو بكر الهدى . ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك محالة مثلك وأمثال أمثالك ، ويدخل إلى امرأة أو حارية فلا يزال يسمع صحفاً يروى نقصاً » . (السعدي في مروج الذهب) .



هل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجليل العفيف ، الولي ، الكريم ، الطروب ، القنص ، الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتالاً للدماء سماً كالدواء الشر ؟ وهل صحيح أنه إنما لقب بالسفاح لكثرة ما سفع من دماء وأرهمق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة الشرية تنسج للتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب يثير الدهش ويستبعد المعجب ؛ ومع ذلك بهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقبل أن تعرض لتلك الروايات التي تصور أول خلعاء بني العباس في تلك الصورة الشبه ، يبين المعنى الاصطلاحي والعموي للفظ « السفاح » ، ثم تعرض للروايات القديمة والمعاصرة لأبي العباس ، ليري كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربي قديم جرى مجرى القلم ؛ فثم السفاح التلوي الذي كانت رئيس تغلب في يوم الكلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد في كتاب الاشتقاق : « وإنما سمي السفاح لأنه سفع المزاد أي صلبها يوم كاطمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإياكم إن هزمت من عطشاً . قال الشاعر :

وأحوها السباح طناً خياله حتى وردن حيا الكلاب بهالا»

وهناك لساحس عبيد مائة لشعر ، ويعلق ابن دريد على اسمه بقوله : « والساحس فقال من سمحت الماء سمحاً إذا سمعته » . فالعرب إذا لم يطلق هذا الوصف اصطلاحاً على من يفسك الدماء كما ينفار إلى الدهس ، وإنما لحظت في إطلاقه معنى آخر متوصفاً عليه .

وأما لغة هذا الوصف تقع على حملة معان ، منها السعك للدماء ، ومنه لعمقه ، ومنها الفصيح القدر على الكلام . (للسان مائة منج) فعلى أى هذه المعانى يحمل لقب أبي العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحده ، هي التي تبيّن هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس لقب بالساحس أحداً من قوله في حطته المشهورة التي حطها أهل الكوفة غداة يوم الخلافة .

« يا أهل الكوفة أستم أهل محنت ، ومعل مود ، أستم الذين لم تقيموا عن ذلك ، ولم يذكركم عن ذلك تحمل أهل الخور عبيكم ، حتى ذكرتم زماننا ، وأما كم لله بدولتنا ، فاسم أسعد لاس بنا ، وأكرمهم عبيد ، وقد ردنكم في أعطية دكم مائة درهم ، فاستمدوا فانا السباح المييح ونشر المير » . فنحط من هذه العبارة أنه يحط أهل الكوفة الذين أقاص عنهم من الأوصاف الكريمة ما أقاص ، وأنه قد راد في أعطيتهم ، فمن يتأى له أن يقول لهم يحقت ذلك به سعك للدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن يقول لهم : به لأوليائنا كريم معط ، ولأعدائنا ذر منير . والمعروف أن ساب العرب الخطائية يعلم أنهم في مثل هذا المقام ، مقدم الترهيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون المعانى المتناقضة ؛ وهذا من قبيل قوله تعالى : « لنن شكرتم لأريدنكم ، ولنن كعرتنم إن عذابى لشديد » . أصف إلى ذلك أنه لا يحمل بحقيقة إسلامي بقول إنه تحمل من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف نعمة ، أن يصور عسه تصويراً جاعلياً متراً دون محاشاة ولا تحفظ . وهذا باللقاب الخلفاء الإسلاميين كلها أنها ألقاب جميلة وأسماء حسان توحى بمعانى الإيمان واليأس والهداية والرشاد .

ولكن هذا التذليل البياني لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسند إلى أبي العباس من الحوادث الفظيعة ما يسوع أن يوصف بالساح على معنى السكك للدماء . ولواقع أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تكاد تفعل شيئاً من ذلك . بل هي لا تذكر لفظ السح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق ذلك فليرجع إلى كتاب « لأخبار الطوائ » لأبي حبيبة الديلموري المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، وتاريخ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فيجد أن كلا مؤرخين لا يزيد عند الإشارة إلى أبي العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين المؤرخين ، وكلها من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر أبي العباس نفسه ، لا تصيف إليه من حوادث القتل والمثلة التي تمت في عهده شيئاً . والمراد بحوادث القتل والمثلة التي حمل بها ذلك المصير قتل العباسيين الأوائل من أمية عدراً وصبراً . بل تولى كثير ذلك رجال غير أبي العباس . فيقول الطبري : « وفيها (أي سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن علي من قتل نهر أبي فطرس من بني أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً » وعبد الله بن علي هذا عم للخليفة ، وكان على الشام ، وسهر أبي فطرس عسطين . ويقول الطبري كذلك : « وفيها (أي سنة ١٣٣) قتل داود بن علي من كان أحد من بني أمية بمكة والمدينة » وداود هذا عم آخر لأبي العباس ، وكان على الحجاز ولبن . فثبت نرى أن الرواية التاريخية القديمة تعصب بكل بساطة جرائم قتل الأمويين رحلين اثنين هما عبد الله بن علي وداود بن علي . فإذا رجعنا إلى الرواية المعاصرة لأبي العباس نفسه وجدناها مؤيدة للرواية التاريخية . وهذه الرواية المعاصرة هي تلك القصيدة المؤثرة ابليغة التي رثى بها ابن أبي شبة القتلى مواليه من بني أمية ، والتي يقول في مطلعها :

تقول أمامة لما رأت شوري عن المصحح الأفس
وقفة نومي على مضجعي لدى همة الأعين النمس
أبي! ما عراك؟ فقلت الموم عروَنَ أباك فلا تنسى!

ويقول فيها معدداً المواضع التي قتل فيها بنو أمية :

أفاض المدام قتل كذا وقتلى بكثرة لم ترمس
وقتل يوج وباللاتية من من يثرب خير ما أفس

وبالرايين نفوس توت وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قومي أناخت بهم نواب من زمن ستمس

وكذا وكثوة ووح واللابان أسكنة بالحجار ، وهي التي قتل عندها داود بن علي من
قتل من بني أمية . والرايان موضع واقعة الزاب التي قاد الجيش العباسي فيها عبد الله بن علي
وسهر أبي فطرس فسلطن وهو الذي قتل عنده عبد الله بن علي الأمويين عدداً وصيراً كما
ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يمدد مصارع قومه الخيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهي
المواقع التي رهاها أبو العباس في حملاته ؛ الرواية للماصرة والرواية القديمة مطلقان براءة
أبي العباس من دماء الأمويين وتحملان غيره ورها

• • •

ولنعرض الآن بالإيجاز للروايات المتأخرة والحديثة . ويريد بها الروايات التي ظهرت
بعد القرن الرابع إلى أيامنا فلهذه قلة كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب
أبها العباس بالسفاح ، محذرة في ذلك الرواية القديمة وهي تمت ذلك الخليفة بالسفاح على
أبه سفاك قتال ، فصاحب كتاب الأغاني لدى بنفسه إلى بني أمية والمتوفى عام ٣٥٦
يعنون فصلا في كتابه (ج ٤ ص ٩٢ - ٩٦) بقوله . « ذكر من قتل أبو العباس السفاح
من بني أمية » ، ويذكر أبو العرج فصوله هذا على قصة سديف الشاعر ، فيزعم أنه دخل على
أبي العباس بالخيرة وعنده أبو هشيم وبنو أمية فأشده قصيدته :

أصبح الملك ثابت الأساس بالمهايل من بني العباس
ويقول فيها محراً الخليفة على الأمويين :

لا تقيلن عبد شمس عثاراً واقطن كل رقلة وغراس
خوفهم أظهر التمسود منهم وبهم مسكم كحز المراسي

قال فتعير لول أبي العباس ، وأمر بمن في محبسه من الأمويين فأهدوا ، وتزيد رواية
أبي العرج أن الخليفة أمر بسلط فسط على حشوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فلما
فرغ من الأكل أمر بهم فألقوا في الطريق ، فكانت الكلاب تحرم بأرجلهم ، إلى آخر
ما روى رحمه الله . ويورد ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ بس الشعر والحادثة ، ولكنه يصيف

الشعر إلى شاعر آخر هو شبيل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن علي ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وفيه إن سدياً أشد هذا الشعر للسمع ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وصوح وحلا ، وعزته إلى عبد الله بن علي بن يرم نهر أن طرس قد غناه أو العرج إلى أبي العباس ، وترويه فيه ابن الأنبار بين النفي والإثبات . على هذا الخط والاضطراب يقوم الرواية ساهرة لتي تصور أبا العباس شخصية قتالة شعبة نذكرها شعاعيات جكرها . وهو لا كرونيوموليك . وقد اتبع المؤرخون ، محدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ رواية أبي العباس مثل فيل الأدي في كتابه « تاريخ الحدا » ، وميور الإكبري في كتابه « تاريخ الخلافة » ، والمروم الحضري بك في « تاريخ الدولة العباسية » ؛ ومنهم من أخذ رواية ابن الأنبار مثل المرحوم جورج ريديان بك في الجزء الرابع من تاريخ المدن الإسلامية .



أما بعد ، فإن لم نقصد إلى الدفاع عن أبي العباس دفاعاً مطلقاً . وسكت أردنا إصافه من طريق المعث المعنى . وعنده أنه ! أكانت يده قد رنت من دماء المؤمنين . إنها لم تبرأ من دم ابن هيرة الذي استمرله أخوه أو جعفر من ماله بواسطة علي الأمار . فإن أبا العباس لم يجز أن يجرأ على جعفر ، وقتل ابن هيرة عذراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة الحمذية : إن دمة المؤمنين واحدة بحير عليهم أدم . ولم يكن أبو جعفر في الحق أدنى المؤمنين ، بل من أعلام وأشرفهم . والرواية القديمة تعزو إلى أبي العباس هذا الحادث دون أية مواراة ، ولكن ذلك لصري لا يسوع أن يوصف بأنه سفاح للدماء ، وهو ما نصدا أنفسنا لفتيه عنه .

بقي أن يقال إن أبا العباس كان الخليفة وهو المسئول الأول عن جرائم عماله . ولكن يرد على ذلك بأن العصر كان عصر زعازيع وهزاهز ، وأن أبا العباس كان مضوياً على أمره لعمه عبد الله بن علي بالمعرب ، ولأنه مسلم بالشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأبيه

أبي جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من هذين الخيارين وقد انتقم الله منهما على يديه
أشد الانتقام .

ترى هل تستأبى العباس على هذا التمهيص ؟ وهل حرج منه كما دخله ، فكان أولاً
وآخرأ ذلك التخليعة الشاب الوسيم العميف ، اوفى الكريم الطروب المقتصد الخريص على
محادثة الرجال ذوى العقول ؟
أكبر الظن أن قد فعل ؟

هارون الرشيد^(١)

بين التاريخ والقصص

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وأكثرها تداولاً على الألسنة ، وأشدها شيوعاً في الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحتة قد أصبح عليه القصص ثوباً صامياً من زخارفه ورواقه ، وتناوره الوضع والاتصال من نواح عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور القاريين ؛ ولم يلمس من الوهم في أمره غير واحد من الخاصة أنفسهم . ونريد في هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولاً ، ثم كما يصورها القصص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

— ١ —

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى المهاس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأُم ولد اسمها الخيرران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأشدّهم شكيمة ، فقد كانت أمه جروح النفس وكانت إلى ذلك موهوبة الحظ من العلم ؛ أخذته كما يروي الطبري عن الأوزاعي إمام أهل الشام . ولد هارون بالري سنة ١٤٨ هـ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عهد الطفولة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكي ليتولى الإشراف على تعليمه وتنشئته فأشأه يحيى على آداب ملوك القرس من بني ساسان ؛ فكان هارون يحب الصيد والقتل ؛ ويلعب بالدهبوس والصولجان والشرطيح ، ويشهد سباق الخيل في ميادين السباق . أما تعليمه فعمل وصيته هو إلى الأحمر السحوي مؤدب ولده الأمين تريماً كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولادة العهد في ذلك الزمان ، فهو يقول فيها : يا أحمر ! إن أمير المؤمنين

قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ؛ أقرنه القرآن ؛ وعرفه الآثار ؛ ورواه الأشعار ، وعلمه السن ، وبصره مواقع الكلام ونداه ، وامنعه الصحك إلا في أوفاته ، وحده تعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه ، ورقع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتهم فيها فائدة تفيدك إيها ، من غير أن تحرق به فتبيت ذهنه ، ولا تمن في مسامحته فيستعلى الفراغ ويألفه . وخوفه ما استطعت بالقرب والملاية ، فإن أمأما فمليك بالشدة والعظمة .

فلما ترعرع واشتد ساعده أخذ أبوه يدربه على فنون الإدارة والحرب ، فأعزاه الروم مرتين في سنتي ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفي سنة ١٦٣ هـ ولأه على العرب كله وجعل على رسائله يحيى بن خالد . وفي سنة ١٦٦ هـ أحده البيعة بولاية العهد بمد أسيه موسى الهادي ولقبه (الرشيد) ثم لم بأن يقدمه على الهادي في الخلافة لما رأى من محال كفايته ومقدرته ؛ ولكن موته فجأة في عام ١٦٩ عاقه عن إعاد ما أراد .

فقد تولى الهادي حاول أن يجمع هارون ويسابع لأن له صغير ، ولكن هارون أبي أن يبرل عن حقه ، وشد أزره في ذلك سرية وكأنه يحيى بن خالد . فعرضهما الهادي لألوان من الاصطهاد ، حتى طاب هارون نساءً بانفع وأحيراً لم ينج يحيى من الهلاك ، وحق هارون من الصياع ، إلا موت الهادي غيلة في الحرم من عام ١٨٠ هـ وبذلك أصبح هارون خليفة على الدولة العباسية .

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً في مقتبل العمر ، موهور الثقافة ، تام العروسية جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا إلى ملاحظة يوصف بها ، فقد كان أبيض طويلاً وسيماً فصيحاً . فهو بذلك قابل لعمل الخبير إذا وجد ما يوجهه إليه ، وللفعل الشر إذا صادفه ما يصرفه إلى الشر ، والتوجيه لمن يكون في مثل حاله إنما يصدر عن نظام الحكم الذي تكون الدولة خاصة له ومحكومة بتوجيه . ذلك بأن لأنظمة الحكم تأثيراً في أخلاق الناس حكماً كانوا أو محكومين . وقد لاحظ هذه الحقيقة كل من كتب في السياسة والأخلاق من لدن الإغريق

القدماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكن أعطوا هذه النظرية الصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أى يكون وليس ذلك مكان لى البات وراثته الأعمام ؟

ويقول أول حلفائهم فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « واعلموا أن هذا لأمر فىنا ، وليس بخارج من حتى سلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام » ويقول للمصور من خطبة له « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأيدته . وحارسه على ماله ، أعمل فيه عيشته وإرادته وأعطيه ياديه ؛ فقد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتعنى لإعطائكم وقسم أركانكم وإن شاء أن يغلبنى عليها أقضى .. » ولكن تذكر مدى التعبير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين مكتفى بأن ورد بعض خطبة أبى بكر لى خطبته على إثر بيعته ، فقد قال « أيها الناس ! قد وبت أسركم ولست بحيركم فإن أحسنت فاعينونى ، وإن أسأت فقومونى . أطيعونى ما أطمت لله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .. » كما ورد الشعر الذى خاطب به الخطيئة عمر بن الخطاب بعد أن توبع ، قال

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه أتى إليك مقيد المعنى المشر

لم يؤثرك بها إذا قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصعب أن يعتبر من الوجهة العملية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شئ أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعاية فى بلاطهم ، يحجب بهم جم غفيرة من الحاشية والحجاب والحراس والعلمان والنساء والجواري . وكثيراً ما كان

بلاط فارس هذا الحليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ المتأخرين من الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السىء فى الشؤون العامة لأول طهوره ، فقد ذهب لمهدى والهادى ضحية مكابدة دبرت لهم فى نفس بلاطهم . حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط يحكم سكويه دوجو صالح للدسائس والمكابدة . ذلك هو النظام الساسى الذى أصبح الرشيد خليفة بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى طله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والظلمين . وإذا كان ضعيفا كان من أقوى وأعتى الفتنة والاضطراب .

وهذا بالذقة ما يشته تاريخ الدولة العباسية ، فالمتقدمون من حلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمصور ولهمدى والرشيد والمتوكل كانوا حاضرة طاعة . أما المتأخرون الذى يوصفون بانصاف فقد كانوا لأعيب فى أبهى أهل البلاط وساء انقصر ، يصرفهمهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم .

- ٣ -

على أن الرشيد لم يتقبل دمة واحدة أثر هذا النظام ، فصر منه وحدانية عهده بالحكم محاولا نظمية الحال دون هذا التقل السريع . لذلك عهده كالمعترف بأنه لم يبلغ بعد أن يصطلم شئون تلك الدولة العظيمة ، يعوض الأمر كله إلى أستاذه ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وقد بلغ من تحميه به وإعطائه له أنه كان لا يتأذبه إلا « يا أبت ا » .

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك فى مبدأ أمره سادن معبد بوى قديم بمدينة بلخ يقال له (الثوسهار) ثم اعتنق الإسلام فى أواسط الدولة الأموية واتصل بعبد الملك بن مروان واسه هشام ، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به . وقد اشترك أبوه خالد فى أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استورده المنصور لأصالة رأيه وكفايته وإن كان ذا ميول أمجية لم تحف على المنصور . وقد ورث أبوه يحيى فضائله وكان لذلك أثيراً لدى لمهدى . فلما تولى الرشيد أطلق يده فى شئون الدولة فاستعان يحيى فى إدارتها بأولاده الأربعة الفصل وحمر وموسى وعبد وكلهم كاف قدير . وقسم أمور الدولة بينهم وصار يعول عليهم فى معالجة الحوادث الخطيرة . فالقفل هو الذى استتصاح يحيى بن عبد الله المولى الذى ثار

بغبرستان ، وإلى موسى وحمقر يرجع الفضل في القضاء على فتنة العرب بالشام
واختلاصة أن البرامكة غلبوا على كل شيء في الدولة وأداروها إدارة حسنة ، ولكنهم
إلى جانب ذلك قد شؤوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تعفى فيهم .
وبلو البرامكة وهم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن العصر الفارسي عامة ،
وتحقق ما كانت موالى الفرس ترمى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، وإقامة الدولة
العباسية التي كانوا عدتها ومحل عصيتها

وقد أدرك العرب بواذر هذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يعبرون عن
معارضتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر .
فكان الحنفاء العباسيون الأوائل ينفون ثورتهم بالصف ويريق الكلمة جهد استطاعتهم
لعلهم أن العرب أنصار الدولة الأموية الداهية لذلك نجد قادة العرب بعدون عن الثورة
إلى الدهاء واصطفاء الحذر .

كان بفوهاشم على رأس الحزب العربي سعداد ، وكان يمثل هذا الحزب سلاط الخليفة
شخصان الفصل بن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفصل فكان رجلاً واسع المطامع ، سم الدهاء ، قادراً على الدس والوقعة ، حاضماً
على البرامكة ، والذي يقرأ مدائح أبي نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشراء على لفت نظر
الرشيد إليه .

من ذلك قول أبي نواس مخاطباً الرشيد :

قولاً لمبارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على مايك من قدرة فلت مثل الفصل بالواجد
ليس على الله بمسئوك أن يجمع الصائم في واحد

وكان من وراء ذلك أن استعجبه الرشيد في عام ١٧٩ م كان محمد بن يحيى البرمكي .
أما الزعيم العربي الثاني إذا صح هذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة حفيدة أبي
جعفر المنصور وزوج الرشيد وأم ولد محمد الأمين .

وهي امرأة عظيمة المواهب موهورة الثقافة شديدة المباهاة بسببها الماشي وكان الرشيد يحبها ويعرف لها مكاشتها المتأخرة . وكانت هي أيضاً مباحدة للبرامكة متغيرة على يحيى وكان إليه أمر القصر فكان بذلك يصيق عليها ويتعمد عدم إعاذ أوامرها حتى إنها شكته إلى الرشيد فلم يرد الرشيد على أن عتب على يحيى في ذلك .

ومما يكن من شيء فقد تركزت المنافسة بين العرب والمعم إدراك في أمر ولاية العهد فأما العرب فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لحمد الأمين العربي الأيوبي ، في حين أن الفرس كانوا يحرصون على أن يكون الذي يلي الرشيد في الخلافة عند الله المأمون الفارسي الأم .

وقد حار الرشيد في الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه الفئود العربي فعقد البيعة بولاية العهد لحمد في سنة ١٧٥ ولقبه « الأمين » فكان ذلك سبباً في أن يجد الفرس في الأمر حتى اضطروا إلى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله في سنة ١٨٣ على أن يلي بعد الأب . ولقبه « المأمون » ثم أوعر إلى الشعراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطلبوا إليه البيعة بولاية العهد لاسه لقسم فعموا مفقدها له في سنة ١٨٦ على أن يلي بعد الأمين والمأمون ولقبه « مؤمن » . قالوا ولم يسمه من البيعة لاسه المعتصم إلا كونه أميراً وغير متعلم بخلاف إخوانه المدكورين

ثم بدله فوق المأمون على الأمين فهم بأن يقدمه عليه في ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذي صنع أن قسم الدولة بين أسائه الثلاثة المدكورين ، فجعل للمأمون الأقاليم الشرقية التي يصب عليها المنصر الفارسي والأميين الأقاليم العربية التي يفل عليها المنصر العربي وجعل الخزيرة والنعمور لأمته المؤمنين .

ثم لحظ الخطر الذي يهدد الأقاليم الشرقية فأوصى المأمون بمال وسلاح كثير تقوية له وجعل إليه أسر المؤمنين إذا آت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى عقد بيعته وإن شاء نقضه وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكي يؤكد هذا النظام حجج في سنة ١٨٦ واستصحب ابنه الأمين والمأمون . فلما كان بمكة كتب جهوداً ثلاثة أخذ فيها الميثاق على ابنه أن يرعى كل منهما حق أخيه عليه ، كما أخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من بدل وغير في

عنده . ثم أمر فطلق المهدان الأولان في جوف الكعبة توكيداً لما وتعتظيان لشأهما .
 لاشك في أن ذلك النظام الذي وصحه الرشيد لأمر الخلافة من بعد لا يشرف مقدرة
 السياسة كثيراً فهو منتهى حطل الرأي وفساد التدبير . وإن الفتنة التي وقعت بعد بين
 الأمين والمأمون ، والتي صدعت وحدة الدولة العباسية حيناً من الزمن لتقع تحتها على عاتق
 الرشيد نفسه . لقد حرص الرشيد في وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلا
 من أن يصطلم الحرم ويتوخى مصلحة الجماعة . ولقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه .
 قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

أى الملك المهدب شر رأى	نقصته الخلافة والبلاد
رأى ما لو تنقبه — لم	لشب من مفاقره السوداء
أراد به ليقطع عن ربه	حلافهم ويتبدلوا الواد
فقد غرس المداوة غير آل	وأورث شمل أنفهم بداد
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى ما الكرب الشداد
ستجرى من دماهم محور	رواحل لا يرون لها بعدا
فوزر بلائهم أبداً عيـه	عياً كان ذلك أم رشدا

وعلى أثر انصراف الرشيد من حصه المذكور راع العالم الإسلامي بحادث لا تزال
 أسمايه على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مهمة عامنة ، ذلك لإيقاعه بالبرامكة في
 عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة في تعميل هذا الحادث المحزن ولكنها كلها لا تشفى
 غلة الباحث . فالرشيد لم يصرح لفرط دهائه بسبب سكتته للبرامكة ، وترك الأمر ينحدر
 إلى الأجيال من بعده لنزاعاً عامصاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً
 ثابتاً عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر في سكتهم . قالوا إن السبب في التفتك بالبرامكة
 استئثارهم بالأموال واحتيازهم الصباغ العامرة ، وهو سبب غير وجيه لأن من يقدر على انتزاع
 الفجج والأرواح أقدر من يابى أولئك على انتزاع الأموال . وقالوا إنه الزندقة وهضم الصبح

للإسلام ، وهو أمر لو صح لأعلمه الرشيد إقامة الحجة على البرامكة واستقامة للرأى العام الإسلامي عليهم . وقالوا إن السبب نشيئهم للمويعين وسعيهم في نقل الدولة إليهم وإعانتهم يحيى ابن عبد الله العلوي على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وحيه لأن البرامكة إغما عزوا بالدولة العباسية وبلغوا دروة المحدث في طلبها فمدا بحملهم على النصحية بذلك والمخاطرة في أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ! ثم هو على فرض تحققه لن يبيهم شيئاً غير حاصل في أيديهم بالفعل . وقالوا إن رواج حمير بن يحيى من العباسية أحت الرشيد واتصاله بها سرأ برغم حظر الرشيد ذلك عبيها ، وهذا السبب عدما حرافة شعوبية زعمها بن حلدون في مقدمته . وسيمرض لها في موضع آخر من هذا البحث .

إن الذي رجحه ، ولا سبيل في هذا الموضوع سوى الترحيح ، ويرى أنه السبب الجوهري في إيقاع الرشيد بالبرامكة إنما هو استنثارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قدما أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بمسكرة فقهية احتشدت العباسيون احتلالاً ليتمكنوا أنفسهم . وتنفيد لا يطبق أن يشركه إسان في لسلطان الذي يراه حقه المشروع . ولا سيما إذا كان في مثل هذه الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ، ولم يصبر الرشيد في مبدأ الأمر على نفوذ البرامكة إلا لصبر سنه وقلة تحاربه فلما صلب عوده وانسجت حبرته وشر محقه لم يعد للصبر عنده موضع ولا مسع .

وقد وجد حصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفصل بن دميم وكانت البرامكة إسماعيل بن صديق ، محال السعاية واسعاً ، فقبلوا يحسون فيه ويوصعون فأوهوا الرشيد بما يصح أن يعتبره السبب المباشر في إيقاعه بهم ، أوهوه أن البرامكة على اتصال بحراسان التي استعنت منها الثورة بالأمويين ، وأن الجيش الصخم الذي حشده الفصل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية في الظاهر إنما هو في الواقع لأمر أجل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بحراسان وأنه يكاتب أهلها ليسير إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتب ترد على الرشيد غملاً من توقيع أصحابها كالسهام للسمومة يرى بها في الظلام ، وكلما تحذر الرشيد من البرامكة وترى أنهم على وشك أن يدفخوا به في هاوية بعيدة القرار . كل ذلك أثار هواجس الرشيد ، وجعله يعتقد أن الأمر يسه وبين البرامكة هو عين

الجلد ، وأنه أمر حياة أو موت . وإذا بلغت الحال ذلك المدي فالويل كل الويل لأولئك الذين حروء إساءة بإحسان وغدراً بوفاء . لقد بهوا منه من لا ينام ولا يبيم .

لا شيء أدل على أن الرشيد قد استكمل الدهاء والحزم والتصميم وأن نظام الحكم لدى وصمه قد عمل فيه عمله فصيح منه جباراً عنيداً ، من معيه في استرداد سلطته والتكامل بالبرامكة . فقد سار في الأمر بحذر شديد فأنصل بالجمهور مباشرة وجعل يعي بما يعنيه ، من إصلاح للنظام المالي استعان فيه بقاصيه أي يوسف ، وتوفر على التزوي والحق في المراكب العائرة راكباً وماشياً ، واصطاع للطبقة المفكرة من فقهاء وعصاة وشعراء ، وإعديق للأموال على الناس وبخاصة في حجة التي حجها عام ١٨٦ ، وبالأحد الشديد لنفسه مقتدياً في ذلك بحده المصور . وقد تم له ما أراد فمست مكائته في المومس واشتدت هبة الناس له . عند ذلك تنكر للبرامكة ولسكن في حبيطة واحتراس ، فلما عاد من الحج وكان يمكن يقال له (العمر) قريب من الأرباب أحد أوسره في ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقل سائر البرامكة واستصعد أموالهم . ثم إنه أمر بتقطيع جثة جعفر ونصبها على جصور بغداد الثلاث ، وبسط المذاب على يحيى وأصل حتى ماتا في البحر ، ونهى الشراء عن أن يرثوا البرامكة أو يدكروهم في شعرهم ، وتوعدهم من يفعل منهم ذلك . وتقول المصادر العارسية إن الرشيد قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن المصادر العربية وهي الأوثق لا يؤخذ بها ذلك والحق أن البرامكة إنما نكبوا في سلطانهم وأموالهم بذليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه الكارثة أجيالاً طوالاً .

وقد طست جثة جعفر منصوبة على جصور بغداد حتى سرها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بإزالتها وإحراقها . يقول صاحب الحمرة في كثافة رواية عن بعض معاصري الرشيد « دخلت الديوان فنظرت في بعض تذاكر النواب ، فرأيت فيها أرسمائة ألف دينار (١) ثمن حلقة لجعفر بن يحيى الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نعط ووارى لإحراق جثة جعفر ويحيى « بحيث من ذلك » .

لقد شفى الرشيد نفسه بتكبة البرامكة ولكنه اشترى ذلك بالثمن العالي ، فربب الاضطراب الذي أصاب دولاب الإدارة العامة وعدم كفاية آل الربيع الذين حلفوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخماد الثورات التي كان يعهد من قبل بإطفاء نائرتها إلى البرامكة ، وقد أدرك الرشيد خطأه ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتد به الدم وتويج الصبر وأحدث محنته مصعب ، وسلط عليه الأرق ؛ فإذا نام فقوم مروع بالأحلام المزعجة . وعدا محتاجا إلى من يناصره في جوف الليل لينفي عنه الوحشة كما أصبح محتاجا إلى من يدخل السرور على قلبه لوجل . فبحث مضحكا عنه ابن أبي سريته المديون ، وصار يرتاح إلى الوعظ والترهيد في الدنيا ، فإذا وعظه ابن السهاك أو أشده أبو العتاهية شتم قلبه وفصت دموعه على أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور الملاقة بينه وبين رعيته ، فقد أصبح يحوي سرهوا بعد أن كان مهيما محبوا . وصاروا يشبهونه بالدهر في قلبه وتحبوه . قال أبو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع :

ما دعى الدهر آل برمك لما أن رمى مسكهم بأسر فطيم
إن دهر الميرع هذا ليحيى غير راع دمام آل الربيع

حتى أمضوه ، فإنهم أصبحوا يستطيرون حبيبه وشمعون رواله . قالوا إنه لما سار سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصغار فسار به الصباح الطبري فقال له يا صباح ! ما أظنك ترى أبدا أعداءه . فقال ما أظنك تدري ما أحد ، قال الصباح . لا والله . بعد عن الطريق ، واستظل شجرة ، وأسر حواصيه بانحد فكشف عن بطنه فإذا عليه عصاة حديد . فقال هذه علة أكنتمها لئلا تكلم ، وكل واحد من ولدي على رقيب ، فسرور رقيب لأمون ، وجبرائيل بن مختبشوع رقيب الأمين ، وما مهم أحد إلا ويخصي أندسى ويستطيل دهرى . وإن أردت أن تعلم ذلك فإلهه «دعو بداية فيثوني بريدون أعصف قطوف أيزيد عتي . فأكنتم على ذلك . فدعا له مايقام . ثم طلب الرشيد دابة في مواهبها على ما وصف ، فمطر إلى الصباح وركبها .»

ولم تطل حياة الرشيد ، فقد اشتدت به المنة في حروجه هذه وساء خلقه حتى إنه لما جرى بأخي رافع بن الليث قتله شر قتلة وهم من يعمل مثل ذلك بطمسه جبرائيل بن مختبشوع لأنه أخطأ في علاجه لولا أن ملوت عاحله عذبية طوس فدفن بها ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ .

إذ كان الرشيد لم يوفق بوجه عام في مجال السياسة الداخلية ، فإنه كان على عكس ذلك في ميدان السياسة الخارجية ، فقد أظهر فيه نشاطا وسرورة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية كما يؤخذ من المصادر العربية التي تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوروبية التي تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية . لقد كان في العالم الإسلامي والعالم المسيحي إذ ذاك أربع دول كبيرة : اثنتان إسلاميتان متعادلتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحيتان متعادلتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، من أجل ذلك عهد الرشيد بحصن الثغور الشامية والحزرية وبتولى نفسه غزو الروم وبعرض الجزيرة على منكنهم إيريني ومسكنهم نيقفور الذي جاء بعدها . وكذلك كانت العلاقة مقطوعة في العرب بين شرلمان وأموي الأندلس . وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والأندلس وتقارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية . ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس ، في حين أن الرشيد وشرلمان تبادلوا السفارة والهدية ، وأرم بينهما اتفاق لا يدرى مصمونه بالدقة . غير أن فرائض الأحوال تدل على أن الرشيد تعهد بحماية صحاح أوربا العربية من عدوان البيزنطيين عليهم بيت المقدس ، وكانوا يحلمون في مذهبه الديني أهل أوربا العربية ، كما تعهد شرلمان ألا يعين بيزنطة على الرشيد ، وأن يعير على الأندلس ، فما غلب عليه منها تولى حكمه باسم الرشيد . فاقوا : ومن أجل ذلك بحث إليه الرشيد بحملة رسمية وعم عيسى .

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فأوعل الرشيد في أرض الروم ، كما أوعل شرلمان في شمال الأندلس وشرقها مع قراره العاهل المسلمين على ما غلب عليه ويذهب المؤرخ الإصحيري بكل إلى أن الرشيد أصبح تشبهه على نيقفور البيزنطي باخرب ، وتشابهه على شرلمان بالسياسة قد حار من سعة الملك ما تفوق ملك الإسكندر مقدوني

ومع ذلك لم تكن السياسة عموماً المردوج الحال الذي ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته الإبداعية . إنما سطعت النواحي البيرة من نفس الرشيد في مجال العلم والفن ، وهو في ذلك يشارك غير واحد من عظماء المستعدين المستعدين أمثال الإسكندر وعمر دريك الأكبر وبابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أواخر رجال عصره علماً وفقهاً وأدباً . كان لا يبي في تحصيل العلم حتى يبعد أن يستحلف . يقول السيوطي : إن المأمون أحد الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضي الفاضل : ما أعلم أن لملك راحة قط في طيب العلم إلا للرشيد ، فيه رجل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله . قال وكان أصل الموطأ لسماع الرشيد في خزانة المصريين ، قال ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم ثالثاً هما ، وللرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثي حارية له اسمها هيلانة :

فارت عيشي حبيب فارتها ما أبلى كيما كان
كانت هي الدنيا فلما نوت في قبرها فارت ديانا
قد كثر الناس ولكني لست أرى سداً

على أن هر الرشيد في هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن بإقتضائه على العلماء والفقهاء والشعراء والموسيقيين واحتداده إياهم إلى العاصمة مما كان يرفعهم به من العطايا الجسام ليكونوا حالة هو بدرها ، وعقداً هو واسطته . وقد حملت بمداد في عهده بأقطاب العلم والأدب والفن ، حتى كان الرشيد لا يعدم على يابه واحداً أو حلة منهم ليلاً ونهاراً من هؤلاء الأسماء وأبو عبيدة ، وأبو عثمان اللؤلؤ ، والسكاسي النحوي ، والواقدي المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه وسروان بن أبي حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية وأبو نواس والعباس بن الأخنف وكلهم من محول الشعراء . وقد ناصت النساء الرجال في ذلك الميدان فكثير الجوازي الأدبيات وكان للسيدة ريبة مائة حارية كلهن يحدن حفظ القرآن .

وكان الرشيد يعقد لكل طبقة من هؤلاء مجلساً خاصاً ، فالعلماء مجلس يتوسط معهم فيه ولا يأب أن يتعلم فيه منهم ، وللشعراء مجلس يسمع فيه أشعارهم وينقدها ويحيرهم عليها بالخواثر السنية . والمعنيين مجلس يسمع فيه الرشيد غنائهم من وراء حجاب ، فإذا سُرَّ بما يسمع وطرب أمر رفعت السترة المصرونة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبار معنى ذلك العصر إرهم وإسحق الموصيان وابن جامع .

وكان للبرامكة ولآل الربيع مجلس من هذا القسل قال المسعودي : كان يحيى بن خالد دا محث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الفعل فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده « قد أ كثرتم الكلام في السكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإنبيات والنبي ، والحركة والسكون ، والنباسة والنبائية ، والوجود والعدم ، والبحر والظفرة ، والأحسام والأعراض ، والتعديل والتعريض ، والكيفية والكيفية ، والمصاف والإمامة أمي أم اعتبار ، وسائر ما يورد من الكلام في الأصول والفروع ؛ فقولوا الآن في المشتى على غير مسرعة ، وليورد كل واحد منكم ما منعه له فيه وحطرساله فقال . . » كان لهذه المجالس المليحة أثر بعيد في تكوين اللغة العربية وتمييزها وبعث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اقتدى بها من بعده الرشيد في عقدتها . ثم سرت عادة عقدها إلى لأندلس فكادت من دواعي رقة الأدب الأندلسي وعذوته .

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أو كما تصورها ذه الصعفات الكثيرة التي أفردها لتاريخه وأحباره كبار المؤرخين وأصحاب التراجم كالطبري والمسعودي وأبي الفرج الأصبهاني . فهي في جنبها شخصية حاكم مستبد مستدير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة الاستنارة ، فهو حريص على الأنفة والعظمة ، قليل الاتزان في تصرفاته ، إن رضى ببع عاية الرضا وإن سحق كان طائش السيف ، معرط العقوبة ، لا يعرف الموعد المقدرة ؛ حقوق ، غير قادر على الحب الصحيح وبولاء الصادق ، وسكنه مع ذلك سياسي ماهر قد ترك دولته وهي أقوى وأعز دول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أ كثر ملوك الأرض حب للعلم والفن والأدب وأشدهم تشجيعاً للعلماء والأدباء والعلماء .

ذلك هو الرشيد في التاريخ ، أما الرشيد في القصص فإنسان آخر ، هناك طائفة من الملح والمواد والقصص مشورة في بعض كتب التاريخ والأدب ، وفي كتاب « أعلام الناس » للأسيدى وفي كتاب (ألف ليلة وليلة) وهي في حمتها تصور لنا الرشيد رجلاً صاحب رسالة وتهور ، صديق الحياة والعزة على عرصه ، يشتغل بحارمه ونفثه فاصبه أبو يوسف عما يفعله بعينه ؛ قد اصططع أما واس ، وصبر على عنه ومحبه وأدله في أن يدخل على حرمه وشعب محمد البرمكي حتى أصبح لا يطبق فرقه وحتى كان يحبس منه في قبه يصمها ماعاً ، وحتى عقد له على أخته العاسية التي كان لا يطبق فراقها هي أيبس بعداً ، حطر عليهما أن يتناسا الحق أن هذه الأحذر كله معتلة موضوعه وأنها أثر من آثار الشمسية التي حاولت الخط من قدر الحليفة الذي أوقع نادر مكة ومن أقدار رحمة الدهين ؛ وإلا لما بال ديوان أبي نواس معه وما بال كتاب الأغانى لا يكاد يشتمل على خبر واحد بعيد انقطاع أبي نواس إلى الرشيد وهراته عليه مثل ما ترويه الملح والمواد الآفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب في كتابه « أخبار أبي نواس » وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبي نواس : إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين ، ولا شك أن في هذه الرواية مبالغة كما يرى من ينصيح شعر أبي نواس فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر إليه ، ورتاه .

وهناك حكايات أخرى واردة في (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد في صورة ثالثة . تصوره أما رعيته رحيماً محباً للعقول والآداب ، يستدعى الرداة والشعراء فيقصون عليه طرائف الأخبار ويشدون روائح الأشعار فيجبرهم على الترويض السنية ؛ كما تصوره حاكماً عادلاً قوياً مسووط السلطان على الإنس والجن ، ساهراً على مصلحة رعيته يتمتع هو ومحمد البرمكي ومسروور السيف في رى تدر غزاه ويبرلون إلى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلعون على أمور عجيبة وشئون عريضة ، فإذا كان الفد واستوى الخليفة في مجلسه أرسل في طلب من تكون قد أثار في الليلة الماضية عجيبة أو غضبه فيعاقب المفسد ويثيب المحسن ، ويزوج المتعاشقين ، ويصلح بين المتخاصمين .

هذه الحكايات كتب أغلبها في بغداد وعصر في العصور الإسلامية المتأخرة عن عصر الرشيد أي إبان اضطراب الدولة الإسلامية وخطاها . فكان هم القصاص أن يشيدوا بالعصر الإسلامي الذهبي عصر الدولة العباسية الأول . فصوروه عصر حكومة أنوية قوية عادلة ، وعصر حرية شخصية يحد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربه . وقد احتاروا الرشيد دعامة قصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح يحاسبه ومساوئه أشهر الخلفاء على الإطلاق . فشخصية الرشيد لها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان .

وبما استريح إليه نفس المؤرخ في هذا المقام أن شخصية الرشيد الذي تصوره الحكايات المذكورة ، لا تتعارض في جوهرها مع الماحية الطيبة من حياة الرشيد الفارسي ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والفن . ها فقط تلتقي شخصية الرشيد التاريخية بشخصيته القصصية فتتبع الثانية على الأولى مقدارا غير قليل مما كتب لها من الرواء والروعة والجلود

أم الحسين

السيدة زبيدة *

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . واسمها في الأصل « أمه العزيز » ، وكثيراً ما تسمى بأم جعفر ؛ وإنما لقيت زبيدة لأن جدها المصور كان يرقصها وهي صغيرة ويقول : يا زبيدة يا زبيدة ! وذلك لاسمها وبصاعتها ، فلقبها هذا اللقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في مدينة المصور أشاة الأميرات العباسيات في ذلك العصر ، فتفتت أحسن ثقافة ، وأدبت أكمل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، ودكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الخلال كلها احتارها الخليفة المهدي زوهاً لابنه هارون ، فأعرس بها في عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت في سنة ٢١٦ هـ ، كانت السيدة زبيدة ألمع شخصية نسوية في العالم الإسلامي كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة ولمكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخرية الأقدار هذا العاهل الجبار الذي قارع القيصرة ، وأدل الحاضرة ، عندما تصعب بيزانته في النفوذ والسلطان والشهرة في الحياة وبعد الموت امرأة هي روجه السيدة زبيدة . وقد شهدت زبيدة في مدى حسين عاماً من الأحداث الحسام ما شهدت ، ودافقت من إقبال السعد وإدباره ما دافقت ؛ ومع ذلك بقيت هي هي ، سيدة حليلة ، وملكة عظيمة .

لعل أول مشكلة واجهتها زبيدة بعد رواحتها من الرشيد ، هي نفس المشكلة التي تواجهها كل امرأة تكون في مثل حالها ، وعند مثل زوجها . لقد كانت قصور بغداد عامة

والرشيد حاضرة عاصمة الجبال الأنثوى المحبوب من كافة أقطار العالم الإسلامي الموضح الأجاس والألوان واللغات ؛ فيها ما شاءت العين من ساء جميلات لا حصر هن ، من بين عربيات ، وفارسيات ، وروميات ، ومعربيات ، وحسنيات ، حهن بل كهن ملك عين للعليلة معه ، وهو بعد شاب في ميعة الصبا وعمود الشباب ، فوق ما كان فيه من تحجر وروع إلى الإستبداد بكل شيء في سلطته ، فكانت زبيدة تحشى قطعة الحار أو بعضها على قلب الرشيد من عدها نكون من هؤلاء النساء أربع منها حلالا ، وأكثر حراما ، وأشد دكاء ؛ ولمسكنها مع ذلك عرفت كيف تروض روحها الشاب المرح الطروب ، وكيف تحمل بعضها من قلبه بالحل الأول كل ذلك في رقة ، وطرف ، وكيسة ، وحسن ذات للأمور ، وبصر تام عند احلالها ، وبحارحها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى من حاليه البرمكي جارية فائقة الحس بارة الأدب والعناء تسمى دماير ، وكان الرشيد يكثر من المسير إلى دار يحيى ليسمعا ، حتى ألفها واشتد إعجابها بها . وعلقت زبيدة بالخبر فشكته إلى عمومتها ، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه . فقال : مالى في هذه الحادثة من أرب في نفسها ، وإنما أرى في ضائها ، فاسمعوها فإن استحضت أن يؤلف غناؤها ، ولا تقولوا ما شئتم ! ونقلهم إلى دار يحيى حتى سمعوها عنده ، فمدروها وعادوا إلى السيدة زبيدة فأشاروا عليها ألا تلج في الأمر ، فقلبت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر حوار منهن أمهات أولاده المأمور والمعتم وصالح . ومن هذا القليل ما يروى من أن الرشيد نصب عينا يوماً ، ثم ترصاها ، فأنت أن ترضى عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : امشوا إلى على دجلة افعلوا ، فقدم ينظر إلى الماء وقد رأى فيه ريادة محبة ، فسمع من حيد معنياً ينشئ بهذه الأبيات :

يجرى السيل فاستبكاى السيل إذ جرى وفاصت له من مفتقى عروب
وما ذلك إلا حين خربت أمه يمر بواد أنت منسبه قرب
يكون أجاباً ماؤه فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
فيما ساكى شرق دجلة كلهم إلى القلب من أحل الحبيب حبيب

سأل الرعيذ عن الناحية التي فيها القفاء ، فقيا دار ابن اسب ، فبعث إليه :
أن ابست بالمضى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فأنه عن الشعر ، فقال : هو للعباس بن

الأحف ، فأحمر واستندته فأشده إياه . وجعل الزير يغنيه ، والعباس يشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فألت عن سبب دخوله فعرفته ، فوجهت إلى الشاعر تالف دينار ، وإلى المعنى عنها . ولا شك أن الأسر كله كان مدرأ ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التقدير اللطيف .



هذه المهارة وثبتت لدفعة عرفت زبيدة كيف فروض ميكنها الشاب وتعلم من جده وكيف تضمن ولاء له وإخلاصه لحبها . ولم أنها تمسكتها لغيرة العداشة وسورها الجزع بمن كن يعاليمها على قلب الرشيد ، فأكرم العن أسها كانت هي التي تخرج من الميدان مهرومة معلومة على أمرها . على أن زبيدة لم تشأ أن تكون مراتها من قلب روجه مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب محسب ، بل أحست أن تكون عديلتها في الثقافة والفن والأدب : فإذا كان الرشيد تصحبه بلاغة العبارة فتسكن بليغة قادرة على أن تذيل الكتب التي ترفع إليها بتوقعات حسن . روى الخط قال : « عمر بن جعفر بن سعيد قال : ذكرت لعمر بن مسعدة توقعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأمر جعفر توقعات في حوائش الكتب وأسافلها فوجدتها أحرد استصاراً وأجمع للمعانى » وهاهيك بجعفر بن يحيى وعمر بن مسعدة ، فالأول ممن يصرب بهم لثقل في البلاغة والثاني من أبلغ كتاب المأمون . وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بحمده وورثته ، فلتسكن هي كذلك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبي العتاهية ونصيب وسلم الحامير وأشجع السعي بالإشادة في حصرتها ، ولتتقد شعرهم بقدر حبير عارف بالشعر ولتجز الحسن منهم ، ولتدلل للمقصر على موضع تقصيره . وفي كتاب « الأغاني » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لتقددها وروهم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولعاً بسماع الموسيقى والثناء ، شديد الإقبال على كبار المشتغلين مهدين الفممين الحليين فتتقد به زبيدة في ذلك . والحق أسها بلغ من عنايتها بالموسيقى والثناء أن أنشأت في قصورها ما يشبه أن تكون معهداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الخواري يأخذن الصناعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحق الموصلي ، وعلوية ، ومخارق ، وأصرامهم . وكانت

إذا بلغها أن مغنياً مشهوراً وضع لحناً جديداً أمرت حواريها فأخذنه عنه . ولقد دهعت ذات مرة ثلاثمائة ألف درهم ثمناً بعد أسود يحمد السماء . وكثيراً ما كانت تعرض بصاعتها في هذا المجال على زوجها في حفلات تحميد ترتيبها وتسبيحها فيصحبها أينما يحب

وإذا فقد أصبحت السيدة ربيدة مملكة على الرشيد مالكة لرامه : تصرفه كيف شاءت فينقذ لها كل انقياد . لقد غرت قلبه من جميع أقطاره ، والويل لرجل بلى مصاح أمة إذا غزت امرأة قلبه وملكت عليه رماه أسره . إنها لا تبت أن تجعله مطيعاً إلى السيطرة على مصالح أمة نفسها ، توحى به على حسب أهوائها ووفق أعراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التي تستهوي أفئدة النساء الجليات الموهوبات الطموحات ، وهن لا يحتمن عن التورط في مآرقها إذا ما وُجدن السبيل إلى ذلك سهلة ميسرة . وسهامهن في مجال السياسة ، كسهامهن في مجال الحب ، مصميت قاتلات . . . والله در أبي فراس حيث يقول :

ولا تملك الحساء قنى كله وإن ملكتها روفة وشاب

ولقد وجدت ربيدة سبيل التعرض لسياسة الدولة مهددة ميسرة ، فركبتها غير هيأة ولا مترددة ، ولقد تعرضت لأق امور هذه السياسة وأشدّها خطراً ؛ ومعنى ذلك ولاية العهد أولاً والأحد تناصر الحزب العربي ثانياً .

لقد رزقت ربيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أنعمهم ، فإن أمه كانت حريصة على أن يكون الخليفة مدأيبه . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعيّاً حثيثاً ؛ فهي آتية تدفع الشعراء إلى مدح محمد والإشادة بذكره ؛ وآتية تستعمل سلطانها على الرشيد لمصلحة ولدها . وما زالت كذلك لا مفر لها منه ، حتى رل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة بولاية العهد لمحمد ، على أن تكون الخلافة لأخيه عبد الله المأمون من بعده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف السكة تأكيداً لما فيها من جهود أخذت على الأخوين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمي الأيوبي ، وهو بذلك يمثل الحزب العربي في الدولة العباسية

لذلك العهد . أما أخوه المأمون قفارسى الأم ، وهو بذلك يمثل خزولته من الفرس الدين أقاموا الدولة العباسية ، وكانوا للصرفيين الحقيقيين لأمورها . فيبى أن يحد من مودهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون خليفة المستقبل عصبية عربية قوية يستند إليها ويستند بها أرو . وهذا محمد زبيدة تعمل على تنحية العصر الفارسى عن إدارة الدولة العليا ، بادئة في ذلك بالبرامكة بطبيعة الحال . وبظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد باع في فهم ما أوحى به إليه ، وذهب في الأمر إلى أسد من العاية التي كانت ترمى إليها ريبة وسوهاشم ، فكس البرامكة مكتبهم المشهورة في عام ١٨٧ والتسعة في ذلك واقعة لا على السيدة زبيدة ، ولكن على الرشيد ، وهو الذى لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعها في مواضعها .



بليت السيدة ريبة ذروة مجدها في آخر مات عهد الرشيد . فلما توفي سنة ١٩٣ بكنهه أحرى كاء ؛ فقد كان زوجها ومصدر عمرها وسلطانها ، ولكن عراها عن فقدته أن أصبح ولدها الأمين الحبيبة من بعده ، فامتدت أسباب سلطانها أياما أحر ، كانت قصارا لسوء حظها

لقد دب ديب الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون ، وتفاقم الشر بينهما . ولقد حرصت زبيدة على أن يصمو الحو بين الأخوين ، ولكن المقادير حرت بعير ذلك ، فانتصر المأمون ، وقتل الأمين على شر حال . فكان رزء زبيدة قادما وسطها جليلا ، إلا أنها تماكنت وتحملت وجعلت تروى نفسها على أن تنظر إلى أمور نظرا هادئا ، فهل المأمون إلا مقتضاها ، إن فاته أن يكون اسمها حقاً ، فلتنزه من نفسها هذه المرة ، ولتعامله على هذا الاعتبار . ويتقتل المأمون من حراسان إلى ضداد ، ويعرف لها حقها أول الأمر ، ويقعدها ببرد وصلته ، ثم لا تنبث أن تعرف في وجهه الحعوة والنور منها . فتتطلب للأمر على عاداتها القديمة في معالجة الخلاف الذى كال ينشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أنى المعاهية الشاعر أن يقول شعراً على لسانها فيه عتاب للمأمون على جفائه لها ، ويصح الشاعر هذه الأبيات الملوثة تفجهاً وتوجها :

ألا إن ريب الدهر يدي ويعد ويؤس بالآلاف طوراً ويعد
أصابت لريب الدهر من يدي يدي فليت للأفدر والله أحد
وقت لريب الدهر إن دهرت يد فقد بقى والحمد لله في يد
إذا بقى المأمون في فرسيد لي ولي حمر لم يمدد ومحمد

ثم أمرت محمد فامضى أن يعي من هذه الأبيات ، فأنزل المأمون عن الخمر وهرقه ،
فبكي ورق لها ، ودام من وقته ودخل إليها ، فأكب عينيها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه !
ما جعلك بهذا ، ولكن شعيت عليك عما لا يمكن إعداله . فقالت : يا أمير المؤمنين إذا
حسن رأيتك ، لم يوحشني شئك . وأتم يومه عنده .

ومهما يكن من شغل المأمون لها ، فقد أدركت ريبة أن قد نفصى رماها ، وذالت
دولتها ، ولم تعد تفكر إلا في كيف تخرج من الحيرة لامة سائلة - وفورة الكرامة - وسرعان
ما سمحت لها فرصة ذلك . فمد ما بين المأمون بيوران بنت الحسن بن سهل بن أبي النيرة
زبيدة نشارك في العرس . واتفق في ذلك أموالا ضخمة ، وكتب في الوقت نفسه توغرا إلى
العروس أن تستأذن لها المأمون في الخروج الصحيح ، فلم يتردد المأمون في إجابة هذا الطلب .

من الناس من إذا تفكر لهم الزمان صمموا واستكاثروا وعمرهم اليأس من كل شيء في
الديار ، فيصحبون أمواتاً وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يتأثر لنفسه من حده المائز فيعيش
لنفسه ونفسه فقط ، فيصبح بذلك أمياً أثراً مستهلكاً غير منتج . أما العروس القوية الكبيرة
فهي التي ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعتزضته عقبة
استدار حولها ومضى في طريقه . من هذه العروس الكبيرة نفس السيدة زبيدة ، فإنها لما
أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالاعمال ، توهمت نحو عمل الخير
فانفتحت أمامها آفاق لعمل الخير لا حد لها . ولقد اندفعت في اتجاهها الحديد بنفس
الحية التي كانت تندفع بها في صدر حياتها نحو أسرة الملك ومحمد لدا ؛ فهجرت السياسة
بتمامها ، وكذلك تركت حياة المن والأذى الذين لم يجد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت
بكل ذلك صبح البر والمعروف ، وقد تعمدت أن تكون في رها ملكة مسعة حقاً . هؤلاء

الحواري المعبيات أصحمن يرتلن القرآن آباء الليل وأطراف النهار ، حتى لقد كان يسمع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهكذا على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون للدواع عن الدولة تهجمهم وأرواحهم ، فلقوه عنهم ولنشئ لهم الرضا والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط مدحش ، أسأته على حدود بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وأسأت عمده حصاً عجيباً ، يقول يا قوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم هاهم أولاء حجاج بيت الله الحرام يلقون أعظم المشاق في اجتيازهم بلاد العرب ، فتشئ على حافتي هذا الطريق الآبار المطوية والبرك العظيمة التي تحترن فيها المياه لتستقي منها الحجاج . وقد جعلت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات عاريات من الماء والعشب ، وعابت ما يبقاه الحجاج من العطش في الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لتباع في موسم الحج بدبقار ذهباً ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن يسر وصول الماء من الحل إلى الحرم ، وعلت أن بأرض الحل عينا تنبع من جبل شامق يقال له طاد يسعد عن مكة نحو ثلاثين ميلاً . فأمرت السيدة المهندسين بنقش الخمال وإسفال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأمنت على عمل هذه العين ما يريد على ستمائة ألف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسي عظيم هائل كما يصفه المؤرخون . ومن طريق ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المباشرون والمال لديها ، وأحرقوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ، وكانت في قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في النهر وقات تركها الحساب بيوم الحساب . فمن بقي عنده شيء من المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندها أعطيه ، وأستهم الخلع والتشريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هي عين زبيدة التي لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتي تستقي منها جموع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حبسها وسما وحملها وعدها الديبوى . أما مبرتها المطلى مياقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان*

رحلا امام في آخريات القرن الثامن والقرن التاسع . كيف حدثت لعارة
بينهما . اختلاف المؤرخين في علاقتهما الرشيد وشارلمان — الاعتناء
الفرعي الإسلامي لهذه العلاقات .

ليس من شك في أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رحلا العالم في آخريات
القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . فالرشيد يمثل الشرق بمدنيته المزدهرة أيامئذ
وعظمتها التي بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شارلمان كما درج لمؤرخون على تسميته ،
يمثل الغرب الآخذ إزاء ذلك في الاستفراار على أثر زواج القنصل الجرمانية من محلاتها في
أوروبا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية العربية ، والآخذ بتلك الأسباب التي جعلت منه
في النهاية باعث دول أوروبا الوسطى والغربية الحديثة بأوصافها السياسية والاجتماعية
والثقافية للعروقة .

وليس من شك في أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير . فقد
كانت بغداد منتجع السياح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يحلو الأمر
من أن يمر على لسان هؤلاء الوافدين في أسواقها وأدينتها وبلاطها ذكر العاهل العربي
الكبير . وكانت مدينة آخن هي كذلك مقصد السياح والتجار واللاحثين السياسيين
الواردين من الشرق ومن قسطنطينية ورومية والأندلس فكان لا يحلو الأمر من أن
يتحدث هؤلاء وهم عاصمة الدولة الفرنجية عن الحروب الماشية بين بيرطة وعباسيين وعن
أخبار الأمويين المنفيين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر المور الذي أحرزه الرشيد على
الحيوش البيرنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مهمة عامة ،

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماح أم هل سداد إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما ينتظر أن تكون الحال بين رحلين توزع بينهما أسرار المشرق وأحزاب لعهدهما ؟

أما لمصدر العربية فتسكت عن ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرس مكوتا مطلقاً ، في حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبدى القول في ذلك وتعيده ، فتاريخ المملكة الفرنجية *Annales Regni Francorum* وسيرة الإمبراطور شارل *Vita Caroli Magni Imperatoris* والمظومة المعروفة بمويقتاكو *Poeta Saxo* كلها تروي مباً ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شارلمان والرشيد ، وكان شارلمان هو البديء في كل منها بالاستعصار ، ولم يرد الرشيد على أن كان يرد على السفارة سفارة وعلى الهدية هدية مثلها .



وكانت السفارات طويلة الأمد لعدم ما بين المشرق والمغرب وصعوبة الانتقال بينهما في ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شارلمان بعث في أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفاً من سفيرين فرنجهين يقابل لأحدهما سجعيمد والآخري لشعبد وبمعا ترجمان يهودي يحيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شارلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتبس أموراً يعطب على اطلأ أنها ثلاثة :

(١) أن يعهد الرشيد إلى شارلمان بالقيام على المصانع العباسية فيما يضرب عليه شارلمان من أرض الأندلس ، وأن يشد شارلمان أزر الحرب القائم بالدعوة العباسية في تلك البلاد التي اقتطعها بنو أمية عن ملك بني الصباس .

(٢) أن يعتقد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطبق يد شارلمان في ملك بني أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد في ملك الدولة البيزنطية بالمشرق .

(٣) أن يسهل الرشيد روار بيت المقدس وحجاجة من العرعة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحججه ، وأن يعفيهم من القيود والتكاييف التي وضعها الرشيد

إذ ذاك على أهل الدمة ، وأن يحصى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة المذكور : إن الود عاد من بغداد يحمل موقفة الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سعيد ولسنفر قد توفي أثناء العودة ، فعاد اليهودى وحده على أن الرشيد لم يكتف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة سفارة مثبته ، فوفد إلى شرلمان سبعين أحدهما إبراهيم بن الأعلب الذى صار إليه أمر إريقية ، وبعث معها إلى شرلمان هدية بليق مقام الهدى والمهدى إليه . فيها عطور ونحف شرقية قيمة وفيها ساعة مائتة دقيقة وقيل عظيم الخلق يكى نأى العباس . وتقول المصادر الفرنجية إن بطرك بيت المقدس أوفدى مع الوقت إلى شرلمان راهبا يحمل إليه علما ومفتاح القبر المقدس ومعانيخ مدينة أورشليم معها ، واعتبرت المصادر ذلك تمهلا نقل للسلطة على بيت المقدس وحمايته إلى الساحل الفرنجى .

أما السفارة الثانية فاستدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦ هـ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد رت ، ولا يعلم بالدقة الغرض من إبعاد هذا الوفد ، ولكننا نعلم أن راد رت سلك كور نوى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بيع هذه العجصة عام ٨٠٦ ، وأن الرشيد قال هذه السفارة سفارة مثبته بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجهه معه إلى شرلمان بحملة قيمة من المنصب وبحيصة فاحرة الصنع . ويقال إن الحملة المذكورة هى التى أدرج فيها سعد حنان لقديس كوثبرت اندعوى كاثدرائية درهام ، وأنها لا تزال مرحومة ، وأنها قد طررت عليها صور ستمك شرقية كاطرزت على حاشتها بالخط الكوفى الجليل عبارة « لا إله إلا الله »

وتذكر مصادر الفرنجية سفارة ثالثة بعث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧ ، ولكن الرشيد لم يعش حتى يرد عليها سفرة من فله فقد توفى بعد ذلك بعامين ، فتولى الرد عليها اسمه المؤمن عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٣

ولقد أحصى المؤرخ الروسى « تولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والهدايا التى وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإداهى تشتمل على الأشياء الآتية : نوق من العاج محفوظ

في مدينة آخن ، وسيف محفوظ بحدثة ويانة ، وصنية من الذهب بحلقة يقطع الزجاج المحترقة
الألوان وعليها صورة تلمسرو الأول مصنوعة من اللور . وهذه الصينية محفوظة في دير
سنت دنس ، وقطع من قطع شطرنج شرق محفوظة في الدير المذكور ، وأبريق من الذهب
محفوظ في دير كنتون فليس ، وثمان شوكات من الناج الشوكي الذي قال إنهم السوء
رأس السيد المسيح عند صلبه .

هذه خلاصة ما نرويه بمصادر الفرعية عن العلاقات السياسية والودية بين الرشيد
وشرلمان . وقد اختلف المؤرخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى
وقتها هذا في شأن هذه الرواية اختلافا شديداً ، فمن مصدق لها ومكذب . هيوكميل وبارتولد
أميل إلى تكذيبها إلا في القليل مما أنته . ورينو ورييه ونكر يصدقونها ، وحتلموا
في تأويلها . ولكل من الفريقين حجج يدل بها في الدفاع عن رأيه . وأهم ما يحتاج به
الفريق الأول سكوت المصادر العربية المطلق عن ذكر أي شيء يتصل بهذه العلاقات .
ويذهب هذا الفريق إلى أن الهدايا التي يقال إن الرشيد بعث بها إلى شرلمان إنما اقتطعها
اليهودي إسحق ، وإن من المستحيل أن يرسل الرشيد عن شيء من حقوقه السياسية
لشرلمان . وأهم ما يحتاج به الفريق الثاني استبعاد الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية
العامة في ختام القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع . وبلاحظ مصمم في هذه العلاقة
الهداية الخارجية علاقة قربى بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التي تمت وتطورت حتى انتهت
بالانتداب الفرنسي على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وبن على وجه العموم يرى رأى الفريق الثاني الذي يستند بالرواية الفرعية ، وبراها
تؤرخ علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين العباسية والفرجية ولا عبرة بسكوت المصادر
العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية إجمالا
تاما . وليس يصح في مقام التبدليل التاريخي أن يرفض دليل إيجابي ممكن ومقبول عقلا من
أجل دليل سلبي أو طلي . ثم إن سياق الحوادث العامة في أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية
الفرجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية في مظهر التخصيص . فالمستعرض لحوادث الشرق

والقرب لذلك العهد والمتبع لسلالة دولها منها بعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين العباسية والأموية الأندلسية كانتا أمداً في مكانة وحصان مكنم ، ولكن تدل عليه أدلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين الصراعتين الكبيرتين البيزنطية والفرنجية ، كانتا تقام معهما من نفس الموقف الذي كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان معهما من بعض . وكانت البابوية مسخرة إلى جانب لدولة الفرنجية ، وذلك بسبب اختلاف المذهب بين كنيسة القسطنطينية ورومية ، وسبب الثورة التي سنها أباطرة بيزنطة على عبادة الصور ، وسخط الباطرات على هذه التوبة . ثم إن الحروب التي كانت تقع بين الدولتين العباسية والبيزنطية في الشرق كان يقع ما يشبهها وبشاكلها في الغرب بين الدولتين الأموية والفرنجية . فطبيعي وإحالة هذه أن يتم نوع من التماثل على أقل تقدير بين أموي الأندلس وأباطرة بيزنطة ، وهو ما نوضح بمحصوله المصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب « مع الطيب » للقرطبي . وطبيعي كذلك أن يبحث هذا التماثل مثله على أقل تقدير بين ملوك الدولة الفرنجية وحكام الدولة العباسية ، وهو ما نوضح به المصادر الفرنجية التي سبق ذكرها . فقد ظهر إذن أن سكوت المصادر العربية عن أسس العلاقة بين شارلمان والرشيدي لا يهمل دليلاً على انتهاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التي وقعت في الشرق والغرب في حتام القرن الثامن وبداية التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية . فقد حمل شارلمان من حيث هو « حليف » للرشيدي على شمال شرق الأندلس ، وأثنى الشعر الأساني على الحد الجنوبي العربي لغربا ، واستبق عليه عماله من المسلمين ، واستولى على رشونة عام ٨٠٢ ، وأثنى علاقات سياسية يسه وبين عماله الثغور الأسبانية مثل مرقسطة وغيرها . كل ذلك في نفس الوقت الذي شذبه الرشيدي الوطأة على ملك الدولة البيزنطية برأ ومحرراً ، وحمل قعور على طلب الصليح والرصاصاء الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

بقى أن نوضح لقارئنا الاعتبار الشرعى أو « التكليف القانونى » للعلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برصيه ، فقام منصوص الرواية الفرغية أن الرشيد قد رل لشرمان عن حقوقه على الأندلس وبيت المقدس ، غير أن الكاتب الإبحلىرى بككر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته ، فقد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ماسواها من الولايات متفرع عنها وتابع لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يرد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قبله . ولا يعترض على ذلك سمرانية شرلمان ، فقد حوز الفقهاء (كالماوردى فى الأحكام السلطانية) للحمية إقراره أمانة المصوب والاستيلاء ولو كان الماصب غير مسلم نزولاً على حكم الضرورة و شرط أن يرعى الماصب مصلحة من فى إمرته من المسلمين . وأمانة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل إمانة المصوب والاستيلاء المذكورة . أما مآلة بيت المقدس فالباحث الحير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشؤون الدينية لهذا البلد بدلا من ولاية الأمر البيزنطيين ، وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، فقد جروا على أن يسندوا إدارة شؤون أهل القمة الدينية إلى رجال من أهل الدمة أنفسهم . وإذن فلم يكن ثم نقل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرعية على ذلك البلد تقلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وصع معه فى الحالىن موضع تابع من أتباع الرشيد وعامل من عماله . وربما كانت الخطة الفاهرة التى بعث بها الرشيد إليه هى الرمز المادى لتلك السيادة وذلك المصوغ .



فإذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استمرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد توج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية — على أن يستمد منه العون المادى — وأن الإمبراطور قففور البيزنطى قد رصى فى عام ٨٠٤ عمل الجزيرة

إلى الرشيد ، استبان لما أن الرشيد لم يعد في عام ٨٠٤ (١٨٨٨ هـ) خليفة المسلمين لحسب ، بل لقد أصبح من الوحية النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسيحي ، وتلك لعمر الحق مرة لم يلبها مملك قنه ولا سده على الإطلاق .

وقد يكون طريفاً أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد عمت وازدهرت وأنعمت في أواخر القرب الثامن الميلادي ، وهي بذلك تنصن رداً ببيعاً صادراً من أعماق الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يبقيا . لقد التقيا وتصالحا منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يعجب له أجمع ساسة القرون العشرين .

الرشيد وأبو نواس*

شخصيتان معروفتان مأخوذتان عند الحاضر والعام ، وممدودتان من وحيه كثيرة أنجب شخصيات العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري : الأولى شخصية شاعر عربي أعنى الأصل تناهت فيه فلسفة الأعاجم الإباحية القائمة على الاستهزاء بالمواضعات والمقائد ، وعلى الاستمتاع باللذة ، مشروعا وغير مشروعا ، مقبولا ومردوبا ، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة النائرة المبيحة في شعر سهل يبيع لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . هذا بحق إمام شعراء مذهب اللذة في العربية وحامل لوائهم على الإطلاق أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربي تناهت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والحيلولة والعصية ، والعقيدة الجمدة ، مع ما يمتاز به العربي المتروك عادة من رقي الذوق ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبي نواس قد عادت عليه تحرق الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأي وجود العقيدة والنهال على كل ما يمسك عليه سيطرته خيراً كان أو شراً . من أجل ذلك سنجيز أن نستدير تعبيراً عربياً شاع في أوربا في أواخر القرن الماضي Fin desiecle وأعطاء الكاسب الأندلسي الأشهر ما كس بوردوطاساً عربياً خامساً^(١) فسمى أبو نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأنهما شامت الأقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري

جمعت بين هاتين الشخصيتين المحييتين جوامع الزمان والمكان والفن ، ولكن ما عادت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما . فتزدادت الصلة بينهما بين السب والإيحاء ، والوحود والعدم ، وهذا هو المؤلف مع فلسفة الرحلين والمتفق مع الثابت المستيقن من

(*) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) في كتابه « الاضمحلال » Degeneration : باب الأول ومؤلفه التحليل من قبود العرف والأخلاق .

أخبارها . بيد أن أخباراً بحرفة مسعولة تؤكد توثق الصلة بينهما إلى المدى الذي يكون عادة بين الأوداء والخلطاء ، غير متالية ما بين الرحلين من تفاوت في فلسفة الحياة واختلاف في المزاج . كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أمدتها حيل القصاص في شتى العصور الإسلامية قد دهمت في تصوير الصلة بين أي نواس والرشد كل مذهب مطرحة كل اعتبار ، اللهم إلا اعتبار الرغبة في تمكئة القارىء وإمتاعه . والآل فلنعرض لكل ذلك بشيء من التفصيل .

ولد أبو نواس بالأهوار حوالى عام ١٤٠ وشأ وتعلم بالبصرة ثم ارتحل إلى البادية في طلب اللغة وفصاحة اللسان . ثم انتقل إلى الكوفة للأخذ عن علمائها فلما اكتملت مواهبه ونصح شعره ارتحل إلى بغداد بلاد العلم والأدب والسياسة العليا في ذلك الزمان كما كانت بلاد الحياة لمحنة الطبيعة التي يؤثرها من كان مثل أي نواس . فأنحدها الشاعر مهاجراً ولزمها حتى آخر حياته إذا استتبها رحلته القصيرة إلى مصر . والطاهر أن هجرته إلى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩^(١) على أكثر تقدير ، أى في الوقت الذي كان البرمكة فيه قاضين على رمام الأسرى في الدولة الإسلامية ، فكان طبعاً أن يتوجه إليهم أبو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية . وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أربع الليل إن الخشوع لناد عبيك ، وبني لم أسلك وددى

قالوا ولما سمعها الفصل بن يحيى نظيرتها نظيراً شديداً . ولم يحص أسبوع على سمعها لها حتى مكب ومكب معه قومه . ونحن نعرف أن مكئة البرمكة كانت عام ١٨٧ ، وإذاً يمكن القول أن أبو نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يحص البرمكة من بين رجال الدولة شهيداً ، وأنه لم يتوجه إلى الرشيد مدحة في تلك السموات الثمن . والحق أننا لا نجد في ديوانه شعراً قاله في الرشيد . ويمكن رد ذلك إلى تلك الفترة ، ولا عبرة تلك الأبيات التي قالها أبو نواس في عام ١٧٩ بحث الرشيد على استحجاب الفصل بن الربيع^(٢) :

قولاً لمأروب إمام الهدى عند احتفال الخمس الخاشد

(١) وذلك مستفاد من قوله مخاطب جعفر بن الربيع :

ولا تصعدوا بي ود عشري حجة ولا تصعدوا ما كان معكم من فصل

(٢) ذكر السمرى أن الرشيد عمره في عام ١٧٩ عند بن خالد برمك عن حجة وولاهها الفصل بن الربيع

أنت على ما بك من قدرة طست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بحسبك أن يجمع العالم في واحد
فهي في الواقع مدح في الفصل من الربيع ، وقد أوردها جامع ديوان أبي نواس على
أنها كذلك .

فما دالت دولة البرامكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأسر دار أبو نواس
مع الملك الدوا وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة منه ، وكان ذلك بدء
اتصاله الأدبي بالرشيد . ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة :

إن حلفت عليك جهد ألية قيا بكل مقصر ومحل
لقد اتقمت الله حتى تقاته وسدت نكسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لظنالك النطفة التي لم تخلق
وصناعة الشمسراء إن أخفتها نقت وإن أكفتها لم تنفق

وقوله من قصيدة أخرى :

نظرك من ساس الأمور بطه وفصل هارونا على الخلفاء
تميش بحر ما انطويما على الحق وما ساس دميانا أبو الأمس
إمام يخاف الله حتى كأعما يؤمل وولاه صمصام حساء

وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون ألقنا إحصلاف مودة ماتت لها الأخفاد والأصنام
في كل عام غـزوة ووفادة نقت بين بواها الأقران
حج وغزو مات بينهما العكرى بالوصلات شعارها الوخذان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما طهر الرشيد بمظهر
البأس والخبروت ، وعند ما عدا محوطا مرهونا لا يؤمن بواقعه ، وعند ما حد في جهد
الروم وأدل على علمهم ، وعند ما أصبحت صناعة الشعراء رهن مشيئته ، إن شاء نقت وإن شاء
كسدت . والرشيد إنما طهر بكل ذلك مقب إيقاعه بالبرامكة . بل إن المصادر التاريخية
نفسا تبين على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة . فالراجع أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نواس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على متغور اليزنطى انتصاره المشهور^(١)
أما القصيدة الثانية فثبت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية لهند
لابنه القاسم واقعه بالمؤمن^(٢)، وأما القصيدة الثالثة فقاما عام ١٩٠ عند ما أخذ الرشيد
قلسوة مكتوباً عليها « عار حاج »^(٣).

على أن هذه المدائح وغيرها من شعر أبي نواس في الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل
الشعر الرسمي الذي يقال في الظروف وللمناسبات الخاصة . وليس فيها ولا في عامة شعر
أبي نواس ما يفيد أن أما نواس تجاوز في علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء
اللاط فصلاً عن أن يكون من حلساء الرشيد وبدمائه . بل ليس في شعر أبي نواس ولا في
الثبت من أخباره ما يفيد أنه كان يشد الرشيد شعره إشادة على نحو ما كان يفعل بعض
معاصريه أمثال أبي المتاهية وسروان بن أبي حمصة مثلاً^(٤) . لقد كان ثم أمور تحول بين
أبي نواس وبين هذه العاية . لقد كان أبو نواس فيج السيرة ، ماجناً ، مكبراً متمهاً في نفسه
مقياً بحافات الكرخ ومواحيه يشرب الخمر ويعت بالسلطان ، وكان يصرح بكل ذلك في
شعره وخاصة بحرياته حتى شاع أسره في سداد . ثم إنه قد خاض في أسر العصبة العربية
وتقلب فيها تقلباً مفكراً ، فادعى أول الأمر نسب الرارية وهما المين ثم عاد فادعى نسب
المين وهما الزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عمت وغيرها ضربان من قطرها وحاصها

ثم صار شعوبياً و يرى من العرب قاطبة وهام وادعى الأنحمية^(٥) وسب نالت فقد
به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته ورياقته وبخسوته في شعره بآراء الثنوية . فهذه
الأمور كلها لم تكن لتحصل الرشيد يقبل على أبي نواس ويأذن له في عشيان حصرتة وإشادته ،
وهو سد الحريص على مظهره الإسلامى ، للترمت في أسر العرس والشرف ، التمحور بسبه
المربى الزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة المسلمين وحارس الدين
والآداب ، لم يتردد في المرب على يد أبي نواس ، وفي أن يعسه من حين لآخر ببعض

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ . (٢) ج ١٠ ص ٩٦ . (٣) الطبرى ج ١ ص ٩٩

(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٥) أخبار أبي نواس الورقة ٨٥ من النسخة المخططة المحفوظة بدار المكتبة المصرية .

المقاب ؛ فقد روي أنه حبسه في شرب الخمر^(١) وأنه حسه طويلا بسبب قصيدته التي هاجبها
الترارية ، وأنه حسه كذلك من أجل جهره بالزبدقة وعفاند الثوبة ، وكان حساده وأعداؤه
من حساء الرشيد يقومون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . روي^(٢) أن
الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضره في المطوعين من شعراء المحدثين ، إلى أن اتصل
الذكر بالحسن بن هاني فمزمز عليه سليمان بن جهمر ، فقال : يا أمير المؤمنين اكافر بالله .
لا يرعوى عن مكر ولا يأنف من فاحشة . وقد عني إلى أمير المؤمنين حيرة . فقال :
يا أبا عمر ! هل تروي عنه من ذلك شيئا ؟ قال : سمى قوله يا أمير المؤمنين .

يا ناظرًا في الدين ما الأمر لا قدر صبح ولا جبر
ما صبح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبور
ثم أشده قوله أيضا :

باح لساني بمضمر السر وذلك أني أقول بالدهر
وليس به سدد المات مرتمع وإنما الموت بيضة المقر

فاستشاط الرشيد غضبا . وقال : على بأن العاقلة . يا فصل ! لا بهوتك الرديق !
وعني إلى أبي نواس الخمر فباح في الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . فقال رحل من جلساء
الرشيد . إن أذن أمير المؤمنين أشدته من قول هذا النسق ما هو أشجع مما سمع قال :
هات ! قال : قوله في غلام نصراني :

نمر فاستحييك أن أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلم
ويهتر في ثوبيك كل عشية قصيب من الريحان شب منما
محسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفوني فيك قد خرفت دما
أليس عطيا عند كل موحد غزال مسيحي بعدد سلا
فلولا دخول النار بعد مصيره عذبت مكان الله عيسى بن مريم

(١) أخبار أبي نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول للطبوع .

(٢) أخبار أبي نواس الورقة ١٠١ من نسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية

فازداد حنق الرشيد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! وأنتع من ذلك ، قال : هات !
فأنتدده قوله في ضلام سمراني :

وملحة بالمدل ذات نصيحة ترحو إبانة دى محون مارق
مكرت تبصرى الرشاد ودهقى غير الرشاد ومذهبي وخلاتقى
فأجبتها كفى ملامك إبنى محار دين أمة وجشائقى
والله لولا أننى مخوف أن أبطل

وقطع الإشاد ، فقال له الرشيد - بماذا ، ولك ! فاستعده ، فقال : وبلك !
بماذا ! فقال :

..... . ياإمام جهور فاسق
قال فصيح المجلس بأهله . وأكر الرشيد نفسه . ثم قال : امص ! فقال :
لنسته في دينة ودخلته بصيرة متى وحول الواقع
إبنى لأعلم أن ربي لم يكن ليحصبهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل بن يربد بن المنصور : إن لم يست هذا الكلب في المطبق لنفكرن
قولاً ومعللاً . فوجه الفصل (في طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع المطبق ثم أعاده الفضل بن
الربيع إلى أن أطلق ، فقال في ذلك :

الله ورج لى رأى ال مصل من خلق السكول
وأعالي عمت العشا ر وقد أيسر من القيل

والظاهر أن أما بواس قال في ورطته هذه يستعطف الرشيد قصيدته التي يقول فيها :

بمعوك لا محودك عدت لا بل مصصت يا أمير المؤمنين
فلا تمعدون على عمو وسمت به جميع العالمينا

على أن الرشيد لم يكن بالرجل الذي يحفى عليه مكان أى بواس من الأدب والشعر
خاصة . لقد كان الرشيد همه دائماً بالشرع علماً بمراتب الشراء شديد العطاف عليهم
والرعاية لهم . وكان في قرارة نفسه عظيم الإعجاب بن أى بواس مؤمناً بأنه أمام شعراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح^(١) قال لي الرشيد : يا إسماعيل ! ابني وصيفة مليحة
قطعة شكلة حاوة متكلمة طريفة عالمة نسقيي ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . قال : فقلت
يا سيدي ! على الجهد . فقال : اجمل قول هذا العيار أمامك — يريد أبا نواس — وامثل
فيها ما حدثي مثلها . فقلت يا سيدي ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ماهيك ساقية	في حسن قد وفي طرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذى ممابة	بالكشع محترف بالكشع مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها	وأصمت في تمام الجسم والمصـب
وجئت بحنى القحط فأعجبت	وجرت الوعد بين الصدق والكذب
نمت هم ير لسان لها شهـاً	فيسر الله من عجم ومن عرب
تلك التي لو حلت من عين قيمها	لم أقص منها ولا من حمها أرى

من أجل هذا التقدير القوي المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبي نواس المبلغ الذي
يقتضيه نص الشرع . فكان يحاريه على محو به ، واستهتاره ، ومحامراته بالمعاصي في شعره ،
بمجرد الحسن . ومع ذلك كل ذلك كلف إليه أبو نواس من السجس يستعطفه ، أو شفع عنده
شفيماً ذا خطر ، أقال عثرته وقبل شعاعته فيه وأسر بتحصية سليله . بل لقد بلغ الأمر بالرشيد
أن أزعج عندما أرجف أهل بغداد بأن أبو نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية^(٢) : سمع
أبو نواس عما وعن إخوانه غيبة طويـة ، فلم يعلم له حبراً وحملوا سداً عن أمره فلم يعلم له
أنراً حتى مصت له سدة فطخوا أنه قتل ، وبلغ ذلك الرشيد فقال : والله إن صح أنه قتل
لأفتن فأنه ولو كان محمداً (يريد اسمه الأميين) انطردوا كل من حماه من الناس فاكثبوا
اسمه وارفعوه إلى ؟ فأرحت بذلك بغداد فلما كان على رأس الخول إذا نحن به قد واني .
فمداه له : يا أبا علي ! قد عنت هذه العيبة عما فتممت وطما بك الظنون . قال : كمت في
بيتى قضا : ألم تسمع بمما لك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ،
و قالو . إن في هذا سر يصـاً لمك للأقاب ، فأنشأ يقول .

(١) أخبار أبي نواس الورقة ٦٩ من المصحح المحفوظة بدار الكتب المصرية .

(٢) أخبار أبي نواس الورقة ٩٨ من المصحح المحفوظة بدار الكتب المصرية .

إلى لى شغل عن العالمين الروح والريحان والياسمين
إلى آخر القصيدة :

وحلة القول أن أما نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره تنطمة في تلك
الشعرية الساطعة المتألثة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم ألا سبيل له
إلى الانصال تلك الشخصية فوق هذا القدر فكان يمدح الرشيد ويستطعمه وسكن
« من سيد » . أما الرشيد فكان يقدر من أبي نواس ويمحب به أشد الإحباب ، ولكنه
للأسباب التي سبق ذكرها كان لا يستطيع أو لا يريد الذهاب إلى أحد من حد التقدير
والإحباب ، فكان يسمع شعره ويقلده^(١) ويمحب به ، وسكن « من بعيد » كذلك .
تلك حقيقة الصلة بين أبي نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

على أن هناك طائفة من الأحرار زعم أن أما نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان
يدخل عليه ويحاسبه ويناديه وأنه كان ملازماً لقصره وأن له وقائع وحوادث مع حرم الرشيد
وحواريه . وعدى أن سمع هذه الأخبار يصح إذا وصفا مكان « الرشيد » لفظ « الأمين »
فلا شك أن أما نواس كان ملازماً لقصر الأمين يخدمه ويحاسبه ويشار به ، إلى حد أن
استغل المأمون تلك الصلة في التشجيع على الأمين بحراس^(٢) عندما استحكمت النفرة بين
الأحرار . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبي نواس في ترك الخمر وإلى
حبسه عند ما كان يعصى أمره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك في شعره وقد يكون بعض
هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وصفا مكان اسم أبي نواس اسم « ابن أبي مريم المذني »^(٣)
وكان رجلاً مصححاً كما فكها منقطعاً إلى الرشيد في أواخر حياته يسليه ويفرج همومه فشكاته
وطريف أحاديثه .

(١) ديوان أبي نواس . حاشي من ٧٣ (طبع لطبعة العمومية) .

(٢) أحرار أبي نواس : الورقة ٧٢ (من نسخة المطبعة) .

(٣) الطبري ج ١٠ من ١٦٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والمواد تدور حول العلاقة بين أبي نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال في تصور الإسلامية الختمة . هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما في كتب الأدب والتاريخ المعتمدة كالأعاني ولقد الفريد ، ولكنها جعلت بها كتب القصص وخاصة كتابي « ألف ليلة وليلة » و « غلام الناس » وهي تصور أبا نواس في صورة رجل مضحك بمكة الحبيبة « شعره الطيبة المرتحلة ويضحكه سواده المستلعة . ولو أحاد . سمع هذه الحكايات السبك لسوها إلى ابن أبي مرزيم المدي المذكور ، ولكنهم سموها خطأ إلى أبي نواس . قل ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أحبا . أبي نواس »^(١) : « قل بعض مترجمين ممن يحبط علماً « حوال أبي نواس » إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موصوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على محمد الأمين » .

ور إذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر في معيه عن أبي نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عبارته فيما دون ذلك صادقة الصديق كله .

مع أبي نواس الزاهد*

شعرت من أيام بصيق في الصلر ، وخرج في المس ، وما أكثر ما يصيق صدر
الإنسان وتخرج نفسه في هذه الأيام التي لا تنفك تعذيب وتراوحنا بأنباء حروب مكراء ،
وعارات شعواء ! فتأملت ديوان الحسن بن هاني* الشهير بأبي نواس ، لعل أحد في دعاياته
ونظراته المارقة المأثرة يهيم الحياة فرحاً بما ذهبي ، ويخرج مما يرل لي .

واقبت أنظري فهرسه لآتمير منه بما أفروء أو أقرأ فيه ، ورأيت يشتمل على أحد عشر
باباً ، في نقضه مع الشعراء ، والمدح ، والمرأى ، والعتاب ، والهجاء ، والزهد ، والطرود ،
والخرجات ، والمجون ، وعزل المؤث ، وعزل المدكر . وما أسرع ما استوقف نظري أن
يكون الزهد من بين أبواب الشعر التي طرقتها أبو نواس ! وقلت في نفسي : يا هنيأ !
أبو نواس المالحن الهجاء ، والسكير العريد ، يكون ناسكاً وراهداً ! هذه ظاهرة نفسية
طريفة ، وباحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالاً من قبل ، ولعل هيرى لم
يلقها بالاً كذلك . فالمتعارف المشهور عن الحسن بن هاني* أنه مستهتر مسرف على نفسه ،
قد صححت من استهتاره حانات الكرخ ، وديارات العراق .



وفتحت باب الزهد وأعدت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أنبت عليه قراءة ، فإذا هو يقع في
صنع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هي نفس الموضوعات التي يقول فيها الزهاد
هادة : من أسف على تصييع ما يجب على العبد نحو خلقه ، وترك الارتجار بالشيب والانحفاظ
بالموت ، والترهيد في الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير باليهث بعد الموت ، والتخويف من
يوم الحساب . ولقد وقع في نفسي أن هذا الباب ربما كان موضوعاً على أبي نواس ، وأن
الشاعر قد نحل كما نحل كثيراً غيره من الشعر فأعدت قراءة الباب في ضوء ما أعلم من

صناعة أبي نواس ، فصرعت فيه للصناعة الدرامية نظاماً ومعنى وروحاً . ثم وصلت ألقى اطلاعاً على المراجع التي عثيت بترجمة أبي نواس وذكر أخباره ، فوجدت فيه واحداً من أئمة النقد المعاصرين لأبي نواس يشنون التناء الجلم على بعض زهدياته . هذا الجاحظ يقول : لا أعرف من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أحسن من قول أبي نواس :

أية نار قدح القاصح وأى حد بلع اللزح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
بأبي الفتي إلا اباع أهوى ومهيج الحق له وصح

وهذا أبو المتاهية أكثر الشعراء قولاً في الزهد يقول قد فتت عشرين ألف بيت في الزهد ، ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قلها أبو نواس وهي :

يا نواسي توقر وتعز وتصير
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الدب عفو الله من عموك أكبر

وهذا الخليفة المأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فمطقت ما وصفت نفسها إلا كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشمت له عن عذو في ثياب صديق

وإذا فرغديات أبي نواس هي زهدياته حقاً . كما الذي حدث يا ترى حتى تحول هذا الآبيقوري الداهب في مذهب اللذة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال راعداً ناسكاً ، وحتى أصبح يصرف القول في أمور الزهد والتقوى ، والموت والبعث ، واشتواب والفتاب ، بعد أن لث دهرأ طويلاً يسحر شاعريته في تحت الكاس والطاس ، والعلان والحواري ، وهجو الناس والتهجم على مواضع الضعف منهم .

الآن أما نواس فقد مل ارتكاب المعاصي ومقارعة الذنوب ، وكل شيء طال فهو لا محالة ملول ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذي يقول :

ولقد سهرت مع العواة مدلوم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ اسروء شجاعه فإذا عصارة كل ذلك أنام

أم أن تقدم السن ونذر الشيب وتهدم الجسم هي سر هذا التحول ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فبسر من شك في أن أبو نواس توقع على قول الشعر في الزهد بعد أن حاوّر الخسین من عمره . ولعمري إن خمسين سنة من عمر أبي نواس لتعدل سبعين أو ثمانين من عمر رجل وادع الحياة هادئها ، ثم هو بعد الذي يقول :

لله در الشيب من وعظ وماصح لو حذر الناسح

أم أن أحداث الزمن وغير الدهر ، وما شهد أبو نواس في آخر يات حياته من مكبة البرصكة ، وموت الرشيد ، ووقوع العداوة بين الأمين والمأمور ، ومقتل الأمين على شر حال ، هي السبب لأقوى في اعتقاده أن الدنيا خداعة غرارة ، لا يأمن مكرها قوى ولا صيف ، ولا ينجو من عذرها غنى ولا فقير ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فهو الذي يقول :

أيارب وحسه في التراب عتيق	ويا رب حسن في التراب رفيق
ويا رب حزم في نتراب ومحنة	ويا رب رأى في التراب وثيق
ألا كل حي هالك وابن هالك	ودو نسب في الهالكين عميق
هل لقريب الدار إليك راحل	إلى مدول ناني المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا ليب تكشف	له عن عدو في ثياب صديق



ومهما يكن من شيء ، هذه الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة ، لا تكفي وحدها في تحليل زهد أبي نواس ونسكه . وأرى أنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من نفسه استعداداً للتأثر بها ، هذا الاستعداد هو صالة الباحث في هذا التحول في حياة شاعرنا الكبير ، وهو الأمر الذي أحب أن أليه عليه وألقت النظر إليه .

لقد كان أبو نواس على الرغم من إسراره واستهتاره مؤمناً في قرارة نفسه ، والمصيبة لا تنافي الإيمان — في سرعة العقل على أقل تقدير .

ولإيمان أبي نواس مصدران اثنان : الاعتقاد القلبي ، والنظر العقلي . أما الاعتقاد القلبي فأبو نواس فتان عبقري من غير راع ، وعباقرة القاصدين لا يتأتى لهم الإبداع والإلهام

إلا بنوع من الإيمان يعرفه في ذلك الإشراف وتلك الوضاعة التي يطالعها فيما ينتجون من شعر ونثر وسم ورسم وغير ذلك من صروب الفن الخليل .

أما المصدر الثاني وهو النظر العقلي ، فذلك أن ، بواس لم يكن عبثاً عبثياً بحسب ، بل كان فوق ذلك عبثاً متمكناً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وفقه وفلسفة ؛ وقد ورد في شعره ذكر الخير والقدر والتعاضد ، والجزء الذي لا يتجزأ ، وطائفة من أخبار القدماء وصدر الإسلام وعلم المسلمين وقد ببع من شأنه في ذلك أن ود بعض العلماء المعاصرين له الأخذ عنه ، لولا ما عرف به من محو والمحرف عن الجدة . ولا يعدم من يقرأ أحساره وحر به وعيوبه أن يجد في مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بياله واحد عفور رحيم ، من ذلك قوله وهو في مقتل عمره وجدة أمره :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالبح رباً عفوورا
صنصر إن وردت عليه عموأ وتنقي سيداً مدسكا كيرا
تعص ندامة كفيك بما تركت محافة الدار السرور

وليسطر القارئ كيف يحتم قصيدة له صمها ما شاء من ذكر معاصره واسمها ، هو يقول في ختامها :

حق إذا الشيب فاحاي بطلته أفصح بطلعة شيب غير مبعوت
فقد بدمت على ما كان من خطل ومن إصاعة مكتوب الموايت
أدعوك سبعاك اللهم فاعف كما عفو بادا الصلا عن صاحب الحوت

ويروى الخطيب في تاريخ بغداد أن أبا بواس خرج في أصحاب له إلى مكان طيب نزه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة ويبصها ، ولما صي التي تحول دوما ، كل ذلك وأبو بواس بهاكت ، ثم قال :

يا باطراً في الدين ! ما لأمر ؟ لا قدر صح ولا حبر
ما صبح عندي من جميع الذي تدكر إلا اللوت والقبر

قال فامتصت الجماعة من قوله ، وأطالت توبيحه . فقل أبو بواس : ويلكم ! إني والله لأعلم ما تقولون ، ولكن الحون يبرط على ، وأرجو أن أتوب ويرحمي الله .

والواقع أن أناس كان دائم الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أمرتوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يعفو الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . كما أنه احتار من بين المذاهب الكلامية التي ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومراحه . لقد كان الحوارج يكفرون صاحب الكبيرة . وكان المعتزلة يرونه بمنزلة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسقاً بارتكاب المعاصي . أما المرجئة فكانوا يقولون إنه لا تصر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤمنون عفو الله لكل مؤمن ناص . ومن ثم احل أبو نواس عقيدة المرجئة ، وعبر عن عقيدته هذه في مواضع من شعره :

قتل لمن يدعى في العلم فلسفة حطمت شدة وغات علك أشية .
لا تحضر المعولان كنت اسراً حرجاً فإن حطرك في الدين إررا .
غير أنى على الإساءة والمسيرط راج الحسن عمو الله

وإذا فالعوامل التي ذكرناها من سامة المعاصي وتقدم السن وتنازع الأحداث وتهدم القوى ، قد وقعت من نفس أبي نواس موقفاً ، وصادت من نفسه استمداذاً . غير أن الفصل في هذا الوقوع وفي توجيه أبي نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه من القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبي نواس صلة صدقة وإحباب معاً ، ذلك هو الفضل بن الربيع ورير الرشيد ثم الأمين ، لقد نه أبو نواس الرشيد على كفاية الفصل من الربيع بمقطوعة من شعره مذكورة في ديوانه ، فعرف له الفصل تلك اليد ، فلما ولي الأمين الخلافة أوصل إليه أبو نواس . فلما وقعت الفرة بين الأمين والمأمون ، وبدد المأمون في خطبه بأصالة التي بين الأمين وأبي نواس ، اشدد ذلك على الأمين ، حتى لقد هم بقتل أبي نواس ، ثم بدا له فأسر به إلى السجن ، وشدد عليه في ترك الخمر ، ثم حبسه من السجن الفصل من الربيع بعد أن استنابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التي أولاه إياد الفصل في شعره أيما إشادة :

أه العباس ما طوى بشكري إذا ما كنت تغفو بالدمع
وإني والذي حاولت مني لمسوح دعت إلى مقبم

وكنت أنا سوى أن لم تلدى رحماً أو أراً من الرحيم
وقال — ولا يحلو قوله من تصوير فكاهي لشخصه في طوره الجديد :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني البك وعودتني والخيبر عاده
فأعوى باطلي وأقصر جهلي وسدلت عمامة ورهاده
لو ترى ذكرت للحسن المصري في حل سمته أو قتاده
المسيح في دراعي ونصحه ف في لبق مكار القلاذه
وإذا شئت أن ترى طرفه بمحب منها مليحة مستهده
فادعني لأعتمد تقويم منلي وتفتن لموصع السجاده
ترأرأ من الصلاة وحى توفن النفس أهما من عاده
لو رأها مع المرائين يوماً لاشترها بمداه للشهاده
ولقد طال ما شفتي ولك أدركتني على يدك السعاده

أما وقد تاب أبو نواس توبة بصوحاً ، وأرعوى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب
أن يتزوج حياته بحبة إلى بيت الله الحرام ، يعمو بها خطايه ، ويمنع بها صحيفه من حياته
نقية بيضاء ، أمل ألا يكتب له فيها إلا كل ما هو خير له . واشتهر فرصة خروج حاميه
وراعيه الفصل من الربيع للحج ، فخرج في صحته وتمدحج أبو نواس في صباه أمام كان
فتى من فتيان مصر ، ولكن شغل بين المحتين لقد حج بالأمس لارعة في مشوبة ،
ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (حنان) أحبها وتيمه حبها ، فلما علم بحبها خرج في
أثرها . وأما هذه المرة فحجته حج نائب سبب إلى الله . والرواة ضحكوا حجته الأولى تلبية
نظمها أبو نواس ولبى بها من سمعها من الحجاج ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ،
وأن تلك التسمية الخاطئة إنما نظمها أبو نواس في صحته الثانية . وهما هي ذى تلك التسمية الجميلة
التي يصح أن تكون شيئاً للحج لمن أراد للحج شيئاً قال أبو نواس :

يا طمعا ! ما أعدك ! مليك كل من ملك
لييك قد لبيت لك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ما حاب عبيد أمك أنت له حيث سيالك
لولاك ، رب هلك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

كل بي ومالك وكل من أهل لك
سبح أو لبي فلك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

والله ما أن حلك والسبحات في الفلك
على محاريبك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

يا حاطة ما أعملك ، لعل ومادر أسلك
واحم محير عمك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ويمود أبو نواس من حجة فلا تطول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذي مات فيه سنة ١٩٨ هـ على أرجح الروايات عهداً . وكانت علته على ما يؤحد من وصفه له أعلم السال :

وب في الفناء سقلاً وعلاً وأراني أموت عصواً فصوا
ليس من ساعة مصت لي إلا تقصتي بمـررها لي حزوا
ذهبت حذني بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله بصوا
لحقت نفسي على يسـال وأيا م تملتين لمـها ولحوا
قد أسأنا كل الإساءة فإلا هم صفحاً عتسوا وعفوا

وما تسمع أعين سداد ما شتداد علته حتى وافوا إلى قاره بمودونه ، وكان من بينهم الإمام الشافعي الذي كان إذ ذاك بمعد . ويروي الخطيب البغدادي أن صديقه لأبي نواس اسمه محمد بن نافع قال : قال أبو نواس لي صديقاً فوقف بيني وبينه حجرة في آخر عمره ، ثم دعاني وفاته فتصاعف على الحزن ؛ فسأله بين الناسم واليقظان ، إذا أنا به ، فقلت :

أما نواس فقال لات حين كية اقلت الحسن بن هاني ! قال نعم اقلت : ما فعل الله بك ؟ قال عمر بن أبيات قسها تحت ثوب نوساء . ذنت أهله ، فدا أحواي أحشوا بالهكاء ، ففت لهم . هل قال أحى شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا علم ، إلا أنه رعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا يدري ما هو . ففت أفتأدبون في فذرح ؟ قال فذحت إلى مرقده فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، ففت وسادة فلم أر شيئاً ، ففت أخرى فإذا رقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عظمت ذنوبي كثرة فلقطت تحت ثوب عموك أعظم
إن كان لا يرحوك ، لا يحسن من الذي يدعو ويرجو المحرم ؟
أدعوك رباً كما أمرت نصرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا ربح ؟
ما لي إليك وسيلة إلا الرحا وحميل عموك ، ثم أنى مسر
ولقد أدركنا نحن في طموشنا لمؤنب يهتمون بهذا التوسل على المآذن والأسفار .
فسلام على نواس معتقنا مبدعاً ، وسلام عليه في السكينة الزاهدين

كتاب الوزراء والكتاب

للجهشياري*

أهدي إلى زميلي وصديقي الأستاذ مصطفى السقا من أنهر مصت ، نسخة من كتاب « بورر والكتاب » لأن عدوس الجهشياري المتوفى عام ١٣٣١ هـ وقد أخرج للناس هو وزميله الأستاذان إبراهيم الأبياري وعد الحفيظ شلي في حقه عربية شنية ، ومطبوعا لأول مرة مطبعة الخروف

ولم تسكن كثرة العمل في العام الدراسي المنصرم من أن أفرغ لقراءة هذا السفر النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخة لأوربية مطبوعة بالبرك ، وكنت عارفا بمسألة قدر الكتاب وعلا قيمته العلمية .

وقد استرحت في هذه الأيام من عناء العمل الرسمي ، وأصبحت حراً أقرأ ما أشاء متى أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتاب التي وردت بي ، والتي اهتمت ، على ترتيب ورودها إلى واقفائي لها ، فمكال كتب وزراء والكتاب أحققها بالتقديم على كل حال .



والكتاب يتناول الكلام على حطى الكتابة ووزارة في الدولة الإسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسي ، وهما من أهم حطط الدولة الإسلامية لذلك العهد . ومع أن مؤلف قد أدار كتابه على هذين النظمين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات ونكت واستطرادات لها قيمة علمية عظيمة عدد من معاني الأدب العربي والتاريخ الإسلامي في صدر الإسلام ، هذا إلى أنها مهلت تناول الكتاب وخدمت عليه رواد الفقه وجاديتهم . ولقد وفق الأساتذة النشرون للكتاب في نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوصعوا له مقدمة تترجم القارى بالمؤلف وأصل الكتاب ، وصطوا المتن جهد استطاعتهم ، وحققوا

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم دبلوا الكتاب بهامش ضافية استوعبت الأعلام الواردة في الكتاب وموضوعاته ، وردته إلى عصره ردأ فيه دقة وفيه استقصاء .

ومن عادي عند ما أقرأ كتاباً علمياً قياً أن أناول فلم الرصاص فأقيد بهامشه ما يعنى لى من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك . وقد حررت على عادتي هذه عند ما شرعت في قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما فرغت منه قراءة وحدثني فحدث بهامشه حمة تقييدات وملحوظات واستدراكات ، منها ما احتفظ به لنفسى وأعتدّه لدراستى ، ومنها ما هو في حقيقة الأمر نقد لمن في بعض مواضعه أو استدراك على تحقيق الأستاذة الواردة به . وقد لا يحلو هذا الصنف من التقييدات من الفائدة عبرى من قراء الكتاب ، فإنا أشره على هذا الاعتبار وحده .

جاء في من الكتب في ص ٩٩ ما مؤداه أن رادان هروح كان كاتب عبدالله بن زياد ، وقد علق الأستاذة على ذلك بقولهم : « لعله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه عبيد الله بن زياد لا عبد الله (الطبرى) المجموعة الثانية ص ٤٤٨ من الطبعة الأوربية) . وجاء في ص ١٦٨ : « وهو إدراك بارد والدار » يريد المؤلف تسمية المكان الذى مات به الخليفة المهدي العباسي . وقد علق الأستاذة على هذا الاسم بقولهم إنه محرف ، وإنهم لم يروا في أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره المسعودي في أول ترجمة المهدي من أنه خرج إلى موضع يسمى « أرور والران » فلهذا محرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ، لا شك في ذلك ، إلا أن الطبرى وياقوت يسميان الموضع الذى مات فيه المهدي « بارد عباسدان » فإن لم يكن الاسم محرفاً عن هذين المصطلحين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد حلص لما من كلام الطبرى وياقوت اسم القرية التى هلك بها هذا الخليفة وهى « الرز » الواقعة بالقرب من ماسبدان وجاء في المس في ص ١٩٣ . « ولوز بالعروصى شعر بهجوبه محمد بن الأشعث » مكلم الدئب « الحراعى وهو :

تهتم عينا بأن الدئب كلهم قد لعري أبوكم كلم الديق

فكيف لو كلم القيث المصور إذاً تركتم الناس ما كولا ومشروبا
هذا السويدي ما يسوى إناوته حكم القيسل تصعباً وتصويبا

ويروي : « هذا السبيدي » قصر به محمد بن الأشعث ثمانية سوط »

وقد علق الأستاذ على هذا الخبر بقولهم سويد تصغير تحقير لسيدنا كسر معنى الذئب .
وقد أوردوا في آخر الكتاب رواية كتاب الورقة هذا شعر وهي تقول (هذا السبيدي)
وعندي أن رواية كتاب الورقة هي الرواية الصحيحة وتؤيده رواية الأعاني « ج ١٨ ص ٣٨ »
كما يؤيده معنى الشعر نفسه ، فإن السبيدي تصغير سبدي والسبدي هو الرجل المنسوب إلى
السند وكانت القبيلة أغلب في ذلك الزمان إلى العراق من السند

على أن في الخبر المذكور آناً أعلماً أخرى مشؤها تحريف السباح من غير شك ،
فقوله « وزير العروصي » خطأ وصوابه « رزين العروصي » وهو شاعر كان معاصراً وصديقاً
لدعبل وكان معروفاً بفراسة أوران شعره . وقد ذكره هذا الصبط صاحب الأعاني في موضعين
من كتابه ، واعتد ضبطة هذا المنتشقون الأعلام الذين عملوا هموس كتاب الأعاني ، كما
ذكره هذا الصبط أيضاً كما يقول الأستاذة الناشرون صاحب كتاب الورقة وإرشاد الأديب .
والصحيح أن يمدل الأستاذة عما جاء في هذه المراجع ويأخذوا بما جاء في الأصل الذي نقلوا
هذه الكتاب ، وما جاء في فهرست ابن النديم وهو كتاب محتو بالتحريف والتصحيح
ومحمد بن الأشعث الوارد في الخبر المذكور صحته « حمر بن محمد بن الأشعث » ، ولو
رجع القارئ إلى سياق المتن لوجده يدور على حمر هذا الذي ولي حراسان للرشيد .

و يوجد من موضع « مكلم الذئب » من الجلة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب
جد لابن الأشعث ، وكان رجلاً من حزاغة على عهد أبي (هـ) ولم في تكليم الذئب
إياه قصة أوردتها صاحب الأعاني (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإدأ قصارة النص يبين أن تكون
هكذا : ولزبن العروصي شعر يهجو به حمر بن محمد بن الأشعث من بني مكلم الذئب
الخزاعي الخ .

وحاء في المتن ص ٢٥٦ : « وكان مكلم الحصيب أبو عبد الحميد بن داود البيلادري
المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأستاذة على ذلك بقولهم :

« البلادى هو أبو بكر ، وقيل أبو حمزة ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلادى صاحب كتاب البلدان لم يكن ولده بعد وفاته أن كان الحصيف بمصر ، أى حول سنة ١٨٧ هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود المذكور في الخبر ، إنما هو حده كما يؤخذ من نسب البلادى الوارد في ترجمة البلادى مسبوقة لمقرئى وواردة في مقدمة كتاب فتوح البلدان قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود السعدي الكاتب ، ويعرف بالبلادى » ، وإذا فعبارة هذا الخبر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب الحصيف أبو عبد الحميد بن داود (حد) البلادى مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف في ص ٢٢٩ - « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم في هدم بيوت كسرى » والطاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمعروف بالتوارى أن قصة الشروع في هدم إيوان كسرى إنما تصاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى (الطبرى المجموعة الثالثة ص ٣٢٠ ، والفجرى ص ٢١٢)

• • •

وعلى الأساندة على قول المؤلف في ص ٢٧ « ، أمير المؤمنين ، إنك لو شئت الوليد بقسم الأموال بين الناس ما رصوا عنه ، فكيف تبغى جانياً ولكن ولله العاون والصوائف يكن ذلك له شرفاً ودكراً » . فقالوا . « لعلوا الحنات والمظالم ، ولعله يريد بالمعاون والصوائف ولاية القصد والعز » . وتفسير « المعاون » بهذا المعنى إنما يصدق في العصور الإسلامية المتأخرة . أما في صدر الإسلام فالمعاون كانت عبارة عن الأموال التي كان يسطاها أصحاب المطاع الرسمي فوق عطايتهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب « ألا وإن قريباً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادته ، ألا فأما وإن الخطاب حتى » . (الطبرى ، المجموعة الأولى ص ٣٠٢٦) .

ومنه قول القائل :

نحن صربنا الأزدي بالعراق والحي من ربيعة المراق

وان من مهيل قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق

(الكامل للمبرد ص ٧٦ طبع أوروبا) .

ولا شك أن إعطاء المساء على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرقاً ودكراً كما يقول المصنف وانظر أيضاً في هذا الصدد : كتاب فتوح لبيد بن ربيعة ١٨٧ من الطبعة الأوربية .

وجاء في ص ٥٢ : « فلما تولى سليمان كتب عمر وهو على قبره سرور أسامة بن زيد ويزن بن زيد بن أبي مسلم » وقال الناشر استندرا كما على هذا - « وظهر أنه يريد بن زيد بن المهلب » . وواقع أن المؤلف يريد ما تقول والصواب في حابه ، ولكن الأستاذة أخذوا برواية امرئ بن عبد ربه في كتاب المقدس ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك حبس بن زيد بن أبي مسلم ، بقي في حبه مدة خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد من أئمة مؤرخي المشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن حنبل الذي حصن ابن أبي مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن حنبل ما معناه إن سليمان بن زيد بن زيد في جامعة حارورة فوجدته قوي المأنة ، وكشف عن دمه فلم يتساق عليه شيء ، فاستحال سطحه عليه إلى شيء عجيب به ، حتى تقدم بالتحاقه كأنه لولا أن ثبطه عن ذلك بعض حاضري مجلسه ثم إن بن زيد بن أبي مسلم عرى عنه بعد العزل بالاشتراك في العزو ، فما ولي عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر رده من العزو ، وهو ما يفعله الخشيارى في ص ٥٥ . فالأحد رواية صاحب المقدس أنهم أن المؤلف قد ناقض في أحبار وهو غير صحيح .

و ٥٠ في ص ٨١ من مخطوطة نسخة الخليل السكاك هذان البيتان :

فلست تغتر من غيري لما في الصمير ومن هامل

نقص غفلات سكر الصبي ورد اسقى عن ساطل

فصيط شرح تغتر يا تغتر تشبه من هو ، وعدى أن الصواب والأبلغ أن تقرأ تغتر (بعد الموحدة ، من فتر السحب إذا مطر ووقع مؤه وصبطوا عن بصر أوله وتنبه على أنه جمع عن ، وأرى الأفضل أن تقرأ (عن) بفتح أوله وتنبه ، بمعنى اعتراض ، ولا سيما أن سيبويه ينكر أن يكسر عنان على غير أعنة ، (اللسان مادة : عن) .

وأورد المؤلف في ص ١٣٥ مقطوعة من الشعر لعبد بنى الحسحاس مصمومة الروى ،
وأولها :

أمن سمية دمعُ عينى مسروب لو أن ذا مك قبل اليوم معروف
ومنها هذا البيت :

لا تنك عيمك إن الدهر دو غير فيه تفرق دى إلف ومانوف
وقد ضبط الأستاذ قوله (مانوف) بالكسر وفاروا إن في البيت إقواء ، ثم قالوا :
والظاهر أنه دحيل على هذا لأبيات لأنه غير وارد في القصيدة منسوبة إلى عترة (في
ديوانه وفي كتاب الأغانى) أما أن يحتاج على كتاب الموشىارى كتاب الأغانى والديوان
المنسوب إلى عترة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الموشىارى أقدم وأوثق من كتاب الأغانى
فضلا عن الديوان المنسوب إلى عترة ، وهو يورد لنا المقطوعة المذكورة في صورة من أقدم
صورها ، ويعروها إلى قائلها الحقيقي ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغانى وجامع
الديوان المنسوب إلى عترة . وأما أن في البيت إقواء فهو ما لا أراه . بل إن ضم (مانوف)
هو المتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر في صدر البيت (إن الدهر دو غير) ، فيكون
معنى الكلام إن الدهر دو أحوال . طورا يبرق الألف ، وطورا يجمعهم . ويكون
(مانوف) معطوفا على قوله (تفرق) ويكون معنى الإلف مثل محبوبة ومعقول بمعنى الحمد
والعش . وإذا استند الأستاذ ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأيف) ؟ وإيا
ما كانت الحال فينى أرى البيت مسجما مع سائر أبيات المقطوعة معنى وورن وفاقية .

وعاق الأستاذ على لفظ (الموشىار) أورد في ص ١٩١ يتراد كلام لياقوت بين
فيه أنه كان بيتا للمكة في يبع يعظمونه ، وأهم كانوا يصدهون به بيت الله الحرام ، وأن
معنى الموشىار النهار الحدد ، بد كانت سنتهم إذا سوا ساء حديدا أو شرعا كلوه بالنهار
وهو الرمحى . ولكن المبحث الذى فى الحديث الذى قام به برتولد (دائرة المعارف الإسلامية
مادة رامكة) ودقت (رساله عن المكة ص ٢٨) يدل على أن الموشىار كان معبدا
يوديا ، وأن لفظ (موشىار) سسكرىبقى الأصل مؤلف من (موش) بمعنى جديد و (فيهارا)
بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت للهنود فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب العرب عن هذا البيت ، فيحسن أن يردف ذلك عايره البحث المبني الحديث
إنما لفائدة .

وجاء في متن الكتاب في ص ٩٩ ، مما يشبه خبر عبد الله بن سواد هدا « وعلق
الأسامة على ذلك بقولهم [في الأصل « وما يشبه خبر هدا عبد الله » الخ] وساق بقص
تأخير « هدا » [رست أرى مع الأسامة ذلك بتقديم اسم الإله « هدا » ثم انشأ إليه
وارد في الكتب القديمة ، مصاحب المعري قول : « وهدا جلد هو حد البرامكة »
(ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هدا سداد رجلا محوسيا » (ص ٢٣٢)
وأظن أن لقوله وحدها من العربية وإدا فلا داعي إلى تغيير عبارة النص بالتقدم والتأخير .



ذلك ما قيدته على هذا الكتاب الميسر ، وإني أرجو أن أكون قد قصيت بذلك
حق مؤنه وحق ما شر به وحق فرائه وأقول في حكام معنى إن ما أحسنه على الكتاب
سواء أكان من ناحية المتن أم من ناحية تحقيق الأسانيد لا يكاد يذكر بحساب ما في
الكتاب من تحليل الفائدة ، وما في تحقيق الألفاظ من عظيم الإحادة والإحسان .

أبو العلاء السياسي*

وُلد أبو العلاء لمصر سنة ٨٣٦٣ وتوفي في سنة ٨٤٤٩ هـ . فقد ولد ، ونشأ ، وشب ، واكتمل ، وشاب ، ومات ، في زمن كان فيه العالم الإسلامي كله حادلاً بأبواب الاضطراب السياسي ، مبدئ بالآفات الاحتمائية والأخلاقية . ففي أقصى العرب كانت الأندلس قد تقلص عنها ظل الدولة الأموية ووقفت في العوصى التي سميت بكتاب لأسنان عليها وعمهم على انتقص أطرافها . وشمل أفرعيه أصبح سعد روال أموي الأندلس وانتقل مواسم إلى مصر بها مقصداً بين دولات عربية وأخرى ربرية كانت لا يبرح متداخلة متفاحرة . ومصر والشام كانتا خاصيتين للدولة العاطية وهي دولة على عظم شأنها ، كانت تستند إلى دعاية عاطية مربية ، ظهرت نازح في أيام الحاكم والمدمر على أن الدولة المذكورة أخذ شأنها بعد المائة الرابعة يصنف وبحاجة في الشام ، مما جعل ذلك القطر بها لأعراب البوادي القريبة منها ونفارات الروم من جهة الشمال . وحزيرة العرب كانت قد عملت فيها تعاليم الزيج والقرمطة فعلت على أهلها التلصص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج . وفي العراق وفارس كان سلطان الخليفة العباسي قد استحال اسماً لا معنى له وكان الأمر كله بأيدي بني بويه لمعطين على الخليفة وعلى البلاد . وكان حكم هؤلاء ملؤه التصف والاستبداد والطغيان ، هذا إلى انقسام بعضهم على بعض ، ووقوع الفتن في بغداد بين عصبيتهم من الدلم وبين الحمد الأتراك إلا أن الحال في أقصى المشرق كانت حيرةً منها في سائر الأقطار الإسلامية ، فقد قامت به دولة فتية قوية عملت على الفتح والتوسع ونشر الإسلام في الهند ، تلك هي الدولة العزوية المشهورة . على أنها كانت دولة قامت وألست بمحمد السيف ، فكان لألاؤها مستعداً في أغلب الأمر من قمعة السلاح وريق السيوف . وانخلاصة أن العالم الإسلامي في العصر المذكور كان قد انحدر نظامه واسطه منه التواضع السياسي والديني أو كاد ، فانتشر الفقر والبؤس ، وعم الظلم والفساد . وأكل القوى الضعيف .

* * *

عاش أبو العلاء في ذلك العصر وتأثرت نفسه الحساسية عما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ ولزم دار المنعة بصيف ويدرس تلاميذه الذين كانوا يقدرون عليه من مختلف الأقطار بالأحد عنه . وقد صور في نثره ولزومياته تلك الحال تصويراً وحيزاً ولكمه بليغ . انظر كيف بصفتنا طاول أعراب الجزيرة والشام إلى تقسيم البلاد بعد أن صعب أمر السديين وما شمل الشام أيامئذ من الإحزن بسبب عدوانهم . فيقول :

أرى حلياً حارها صالح	وحال سنان على حقا
وحسان في سبي طلي	بصرف من عمره أبق
فما رأيت حبيهم بالعار	نعاما على جيشهم عفا
رمت جامع الرملة المتصا	م فأصبح بالدم قد حلف
وما مع الكعاب المتفا	ة هام على عصب عفا
وطل قنيل فلم يذكر	وعلى أسير دنا أضف
وكم تركت أهلاً وحده	وكم تادرت مثري ممعا
يسأل في الحى عن ماله	وما القول في طائر حقد :

ويقول أيضاً في هذا المقام :

ألفنا بلاد الشام إنف ولادة	فلاق بها سود الخطوب وحرها
قطوراً تدارى من سدعة ليثها	وحبماً تصادى من ربيعة عمرها
وددت بأنى في عماية فارد	معاشرى الأروى فأكرد قرها
فربى أرى الأفاق ذات لظالم	بعر سايهاها ويشرب حرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء رسالة يبهه فيها عن الخروج فجمع في عامه ويريه أن الروم لحسب بالمرصاد ، وأن الجهاد في تلك الحال خير من الحج ، فما كتب به إليه : « وسمر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام نسل ، كما حرم صوم عيد الفطر ، وحظر على الحرم نصبح سطر . . وهو — أدام الله تمكيه — أمين من أمراء المسلمين ، يرهب الشوكة ، ويستعيد اللأمة ، ويحصن ماوى من سور أو شرفات . . ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر . . وإجراء السعد

لحفظها والعدو ؟ . وحلب — حرمها الله — قد صار فيها دباط يعتم ، وجهار يرعب فيه
وينافس ، ولا يأت — برول بالعقاد الهدية ، وعودة الحامع كلمة الروم إلى كرسية
من برنطية .

ويقول في فساد الأمر بالحجاز والشام والعراق .

أما الحجاز فما يرجي المقام به لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وورد الحرب مشتمل يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالعراق وميصر يستهل دما وعارض بنفاه الشر يرتز
ويشير إلى حقيقة أمر صاحب ارجح بالبصرة والقرامطة بالبحرين فيقول :
إنما هذه المدهاب أسا ب لحدب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ب لدمع الشفاء والحساء
كالذي قام يجمع زيج بالصد رة والقرم على بالأحساء

وهو لا يسهره ريق الدولة لعزوبة ولا لأزها ويقول في ملكهم الشهير بن محمود ومحمود :

محمود يا الله والمحمود حاتمهم فمدد — ذكر محمود ومحمود
ملكهم لو أبى حيرت ملكهم وعود صعب ، أشراهم بالعود

وكما تشير هذه الأيات إلى عم أي الملاء بأحوال المشرق الإسلامي في رسالته إلى
ابن حزم الأندلسي وداعى الدعاء الفاطمي وكلامه على ابن هاني الأندلسي في رسالة المعمران ،
كل ذلك يشير إلى اتصال أي الملاء بالمغرب الإسلامي اتصاله بمشرقه . وأبو الملاء يحمل
حكمه على المشرق والمغرب بالفوضى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح في قوله .

وجدت الناس في هرج ومرج عواة بين مع — نزل ومرج
فشان ملوكهم عزف وزف وأصحاب الأمور حياة حرج
وهم زعيمهم — باب مال حرام النهب أو إحلال مرج

وأبو الملاء يصرح بأن الحالة القريبية في هذه الفوضى وذلك الفساد إنما هي نظام الملك

المستبد العشوم القاتم على الفهر والتغلب والوقعة والدهاء :

رأس الناس بالدهاء فما ينك حيل ينقاد طوع دهاته
 قالوا فلان حيد لصديقك لا يكذبوا في البرية حيد
 فأميرهم بالأمارة بالحسب وبقوتهم بصلاته متصيد
 وهو يرأى نفسه أن يكون حاكما من هذا القبيل :

لا كانت الدنيا فلس يسرى أنى حبيهم ————— ولا محمودها
 ما سرى أنى إسم ربه تنقى إلى من لأمر مفاد
 أسر إن كنت محموداً على خلق ولا أسر بأنى الملك محمود
 ما يصنع الرأس بالتيحار بصفه وإنما هو بعد الموت محمود
 وما اختار أنى الملك يحى إلى المال من مكس وخرج

وهو يملك إلى إصلاح الطاعة المستدين طرقا شق من التزعيب والتزهيب . فتارة
 يحجب إليهم التقوى والصلاح :

والحتاج تقوى الله لا ما رجعوا ليكون ربة للامير الدهن
 يا مشرع الرمع في تفتيت مملكة حير من ثارن الخطى مسباح
 وتارة يحومضهم عواقب الظلم وبوائقه :

حب دعوة المظلوم على جريمة طغت لغات بالاعداد الدارل
 عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضميمها من عازل
 والظلم يجهل بعض من يسى له ويحل ثقته منس الظالم

وتارة يحدوهم بصرف الأقدار وتقلبها بالناس رهها وحفصا .

أيادى إلى المصر لا تظلم من فككم جاء ذلك ثم انصرف
 لا يسمع ملك الحمار من قدر يغير اخل ما أحدى وما جاسا
 ولو عدا الكوكب الريح في يده كالمهم واتخذ البرجيس برجاسا

وتارة يسلك طريقته العدمية فيد كرم للموت الذي يأتي على جميع الناس فلا يوق
مهم إلا سيرهم وذكريات أعمالهم :

حوادث الدهر ما تنفك عادية على الأنام بالباس وتلبس
ألوث بكسرى ولم تترك مراره والمصادر أودت والقوايس
أردت حصيد وحشت بالردى حسا وواحت آل عباس بتعبس
على أن أبا الغلاء يذهب إلى أمد مما ذهب في تغليل القومى والفساد ، فيبين أن الطلة
البعيدة والسبب الجوهرى في ذلك أن الملوك والمتعصبين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر عمال
الرعية وأحراؤها وخدامها وأن الشعوب مستغفر السطان ومستعده :

مُلُّ المقام حكم أعانر أمة أمرت سير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستحاروا كيدها وعدوا مصالحها وهم أحراؤها

إدا ما تبيتا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم لاقوم خادم
وهو لذلك يحذر الطامة عصب الأمم وثورة الشعوب :

أعادل أن طلفتك الملوك فحن على ضعفنا أعظم
تسامت قريش إلى ما علة ت واستأثر الترك والدم
وهل ينكر العقل أن ت تبت الملك عابسة عيم ؟
وما ظفر الملك في جيشه سوى طفر ياردي بقلم

لو بحث المنصور دى أيا مدسة التسليم لا تلى ا
قد سكن القمر سو هاشم وانتقل الملك إلى الديلم ا
لو كنت أدري أن عقاصم لداك لم أقتل أنا مسلم ا
قد حدم الدولة مستنصحا فألسته شعبة العظم ا
ما دام غير الله من دأهم فاعصب على الأقدار أو سلم ا

فأبو الغلاء يقرر المبدأين السياسيين الأساسيين : سلطة الامة ، وانتخاب ولاية الأمور ،

وهو من أجل ذلك ينفي على الشيعة مذهبهم السياسي في القول بأن الخلافة هي وتوقيف وليست شورى ، ويندد برأيهم في الإمام المنتظر :

فالوا سيملكك إمام عادل يرى أعادينا سهم صدر
والأرض موطن شره وصعائن ما أسمعته سرور يوم قار
على أن ديمقراطية أن العلاء تنصل اتصالا وثيقا باعتقاده في الاشتراكية الإسلامية
سواء أكاتب دمية — وذلك من حيث الزكاة — أم إسلامية تاريخية — وذلك من
حيث حسن الأرض ووزيع عنها على المستحقين فيها — فهو يقول في أمر الزكاة :

وأحب الناس لو أعطوا ركانهم لما رأيت بين الإعدام شاكينا
ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب فكيف نعتز أقواما ما كينا ؟
فإن تش نبصر اليك قد صحكوا والصاحكين لفرط الجهل با كينا
لا يتركن قليل الخير بعهه من مال في الأرض تأييدا وتمكينا
ويقول في أمر الأرض :

الملك لله من يظفر ببيل من يردده قسرا ونصمن معه الدركا
لو كان لي أو لغيري قيد أمة فوق التراب خلعت الأمر مشركا

الأرض لله ما استحبنا الحلول بها أن يدعوها وهم في لدار أصيف
تتارعوا في عواري فيهم بل حطيم وأرماع وأسيف
إن خافوك ولم يجر حلالهم شرا فلا بأس أن الناس أحيف
والبيت الأخير يشير إلى أن أبا العلاء لا يرى بأسا ببقاء القديم على قدمه ، إذا كان
تغييره يجر إلى شر .

ولأبي العلاء رأي في كيف تتحقق (الليوتريا) أو الجماعة السياسية المثالية وهو
يضمن رأيه هذا قوله :

أرأى كلمم مضلا وأسفتمو فض لا فلا يدحن ول عليكم

لا تولوا أموركم أيدي الناس إذا ردت الأمور إليكم

وهذان البيتان ينظران إلى ما قال به المجتهدات من الحوارج قبل أبي العلاء ،
فقد أجمعوا على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ،
فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فقاموه جار

أما بعد ، فكم رد الحكماء من قديم لوروى الفلاسفة شئون الناس ، ومن حسن الخط
أن في سيرة أبي العلاء أخباراً ترجح أنه ولي شئون المرة فعلاً فيروى أنه عندما عصت
المرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وحاصرها وأرحق أهلها بالحصار ،
فسأل الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه في رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى
ظاهر المرة ولقي صالحاً وكلام بكلام رقيق أنرى نفس صالح فأسر بالكف عن القتال وقال
لأبي العلاء : « قد وهبت لك » . وظاهر هذه السارة يحتمل أن صالحاً قد عفا عن المرة من أجل
شفاعة أبي العلاء كما يحتمل أنه قد وهب لأبي العلاء فعلاً وأنه أقطعه إياها على نحو ما كان
مألوفاً في الدولة الإسلامية في ذلك الزمان . على أن الذي يرجح الاحتمال الثاني هو صريح
وارد في رحلة الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، فقد رار المرة في عام ٤٣٨ هـ ووصف في رحلته
ما شاهده فيها فقال ما تعريبه (وكان بها رجل صريدي صمياً أما العلاء ، وكان أمير البلدة ،
وله من النعمة والعبيد والخدم ما يشكرك . وكان حل أهلها كالعبيد له ؛ إلا أنه سلك طريق
السك وتردى ببرحدي بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف من من حبر الشمير لا غير .
ويلمى أنه فتح ما به ، ويتولى عنه وانه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو
لا يمنع أحداً مما آتاه الله ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشمل نفسه شيء من أمور
الدنيا . وقيل له : إن الله حولك ما يرى من المال والنعمة ، فسادا تملأ الناس وتبدلهم
ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لي منه إلا ما أتلع به من القوت لحسب . ولما وصلت
كان حياً يرقق^(١) ولقد صحت أبو العلاء بعض لزومياته الاعتراض الوارد في النص المذكور
وحوايه عنه فقال :

(١) انظر كتابه « أبو العلاء وما إليه » للأستاذ المصطفى ص ٧٨ .

سولت لي نفسي أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التحويل
وانتهى ما لئال كلف أن يظا ب متى ما يقتضى التحويل
ويقول المواة حولك الا ه كدتم نفسي التحويل
إن حباك القدير كاسيل نبرا فليصصه المطاء والتحويل
لا تعمل على احتراش شالاب لدر الصبر نر ميت عويل

وإذا صحت هذه الأحبار ، ولا يحلها إلا صحيحة ، يكون أبو الملاء قد طهر شعيق آرائه
السياسية التي صورها آغا ، ويكون الحفظ قد اصطفاه من بين الفلاسفة جميعا ، لحقق على
يديه لمدة قصيرة من الزمن ، حبالا من أروع أحيينهم ، وحفا من ألد أحلامهم .

ناحية التاريخ

من أدب أبي العلاء المعري

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا سور من إلا وعمدى من أحارم طرف
فهو يدعى أنه ما من أنه وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألم بصرف من أحارمها وعرف
شبهاً من تصريف أحوالها ، واعنى أن أبا العلاء لم يصططع المباشرة ، ولم يركب من التشطط
عندما ادعى هذه الدعوى فقد أدرك من أول أسره أن العاهة الختمانية التي لحقته منذ طفولته
لا شك ما بعته من معرفة العبدية الإلانية من طريق العيس والمشااهدة ، غير أنه فطن إلى أن
في وسعه أن يتدارك ما بعوته عليه هذه لافة الخنومة من طريق لاطلاوع على ماضي الإنسانية
المسطور في تاريخها ، فاعطى العبدية الإلانية واحدة لا تختلف ، والدس هم الناس بعد هم العبد أم
قرب ذلك أصل ولم أكن لعلاء بالتاريخ ثم يحده برداده وله عند رجوعه من بغداد
إلى بلده واعتزله لروم ناني محسية وهو يتنه فإن أبا العلاء لم يرد بالعزلة أن يصرب بينه
وبين الناس جمعاً كشيء بحيث لا يرم ولا يرويه ، وبعد أن ردد العزلة أن يكون سحوة من
مخاطبهم وملا تهم ، وأن تتخرج له حجة بدرس أحوالهم ونظمهم ومصارير أمورهم دون أن
تتمد إليه أيديهم ، وروى أن يعصوا له ما يوجب له شغل خاطرهم لقب ودية النفس .
وكأنه أراد أن ينقطع صنعه للناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الاطلاع
على أحوال المسمين منهم ولعازين ، أي من ناحية الاطلاع على التاريخ على أنه إذا كانت
الضرورة هي التي قصت على أبي العلاء الاطلاع على التاريخ فحدث سبب آخر حسب هذا
العلم إلى عقل شاعر الفيلسوف وقبيل ذلك أن التاريخ قد يكون آلة العلوم وأشده امتداعاً
مقو ورد للإنسان ساحة وقلب صحائفهم دكي وقلب سليم هو موكب الأمم ومعرض
الحياة الإنسانية ، فيه بين مواطن الصعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظمة

الشعوب وأسرار اصطلاحها ، فيه حكمة الحياة واسعة لا تس فيها ولا إسهام . فإذا كان أبو العلاء قد أقبل على التاريخ بقلو صحائفه ويستخرج عبره فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم عن حب له وشغف به أخيراً

على أن اطلاع أبى العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه في أيامه أى من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجرى . فإذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الأول الهجرى ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً يسيراً في القرون الثلاثة التالية . فدوت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس ، والروم ، والهنود ، والمصريين ، والأحباش وكل ذلك كالدخول إلى التاريخ الإسلامى ، ثم دوت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار المأزى والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والعروية والبهية والمهديّة وبعضها في العرب كالطولونية ، والأشيدية ، والإدرسية ، والفاطمية . وقد وصفت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر أكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذى عقده للإخبار بين خاصة وقد سلم لنا من هذه التأليف شيء غير قليل يذكر منه كتاب السيرة لأن إسحق بنهذيب ابن هشام ، ومنازى الواقدي ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والديلمى ، والبلاذرى ، واليعقوبى ، وتواريخ الطبرى ، والصولى ، والمسدودى ، وأبى الفرج الأصبهاني ومسكويه . لا شك أن أبى العلاء اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المرو واللاذقية وحلب ودر اعم سعداد ولا أدل على سعة علمه بالتاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى من كثرة استشاده في نثره وشعره بالحوادث التاريخية كثرة رائدة ، ففي الرسالة التي يعزى فيها حاله أما القسم من سبيكه عن أحبيه ، يحده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد (ص) ثم يسرد ذلك لسرد أسماء ملوك اليمن ملوك الحيرة وعسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة ويبان أن كلامهم قد صار يمسد المر وعلو الشأن إلى الموت والقضاء . ومحمد في « رسالة العبران » يحبر في القصيدة السببية التي قلها على لسان الجنى « أبى هنرش » كيف

استفوى هذا الخلق في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن صلب الله عليه محمداً (ص) فأمن به وصدق واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر ، وأحد ، والحدق ، كما اشترك معه في وقائع اليرموك والجل وصنين والهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء في « رسالة العفران » تلميحات وإشارات إلى الفرق والسحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرحطة كما ذكر الزمخ والقراطة والختار بن أبي عبيد والمصور النجاشي والحلاج ومن الطريف أنه ساق في آخر رسالة العفران كلاماً على الدناير والعملة الإسلامية ، فيه تفصيلات لا عدها في كتب التاريخ التي بأيدينا . وتفيض « الزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الإسلامية وملوكها من نحو محمود ومحمود والعزويين والإحشيد وأبيه طنج وحده حف كما تذكر حاقان وحان وآلك (= أيلك) .

وكما وحد أبو العلاء في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي مادة انتفع بها إلى أبعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتحصيل منه لشور والمنطوم ، فقد وجد في حوادث عصره مادة عزيزة اكتسب شعره وثره حيوية مجية ، وأمدته بما أعياه على تكوين رأيه في السياسة وعلم الحكم والاحتجاج بوجه عام . ويستطيع أن يقول إن شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه « سقط الزند » متصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره ، بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ « سقط الزند » و « الزوميات » أن يتبين صورة واضحة لحوادث الشام خاصة في زمن أبي العلاء .

كانت مرة النعمان معدودة من الإقليم المعروف « بالعواصم » ولواقع على تخوم الدولة الإسلامية مما يلي ممكة الروم . وقد أصبحت حلب إدارك قاعدة ذلك الإقليم ، وكانت معنزة بين متأخرى أسراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيقلب بنو حمدان على أسرهم ويستولون الفاطميون على حلب ، ولكن سرعان ما عبرت الفاطميين أسرة عربية بدوية هي الأسرة المرداسية ، فقتلوا على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس السكلاي . وقد تمت المرة حلاً فيما احتل عليها من الأحوال ، لذلك يجد أبا العلاء يمدح أسراء حلب على اختلاصهم من حمدانية وفاطمية ، يمدح الأمير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الأولى من « سقط الزند » كالقصيدة اللامية الأولى التي مطلعها :

أعز وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الصلح طلعت مالا
كما يمدح ولاية الفاطميين على حب في قصائد أخرى منها أسيدية التي مطلعها -

ولا نحية بعض الأربع اندرس ما هاب حد لسانى حادث الحسن

ثم إن أهل المرة ثاروا على صالح بن سرداس بسب المرأة التي أهدبها حمار مصراني ،
فدعوت إلى المسعد يوم الجمعة وقصت على الناس ما ناله فثاروا ، فثاروا وانتهبوا خانوته
وهدموها ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله في اللزوميات :

أنت جامع يوم المردة جامع تقص على الشهاد بالمصر أمرها

فلو لم يقوموا ناصر بن لصوصها خلعت سماء الله تخطر حمرها

فهدوا ماء كل ناوى صدوء فوارق ألفت للقواحش حمرها

وستحصل الخطب عند ما أشار على صالح وزيره المصري * تادرس * وكان
حقاً على أهل المرة باعتقال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى المرة فأخرج إليه أهل
المرة أما العلاء شفيهاً فشمعه صالح وأطلق له الأسارى السبعين سنة ٤١٨ ، وإلى ذلك يشير
أبو العلاء بقوله في اللزوميات :

تعبت في مبرلى رهة سثير العيوب فقد الحمد

فلما مضى العمر إلا الأفل وحس لروحي فراق الحمد

بعت شعيماً إلى صالح وذاك من اليوم رأى قد

فسمع مني سمع الحمام وأسمع مني زئير الأسد

فلا يحصى هذا العناق فكيف تقف محبة ما كمد

والمصالحان يعود لقوامهم في الشام أصبحت الشام به نقائل العرب المتبدية من
لبن الحررة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطلي وعامر ، وإلى ذلك الحادث
يشير أبو العلاء في أبياته القافية التي أولها .

أرى جساً جارحاً صالح وحال سنان على حلقا^(١)

وإذا كانت هذه الأسماء تصور لنا الحوادث الباردة «الشم» في أواخر القرن الرابع
وأوائل الخامس فإن تصور لنا ناحية من واحة شخصية أي العلاء ، ناحية منه لوطيه
وقومه ، وحزبه ، بنصب هذا الوطن ، واستمداده لأن يخدمه بفرده الأدنى عند الاقتضاء ،
وهي أشد نكبات وشدة مدى فيه ، وهو في بغداد يشوق بلده لمعه .

على أن لوطية أي العلاء معناه آخر ، قد كان للشعر في منه عدو أحسن يتحدين
الفرص لا يقتضيه عنه ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد رماد سيف الدولة والفتيات
الأمر بالشام قد استولوا على أوطان كثيرة سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك في
أيام اميراطورهم بقور فوقس . ثم أخذوا يمدون أعينهم إلى حلب وكان سعيد الدولة
الحمداني وولاه بغاطية دافوسيه جهده طاقته . وما بعد أبا العلاء يسهر فيه لا خدمة
وطنه غلب ولكن لخدمة العالم الإسلامي كله ، فهو في مدائمه نعال حلب يشيد دائما
مقاومتهم الروم ، فيحاطب الأمير سعيد الحمداني (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المدين قد نالت سحائب تحمل الدم الثغلا
وقيت عيالهم إذ كل عين بعد سواد باطرها عيلا
وقت لا يطق الليث فيه مساورة ولا السيد احتالا

وبقوله .

إلى حارم قاد المناق سواها لها من نشاط لاكاة رمال
بني الصدر هل ألبتم الحرب مرة وهل كف طعن عكم وبصال
وهل أضمت سحر الليالي عليكم وما حان من شمس النهار روال
وهل طلعت شمس موسى عواليها رجال ترمى حبههم رجال
على تصوماء سوة الحرب مرة وتصمكم شم الأوف طوال
ففي كل يوم غارة مشمعه وفي كل عام عسرة ونزال
إلى أن يقول في الخليل :

يروى دس الروم وهي عريضة ويتوكن ورد الماء وهو رلال
وقد عزم الرومي أمك حقه على أن يصير الموقيف بحال

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء ينهيه عن الحج في عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، فمن ذلك قوله : « وسفر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام نسأل كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على المحرم تصمخ بغير ... وهو أدام الله تمكينه ... آمين من أسماء المسلمين يرهف الشوكة ويستعيد اللأمة ويخلص ما هي من سور أو شرفات ... ومن حياطة الرعية بمداميك المذر ... وإحراء العبد لحفظها واقتدر ، وحلب حرمها الله قد صار فيها رباط يعظم ، وجهار برعب فيه ويتنافس ، ولا بدت أن يرول بسفاد الهدنة ، وعودة الجامع كله الروم إلى كرسية من رطبية »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح أسراء حلب الماصلين للروم تخرى بحر قصائد لتتبي المعروفة بالسيقات والقصائد الروميات لأنى فرس الهداني وهي حقة من من حقائق منحة الحروب العربية الرومية . على أن أبا العلاء كما يحيل إليها كان يندب فيها بيه و بين . أنه أن روح الجهاد قد فرغ من المدين وعقد قومه حصة وأهم أمام استملاء الروم وكلهم عليهم قد الترموا حطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحب أن يعبر عن هذا الاعتقاد الذى استقر في نفسه من طريق الكساة والرمز فظم تلك المجموعة العربية من القصائد المعروفة « بالدرعيات » ولوردة في آخر « سقط الزند » فالدرع أداة وقاية لاسلح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا طسا في تمليل إيشانه هذه القصائد فإن يكن طسا صادقا فقد أبدع أبو العلاء الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو العلاء حملة أحوال العالم الإسلامى لهده ، ويرى سالا لا تسره من ظلم ، واضطراب ، وفقر ، وطغيان . ويحتد في أن يطب لتلك الحال فذهب إلى أن الملوك والمتصنين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر حديم رعاياهم وأحراؤها ، وأن الشعوب مستقر السلطان ومستنده :

مل القمام فكم أعاشر أمة أمرت خير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجاروا كيدها وعدوا مصالحها وهم أحراؤها

ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الإعدام شاكياً

يا قوت ما أنت يا قوت ولا ذهب فكيف تمحز أفواما ساكينا
ويرى أن الأرض لله لا يصح تملكها :
الأرض لله ما استعيا الخلول لها أن يدعوها وهم في الدار أصياف
تسارعوا في عواري فسهم بيل حطام وأرماع وأسياف
ويرى أن في إمكان الناس أن يصلوا إلى « المدينة القاصلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة
السياسية المثالية إذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :
إن أكلتم فصلا وأقمتم فصلا فلا يدخل وال عليكم
لا تولوا أموركم أيدي الناس إذا ردت الأمور إليكم

• • •

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديعه والمعاصر له مادة عدت فيه الأدبي وأعانت على
صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية
الخاصة به . لقد عرض تواريج الأفراد والملوك والأمم وما يختلف على الناس من أحوال فوجد
كل ذلك لا محالة منتهيا إلى العدم والعدم ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسائية
مركية تهيئتها الصفر . ومن ثم ساء طعم الحياة ولم يرى سوى الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنعك عادية على الأنام ياسين وتيس
ألوت بكسرى ولم تنك سراره وبالمناذر أودت والقوايس
زارت حسنا وحست بالردى حسنا وواحت آل عباس تنهيس

والليل والنهار عنده شقا مقراض بإيثار على كل شيء .

الصبح أضغ والطلا م كما نراه أمم حالك
يتدرجات وبسكا ن إلى الوري صيق السالك
أمدان يقرصان من سرا به فأبه فذلك
حلا الممالك عن ردى قاض إلى خان وآلك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شره وضعائن ما أسحت سرور يوم قارد

هذه فلسفة التاريخ عند أئى العلماء وتفسيره يراه هو تفسير رجل متشائم لا يرى فى العالم ولا فى الحياة شيئاً يسيراً وهو من أهل ذلك يستعجل الهدى والمضى ولا يتبعه إلا الزواج الذى هو وسيلة النسل وبقاء النوع .

تواصل حمل النسل ما بين آدم وهى ولم يواصل إلا هى .
وهو سبب الظن بالناس زاهد فيهم :

ورهدنى فى الناس معرفتى بهم وعلمى أنى الناس هم .

هيتيك عن خلاط الناس فاحذر أذا بك لأذى ، اءاى
وإى أنا قلت لا نعمل حرراً فهو أءاى السوء وصرى
إلى أى شئ يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إى مزاج أى العلماء متأثر بحياة التى أخذ معه بها بعد هودته من مبدأ هو عنه هذا التشاؤم ولكن مزاج شعراء القصور نقيحة لا عنه ذلك الحال فهو إى أخذ معه بحياة الرعد والتفتت الباع بعد أن سمع الأرميين وبعد أن استكمل خبرته بالناس . إداً خبرته بالناس وفى القدم وفى رمة هى علة تشاؤمه هى عنه بالتاريخ كما وصل إليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الإغريق ورومان والإسبان وحيداً وصراً قصوراً بيناً لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو الدولة وطبقه ، ومن شأن التاريخ إذاً إى على هذا الأساس أن يكون قائم اللور مشدداً حاداً من ثورات وطلم الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها بعضاً . فلهذا طلع فلاسفة الإغريق ورومان على هذا التاريخ تأثروا به إى صوغ نظراتهم عن الحياة حملت مخدات نظريات ملوثة التشاؤم سواء فى ذلك نظريات أفلاطون والروقيين ولأبقورين وصديق ومدارث أور . فمنهم من رأى أن العالم يتقلب فى أدوار رسمية متتبع كل منها بمصر ذهبي مجيد ثم لا إزال يتدلى ويصعب حتى يختتم بحال فوضى واضمحلال ، ثم يقتتح دور آخر وهلم حراً . ومنهم من رأى الإنسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا أحد تقدرها هى الآلهة تنطاق لا سلطان له عليه . ففئة

فلا سمة الإغريق ورومان بعمق حزن وياس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت
المصور الوسطى الأوروبية وسد سلطان المصرية فأصبح الناس يرون أن هذه الدنيا دار
بلاع وأن الآخرة هي دار القرار وأن السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة
هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فاردد الناس صيقاً بالحياة وأصبح شعارهم ارهد فيها
وتعنى الخلاص منها . ونرواية التاريخ لشرق لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية
العربية . والمجتمع الشرق القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريق الرومان
القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة يأس وحزن ونشأوم . وفكرة الأندوار
التي نحدثنا عنها عند معكزي الإغريق والروم مقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتح
مبجى نبي أو رسول وتنتهى بقيام آخر والإيمان بحياة مستقبلية يتم فيها المؤمن ويحله وهي
خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على العموم أن الإنسان ابتداءً ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة
إرادته يرقى شيئاً فشيئاً . ولكم هم حصوا مصائبهم صعمة أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل
القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالفه سبحانه وتعالى

و بعد : فأبو الملا قد سيج في السمة التاريخ مسيج المفكرين القدماء من المشاركة والمعاربة
على السواء لأن السمة واحدة في الحالين . على أن نشأومه ونأسه سطويان على حب حقيق
للإنسان والإبسية . وإذا كان أبو الملا شديد رفق بالحياوان فلا شك أنه كان في أعماق
نفسه أشد رفقاً بالإنسان .

السلطان عین الدولة

محمود الغزنوی*

٣٨٧ — ٤٢١ هـ

علم من أکبر أعلام الشرق ، رفع مدار الإسلام عالياً وشاد في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس دولة عظيمة انتطعت الرکن الشمالی العربی من بلخ ، وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، وبشرلو . العدل في تلك الدولة المترامية الأطراف وباصر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب ماصرة قفاً محد لها مثيلاً في التاريخ .

والسلطان محمود من أصل تركي . وقد ظهر الجنس التركي على مسرح التاريخ الإسلامي في أوائل القرن الثالث الهجري عندما اقتضت سياسة الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على الفرس الذين كانت لهم مطامع قومية قوية ، وعلى العرب الذين صبرتهم عصيتهم القبلية أداة لا يعتمد عليها في سياسة الدولة وتدير أمورها .

ولترك في تاريخ الدولة الإسلامية صفتان متبعتان كل التباس : صمعة مغلقة حالكة الإظلام تنبئها في استبداد الجند التركي مانخلفاء العباسيين في القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع ، وإذلالهم بإيما إذلال ، عملاً وتولية وسجناً ومثلة وتعدساً . أما الصمعة الأخرى شرقة رائحة الإشراف ، تنبئها في قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفي انتصارهم للذهب السني بعد أن استعنت عليه المذاهب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال سني كادت تقضي عليه وتذهب به كل ذهاب ، كما تنبئها في شدة دأبهم على نشر الإسلام في الأقطار الوثنية ، ومكائنتهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والتتر ، فانغرنوون وأعقابهم بشروا الإسلام دساً ودولة في الجند ، والسلاحقة ردوا إلى المذهب

(*) ولد في سنة ٣٦١ هـ وتولى الحكم سرته سنة ٣٨٧ هـ وتوفي في سنة ٤٢١ هـ . و مروى سنة ١١١١ مدينة « غزنه » عاصمة أفغانستان الإسلامية القديمة . ويقع حوى مدينة كابل الحديثة .

السنى قوته واعتباره ، وصدوا الروم ، ومازلت أنماكتهم الصليبيين في الشام وكسروا شوكتهم وقضى ممالك مصر على بقايا الصليبيين بالشام وصدوا التتار عن مصر ولغزب فأسدوا بذلك منة مذكورة مشكورة إلى المدينة الإسلامية والمدينة الأوربية على السواء .

من هؤلاء الأتراك مملوك اسمه ناصر الدولة سُبُكْتِكِيْ ، كان عاملاً على أفغانستان للدولة السامانية الفارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلاً هاماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة خراسان من مولانا الساماني ، ومن ناحية الشرق بأن عمراً إقليم البنجاب وهزم ملكه الهندي جيمال ، وأقام فيه حكومة إسلامية في مدينة شاور ، فلما توفى في سنة ٣٨٧ هـ خلفه ابنه محمود الذي نتكلم عليه .

و ث محمود عن أبيه نشط الجب ، وعبر بربه العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وعبرة دنيئة لا سمحة فيها ولا رياء .

ويحمد محمود ، منه عند توليه ملك غزنة في محيط سياسي معكث الأوصال ، متداعى البنيان . واقد كانت الدولة السامانية تعالج سكرات الموت تحت صرعات الترك الأبله كعبانية ، وكانت الدولة البويهية يمارس معنى أرح ما تعابه دولة من حراء اختلاف الكلمة وتفرق الأهواء . فلم يتردد محمود في أن يخلع طاعته للدولة السامانية المنهزمة ، ويدعو للحليفة العباسي القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حساب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل ، الأمر إلى أن أصبح وارث الدولتين معاً على وجه التقريب .

وفقد عرف له الحليفة العباسي القادر بالله قصده وعبرته وسعد همته فخرج عليه لقب السلطان يمين الدولة ووالى أمير المؤمنين ، فصاح بقلب بذلك اللقب واشتهر به في التاريخ . ويقول ابن الأثير ، به أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله ^(١) .

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يقع بولاية غزنة وما صممه إياها من فتوح

(١) يقول المستشرق الإعليري إيسول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عملة محمود الترمذى ، وإن أول من تلقب بهذا لقب من الأسر السمرقانية هو إبراهيم ظهر الدين (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) مقتدياً في ذلك باللاحقة الذين كانوا سابقين إلى التلقب بقلب سلطان كما يؤخذ من دراسة العملة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

هي في واقع الأمر فتوح بلاد إسلامية فقد حمرته حيته الدينية واعترف الخليفة العباسي بإسارته إلى أن يوجه قواه وجهوده إلى أقطار وثنية ساحم منك هي بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك غلب قائم بذاته يكاد يكون في عزلة عن سائر العالم نشعونه ولغائه وعقائده وعاداته . نعم إن العرب حاولوا أن فتوحهم الكبرى الأولى فتح بها هنزوها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم الشاب العربي محمد بن القاسم الثقفي ، هلع في عزوته المثلثان . ولكن هذه العزوة على أهميتها من ناحية الداريجية لم تقصها محاولات أخرى للتوسع في الهند لا في بقية العصر الأموي ولا طوال العصر العباسي الأول .

وكل ما أقدر ادخرت شرف استئناف هذا المشروع الخطير والسير به أمداً بعيداً ، للعصر التركي والاسطان محمود الغزنوي بالذات . فقد بشر الله أن يكسر عن محاربتة بحواجه في الإسلام من سامانيين وروبيين بأن يعمرو الهند كل سمة ونمغن في أرضها حتى يعلى فيها كلمة الإسلام أو يعلى عنفراً .

ولقد كان السلطان محمد أن بن بنده كلما ساعدته الظروف ورواثة الأحوال . فبدأ بين سنتي ٣٩٢ و ٤١٦ هـ عرا ما لا يقل عن سبع عشرة عزوة فكان ينصب من حبال أفغانستان على سهل الهندستان في حموده الأتراك لأشد ، بحيوهم الفارحة وأسدحتهم الموفورة ، وعظامهم الحربي المدح ، تصبات السيل الدافع فيمير الأنهر الضباب ، ويسلك القمار المدوية ، ويفتح المدن الحصينة ، ويحرب الهند الوثنية ، ويكسر الأصنام الهندية ، لا يبالى تعب ولا مصدا ثم يكر راحة إلى عربة يملأ ليدس من السبي الرثع ، وعظام الهائلة ، مما حوته معادن الهود من كمور الذهب والفضة وذاخر الحواهر وعانس الأعلاق . وقد اعلى هذا الغزو مباح من ابتلاك السلطان محمود يقين السحاب وقشمبر ، وسيطرته على ممسكة كجرات لواقعة على المحيط الهند .

ودخل الهود في دين الله أفواجا ، وترك فهم السلطان الفاتح من يعادهم أصول لدين الإسلامي وخضم مبادئه ، فرسح للإسلام من ذلك الوقت في بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ، نابعة لدعاتهم ، قوية لأساس ، على نحو ما شاهده الآن في دولة ماكتن الحديثة .

أثبت السلطان محمود أنه ذلك المأمع الكبير والقائد المظفر الخطير ، بيد أنه في مجال العمل السلي لا يقل روعة واعتكازاً عنه في مجال الحرب والجهاد ، بل لكل جانب العمل السلي من سيرته وما شتمل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم لإدارة ، ومناصرة المأموم والمأمون والآداب ، أهل شأن من حاسب البراعة العسكرية وأسد أنراً .

حدد عمارة المشهد بطوس وهو الذي فيه قبر علي بن موسى الرضا وقبر الحليمة هارون الرشيد ، وأحسن عمارته كما يقول ابن الأثير . وبقي في عزلة مسجدها العظيم ، ماء بالرخام وحجر الصوان ، وأصاؤه عصا يبع لذهب والعصاة ، وفرش أرضه بالسط الفاحرة ويسر جلب الماء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجعلها بكل ما تحمل به المدن من مختلف المرفق ، وقد أدى به في ذلك رجال دولته ، فانتفتت غزوة في عهده من حال مدسة خاملة إلى حال عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامي .

وسكر أمرين رفا السلطان محمود إلى أعلا درجة يعطى إياها أمثاله من مؤسسي الدول أولها أنه كانت شديد العناية بمصالح رعيته ، حرصاً على شرفها العادلة بينهم ، قوى الاعتقاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه العفيلة الكبرى ابن الأثير في تاريخه ، وأورير السلحق نظام ملك في « سياستنامه » والأسر الثاني وأمه العظيم المأموم والمأمون والآداب ، أسس في عزلة جامعة كبيرة ، رتب لأساتذتها الرواتب ، وأخرى على طلابها الجرايات ، وأمدتها بمكتبة حوت من مائس الكتب الشيء الكثير . ولقد كان ذا حرص عجيب على أن يحتشد إلى بلاطه وعاصمته أعظم العلماء والملاسة والشعراء والكتاب والمؤرخين ، مسعراً في سبيل ذلك حاهه وماله معاً . وقد اتفق في عهده سقوط الدولة السامانية ، واضطراب أمر فارس والبراق وصيرورة كثير من رجال العلم والخدمة والأدب ، شبه مشردين لا يجدون ملجأ ولا نصيراً . فاستجاب كثير منهم لرعة السلطان العزيزي العظيم واحتمع معهم سلاطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان السيروني صاحب التصانيف التي لم يؤف مثلاً في تاريخ الهند وبيانات عقائد أهلها وعاداتهم والعتي مؤرخ الذي وضع « الكتاب الميمى » في سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البستي الشاعر المشهور ، والإمام أبو منصور الثعالبي صاحب « بتيمة لدهر » وكان السلطان حريصاً

على احتجاب الرئيس أبى على بن سبأ ، ولكن ابن سبأ كان يحشى بواذر السلطان وحدة مزاحه فلم يحب طئه ومانع في التحق عن عبور الرجال الذين ينهم السلطان للبحث عنه وإشغاصه إليه .

وكما أخذ السلطان ناصر عماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر كذلك شعراء المهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان بر بن ملاطه منهم العنصرى و أنصرى والمسندى والأمدى والعصارى وخاصة أبا القاسم الفردوسى شاعر إيرى الأكبر وللفردوسى مع السلطان محمود قصة تعرض لها في مقام آخر^(١) .

تلك سيرة السلطان محمود العزوى بالإعجاز الشديد . ومنها يتبين أنه بعد تحقق من أعظم أعلام التاريخ الإسلامى . وقد وى في عزه سنة ٤٢١ و يورد بن لأثير بعض سيرته فيقول « كان عيين الدولة محمود بن سكتكين عافلا ، ديباً ، حبراً عنده علم ومعرفة ، وصنف له كثير من الكتب في فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عيهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير الفزوات ملازماً للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » .

ثم يقول في حليته « وكان ربعة مبيع اللون حسن الوجه ، صغير الميبر ، أحمر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محموداً كان حريصاً على جمع المال ولكن مما يهون من نقد ابن الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن يفتق المال الذي يجمعه على نفسه وملائته ، بل كان ينقعه في إعداد الجيوش الحاربة وتشيد سائر النامعة وشرب لواء العدل ، وخدمة العلم والعلماء .

(١) انظر المقال الآتى عن الفردوسى .

١ - الفردوسي

(٣٢٥ - ٥٤١١ هـ)

احتضنت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضي ذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، وقد دام احتفلها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور ولم تكن لحظة تلك الله ذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فوعدت ثمانى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من بينها في الاحتمال ذكرى الفردوسي ، وراود بعضها من قبيل الحملة الإيرانية والتبوية شاعرهم فأحتفى بذلك الذكرى احتفاء خاصاً في عواصمه . فعلى ذلك الألمان في برلين ، والإنجليز في لندن ، والفرنسيون في باريس ، والإيطاليون في رومية . وعما قريب نحدو مصر حدوهم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فصلاها عن حياة الفردوسي وشعره ، وعن أثر قومه في عالم الفن والأدب . وأريد بهذه المناسبة أن أعرض في هذا المقال آخر آت لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسي وسرى أن البحث يكشف لنا عن شخصية فذة محبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقد قومية ولغة كان يتمازجها البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بتصويب موقور في ميراث العالم الأدبي الباقي على مر الزمان .

* * *

هو أبو القاسم الحسن بن علي الفردوسي ، وكلة (الفردوسي) لقبه الشعري ، فقد حوت عادة الفرس من قديم أن يجمعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالذيقي ، وملك الشعراء ، وبحكم الشعراء وهكذا^(١) . ولد على رأى بعض النقات حوالي عام ٥٣٢٥ بقرية من قرى مدينة

(١) أديب مصلون هذا المقال من مجلة الإذاعة المصرية في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ هـ وألم قصد في بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الأدبية وليس ذلك من شأننا ، إنا قصدنا إلى التعرف عنه من حيث إن حياته تفتى صوماً على مجال سياسي في آسيا الوسطى الإسلامية في القرن الرابع الهجري . ومن يرد سيرة شاعر نفسه فليست في مطالعها وحاشا لشاعره . ومقدمة (مرب) لترجمتها الفرس وكتاب بولوك عنها ، ومقدمه الدكتور عبد الوهيد عزام لترجمة سبازي العربية لشاعره

(٢) وقبل في تعليقه غير ذلك (نظر المدخل إلى الشاعره فذكر عزام

طوس بحراسا يقال لها (بر) ، وورث عن أبيه صياغا كانت تعل عليه في صدر حياته كعديته من المال وتعلم في حدائمه ما كان يتعلمه أمثاله من أساء الدهابين في ذلك زمان ، لحدق الفهلوية والعربية . وشعب في صباه بقرص الشعر الدرسي والتوفر على مطبعة القصص الفارسي القديم فأث كل ذلك عنده اعتدرا عومه واعتقادا لدهبهم الشيخي . وشدا شيئا من آراء المتكلمين من المعتزلة ، فث فارسي الهوى ، شيخي المذهب ، معتزلي الرأي .

كان سر حراسا في ذلك الوقت إلى الدولة السامانية ، وهي دولة فارسية من الدول التي تقسمت سطون الدولة العباسية بصعب السطة المركزية في بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجري . وقد حو د السامانيون في بحث الروح القوي الفارسي مستعينين على ذلك بما للبارع والأدب من القوة في إنكاء الروح القوي عامة . فمثل وريرهم البنسي رسم الأمير منصور الساماني تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، وتقدم عملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى حل نقل له أبو منصور العمري في جمع أخبار الفرس اقتداءا في شكل تاريخ شعي لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامي ، فهد الممري ، لأمر إلى أمة من الفرس الزدادشنيين جمعوا ذلك التاريخ من الكتب المخطوطة في قلاع فارس ، وفي خزائن الموايد والدهاقين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « شاهنامه » أي « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالي عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله ، فهد الأمير روح بن منصور الساماني بظمه شعرا إلى فتي فارسي شاعر يعرف بالديقيق . فأحد الديقيق في ذلك فظم مه ألف بيت تم هلك غيلة حوالي عام ٣٦٦ هـ .

اطبع الفردوسي على شاهنامه المنثور وعلى ما نظم الديقيق منه من نسخة أعاره إياه صديق له يقال له (محمد لشكري) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الديقيق ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، فامثل الإشارة وعكف على نظم شاهنامه من حيث انتهى صاحبه ، ففضى في ذلك ثلاثا وعشرين سنة أنتم فيها نسخة شاهنمه الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كراء الفرس الطاهرين بأرض أصهان يقال له أحمد الخالنجاني ، فأجازها عليها بمحاضرة يسيرة .

في تلك السنين الطوال ، تيدت الحال في حراسان لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستديرة ، وعراها ما يعرف البلاد عدة عند الذين سدهت دولة وقيام أخرى فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق لرى ، والملاذ بعد ملاذ زراعية ، فشح الماء ، وحف الزرع ، وأحدثت الحقول ، وبالت ملاك الأراضي شدة بعذر عليهم بها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسى بطبيعة الحال من محيائك المسابقة الاقتصادية ، وراده صكاً وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفى غيره المظرف شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً في شعره الشكوى من العاقبة وتنكر الزمن . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسنة أصدقائه ، فأعده منهم بمر كرام النفوس أوفياء القلوب ، كاذم عن مصيبتهم بأن يوه نذكرهم في الشاهدية . والحق أن الفردوسى ، وقد فقد الاجتماع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهودهم الأدبية بمال يزوج منه أمته لوحيدة ، وينفق منه على نفسه في شيعوخته . وطابق لذلك يبحث عن أمير بديل أو منث حلين يهذى بإياه الشاهنامه فيجبره نعمة تحقق أميته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الحليل في شخص السلطان محمود الغرورى

ولسلطان محمود الغرورى أوجد موك الإسلام لذلك العهد ، وأخذ أعماله الماريج الإسلامى على الإطلاق قد شاد عمره وحمته مسكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وحراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس وأصبحت قاعدته (عربة) تحت حدها ومدارسه وحرث كتبه وعدتها الأعداء من أموات العرب الإسلامية . ويقال به لم يجتمع قط في مدينة أسبوية في وقت واحد من أعين لأدب وأطباء علم والفلسفة مثل من اجتماع بحرية على عهد السلطان محمود ذلك أن السلطان كان شوقاً بامم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقبهم بحضرة ، فيرد بهم بلاطه ، وتكون له من قريتهم شهره أدبية تصاف إلى شهرته لخرية لقي طمقت الآفاق ومن العلماء الذين حدث بهم عربة على عهده ، البيرونى والمبى المؤرخان ، والغازى الفيلسوف . وأبو الفتح النسفى الشاعر العربى ، والمسجدى والعصرى والفرجى ، وكلهم من سباق شعراء العرب في الإسلام . وكان الرئيس أبو على بن سينا قد قصد حصرة السلطان ثم بدا له فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام معاصيته ميقوداً ، جلس إلى

أولئك العلماء يمدحهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو في تعبيده العلماء ومساهماته بهم يذكرها
بسيوف الدولة الخدائي ، والحكم المتعصر الأندلسي ، وبردريك ، لأنكر ملك روسيا ،
ولويس الرابع عشر ملك فرنسا

ذلك هو الملك الجليل الذي رآه الفرديسي مهوى فؤاده ومحط آماله . فأحد بعد العدة
لا يتجاع حصرتة والاعتراف من فيض حوده . تحمل برجع الشاهنامة ، مطمئنين أحزانه ،
مكلاً ما نقص منه ، مستدركاً ما فاتته في مسخته الأولى وبحيياً فصوله يمدح مدية بطوق
سها حيد ذلك الملك العظيم وقد قصي في ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد
المسحة لدية للشاهنامة عام ١٠٠٤ هـ ونصبت عدة أبياتها سبعين ألفاً .



توجه الفرديسي إلى عربة دمه راويته وسبعة الشاهنامة ، اتقى وزير السلطان الرئيس
الكبير أما العباس الفصل من أحمد ، وكان ممياً بشر الفارسية ، فدنه حصرة السلطان
واطلع السلطان على الشاهنامة ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل حمار ، ولكنه مع
ذلك لم يتقبله بقبول حسن . والروايات القديمة تحميه على أن الوثنية والسكيد قد عملا عملهما
في إفساد قلب السلطان على نورير والشاعر مماً . ولكن الأمر أحل من ذلك وأعظم ،
فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي لمسلم الذي أمق من المهدى إعلاء كلمة الإسلام في
العند ما أمق ، والذي كان بصيراً لاسمة ، وحصراً للباطنية والمعتلة ، هذا السلطان لم يحبه
أن يشيد الفرديسي عجد حاره العرب أيام محوسينهم ، كما لم يحبه أن يمدح في بوق المعصية
الدرسية ، وأن يذرك به عو الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران ، كما
لم يحبه تشييعه وحيره . أنه الدلة على عزته كل ذلك فعد ماسطاً عن أن يحير الشعر
بالجزرة التي كان يتوقعها ، اتقى كان يمدح عليها . لا كلاً فيمدح إنه يمدح فيه بعشرين
ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فيما لا

لكن الفرديسي لم يكن يرحل . في يتحمل هذا المنصير وحنه . فقد حزى السلطان
شر حزاء فيقال إنه رحل حمداً فمدح خرج منه شرب فعداً ، ثم قسم عطية السلطان بين
الحمى والفقعي . ومنع ذلك السلطان فمدح عصه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فإلا الفرديسي

بالفرار من غربة ، وظل عتيقاً بمدينة هراء ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر بها فيها
السلطان هو لادعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ورل على صاحبها
الأصمهد شهر دار فأكرم متوا وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض
عليه كما ينبغي ، وشرى منه هو السلطان مائة ألف درهم ، ثم بعد ذلك اهجو من الشاهنامه
محوماً . بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم
السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق ورل على أميره سلطان الدولة البويهى .
ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوسي
يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إصاعته عمره في نظم الشاهنامه ، ابل
نأسطير العرس الأولي ، ولكن يظهر أنه إنما أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بينه وبين
البيئة العربية التي أدى به تطوافه إليها .

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن الفردوسي رأى منه عربياً بالعراق ، وأن سراج
حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوديه أحله في مسقط رأسه ، قريباً من بيته بين أهله
ومعشره ، وهو الخطيب عيه أن السلطان كان قد ذهب عنه عصبه عليه ، وأن أمره كان
قد سى أو سوسى ببلاط عزة فخرج من العراق شاحصاً نحو طوس ، فبعده شيعاً فانياً
مهمود القوى قد حاور النعمان .

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راحماً من المنشد إلى عاصمة
مسكه . فمرض له ثرى قصة حصنة ، فأرسل السلطان إلى الناظر رسولاً أن « إيت غذا ،
وقدم الطعة ، واحدم حصنة ، والنس انشريف ، وارحم » فلما كان بعد ركب السلطان
وإلى حابه وريره أحمد بن الحسن لميسدى فلما حضر السلطان بالرسول مقللاً قال للوزير
« ترى ماذا يحصل من الجواب ؟ » فتأمل الوزير بيت من الشاهنامه معناه « إذا لم يكن
الجواب كائناً ، فها والحرر وليند وافر اسباب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذي تبعث
الشهقة منه ؟ » قل « امسكن أى القسم الفردوسي الذي احتمل السماء حساً وعشرين
سنة وما حتى أية نمره » قل سعد « أحبت عدا ذكرنى ، إلى ليحربى أن يحرم عطائى
هذا الراحى الحر ، ذكرنى في عربة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم الوزير عزة ذكر السلطان ،

فقال السلطان « مر لأبي القاسم نسق أب ديسر يسطاه بيده ، ويجعل على الإبل السلطانية ، ويستند إليه » .

غير أن القدر الساحر شاء ألا تمتد مشيئة السلطان ، فبقدر به عدم ما وصفت الإبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) . وأنه بينما كانت الإبل داحلة من بعض أبواب المدينة ، كانت حمارة الشاعر حارحة من باب آخر .

وأراد رسل السلطان أن يدعوا الهدية إلى أمة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها عند ذلك أمر السلطان أن ينشق المال في بعض وجوه البر ، فصوروا به رطباً للمجاهدين على حدود إقليم طوس . وكذلك نعى السلطان عن نفسه آخرة الأمر نهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فإن ادعى مدح أنه طلع في الأولى فقد أبصمه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم

تلك بالاحتصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي وهي سيرة تفصح عما أوتي به ذلك الشاعر من قوة تستل في صدق عزيمته ، ومعد همته ، وعظم عاقبته ، وثبات مقعده . كما أنها تفصح عن صفته الذي يبدو في حدة مزاحه ، وكثرة شكواه من العاقبة ، وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطمح قصته الثانية على ما أفاق من جهده وأصابع من عمره في نظم ملحنته الأولى . على أن ذلك كله ليس منطع تعظيم قومه لذكراه ، إنما منطع ذلك هو الصنيع الحبيب الذي أسده إلى القومية الفارسية ولأمة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب يد داك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قصوا على ملك آل ساسان ، وصيروا فارس إقليماً من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الإسلام بعقب ذلك في فارس حتى كاد يقضى على الدين الزرادشتي ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخلت الفهلوية وكادت تمحوها .

فقبل الفرس الإسلام عن طواحية نفس وطيب خاطر أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيماً . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام

سها الموالى ومن الدولة الأموية ، إلى مؤازرة للثخين عليها من الخوارج والشيعة ، إلى ثورة عامة ، انحلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة العباسية التى كانت فارسية فى أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، إلى سعى حثيث فى أن يكون للعرس وجود قومى صحيح .

إلى هذا الجهد الصم لموحه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام العرس بمجهود آخر رائع من أجل إيهاض لغتهم وتعميم استعمالها فى بلادهم .

لقد طاعت العربية على الفهلوية فى العصر العربى الأول طعيا ما كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة فى حدود بلخمية صيقة فى فارس وخراسان وطبرستان ، ولم يسلط الفهلوية فى ما بقى هذه من التثر بالعربية ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربى ودخلتها ألفاظ وتماثيل عربية أحاطت إلى طور حديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة . ويتنبه الشعوب القومى عم استعمال اللغة المذكورة فى تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحى من مصفها ، كما يؤخذ من قول المتنبى .

معانى الشعب طليبا فى المعنى عملة الربيع من الزمان
ولكن العنى العربى فيها عريب الوجه وليد واللسان
ملاعب حجة لو سار فيها سليمان لسر نرحمان

وقد عاون ساسة لدول الثلاث : الطهرية والصغارية والعباسية ، على أن يحولوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشدوا الشمر على المطم الفارسية ، وأسر السامانيون بتدوين تاريخ قومى للعرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرره العرس فى أسر قوميتهم ولغتهم ، فإنهم كانوا فى أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدنى بمقتار يبعث فى القومية الفارسية روحا قويا ، وشت دعائم الفارسية الحديثة ويصبها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى قومه بهذا المدد . فاشاههم يمس بأسهل عبارة وأمتع تصوير تاريخ القرس القدماء ومعاصريهم وآدابهم وأساطيرهم لذلك أضحى فى حياة ناظمه — وهذا أمر منقطع النظير — مدحة قومية ،

ولم يمض طويـل زمن حتى غدا « قرآن التوم » على حد قول صاحب « المثل السائر » .

* * *

قد أدى الفردوسي « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح نصله على قومه ولعته
بأنبا ما بقي قومه ولعته . وقد عرف له قومه هذا الفصل المذكور في هذه الأيام فأحسنوا
ذكره ، وشادوا فوق رفاته بناءً عالياً ، وهذا جهد مثوية الحى للعت . وإن الإنسان ليذكر
في هذا المقام داتى لإيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أدكى الروح القومى فى بلده ،
وحدد مسجوده الخاص دارس لعتة ، هذا ستره ، وذاك شعره .

٢ - الفردوسى

تممة^(١)

بيت فى مقال السابق الذى من أجله يكبر الفرس الفردوسى ويعدونه شاعرهم القومى فقدت إن الفردوسى نظم « كتاب الملوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأمه طبرم وآذاهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، عدد قوى ، رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع للثانية مهجاً طلت نسر فيه حق يومها هذا . والفردوسى بهذا الصنيع الخليل قد هب السيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة فى تاريخ الشرق الحديث .

ولكن ما السبب فى أن شعوراً آخرى غير الفرس تحمل بالفردوسى وتمجده ، ولم تتعاش أن تمنى ذلك للاحتفال بذكره الألفية ، وحواب هذا السؤال موضوع هذا المقال .



بعد الفردوسى عند هذه الأدب ونقاد شاعر قصصى من شعراء الطبقة الأولى ، وهو فى مرتبة هوميروس ودانتي وبلز . والشاعر القصصى العظيم هو الذى بنى مدحة أى مطبوعة قصصية طويلة قيمة حقها قومه مرة أدبهم . وحط هذه لمطبوعة من الديبوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع موضوع اختراع وتخييل تخيلاً ثم أفرغ عليه بعد ذلك حنة من بلاعته وقوة تصويره ففى ملحمة محدودة الديبوع ، بقيل على قراءتها خاصة الأدباء والناقدون وأئمة الأدب فى الجامعات ومن هذا الصنف « السكوميديا » لدينتى « والحلمة المفقودة » لىس . أما إننا ألب الشعراء موضوعه من الحكايات الشائعة فى قومه ، وأساطيرهم التى يعتقدونها ، وأحاديثهم التى يتعمون بها نذكر

(١) - تضمن هذا البحث الذى ألقاه بالجامعة الأمريكية فى مؤتمر الذكرى الألفية لفردوسى انعقادى طهران سنة ١٩٣١ . وهو بحث الوحيد الذى ألقى فى ذلك المؤتمر باللغة الفارسية ، وكان عنوان البحث « القصيدة الأدبية للشاهنامه » .

ما احتجب عليهم من الأحداث ، ثم عرّض ذلك كله عرصاً شعراً قوياً مليحاً ، وكان في ذلك فيلسوف المطرقة يدول أضاء من ثمار انخاض فيصور العلم وهو يصو قطامة منه محدودة ، ونصف الطبيعة البشرية ، هو نصف قبيلة ومعشرة ، ويتبدون الرمن وهو يتناول راحة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب المحدثه الديوع والخفود وسرعان ما يحل الحديث الموق للحكم محل القديم معتر لمفرق ، فتسبح للمحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور هالها ، وعلى مر الزمن تعدد المحمة من حدود المحية والإقليسية ونشيع في أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أنزاً أدبياً عالمياً وأشهر ملاحم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامه الذي نحن بصدد الكلام عليه

وشاهنامه يسرعي اهتمام غير واحد من خاصة المثربين ، فاللهوى يطالع فيه صدمة واحدة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعي يجد فيه عوفاً على تصور مجمع العربى القديم ، وسرعة أخلاق القوم وعدائهم بمواضع منها ، وهي بالأساطير القديمة يتنوع به انتفاعاً في دراسة نيولوجيا الإيرانية ومقدرة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منه صورة محلة مقدس الإبراهيم عندما ، ومؤرخ المسيحية يرجع إليه دراسة التيم الفارسية القديمة ويعد فيه صدى قوياً لمداقة الفرس عن حاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفن الذي تستهويه بلاعة العذرة ودقة ممدى وقوة التصوير يرى في الشاهنامه مثلاً علياً لكل ذلك فامردوسي مخرج في سماء البلاعة حتى يسمى النجم ، وهو في الوقت نفسه يحطّط الناس بملوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصف مدع ، إذا تصدى لوصف وقعة حربية أراك ميدان القتال ، وحلا على عيبك ما يلقى فيه من كره ، وهجوم ونحير ، وأراك السيوف تنم ، وأرماع شرع ، وتمتلك مصول الحكمة ، وصهيل خيول ، وأنبى الحصى ، وصوتك ظفر العالب وهزيمة المفلوب . فإذا تنقل إلى وصف مجلس من مجلس المدعة والأنس مثل لمينيك أسباب السرور . ودواعيه ، وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع في المجلس من صفاء النفوس ، وتحروب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، وبلة العاشق ، ووقاء الزوجة ، وإحلاص الصديق

لقد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجليل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما .

* * *

على أن الناحية الأخلاقية من الشاعرية ، هي عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخاً ، ولا إلى إظهار بلاعته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كاتبه كتب أدب وحكمة وتهذيب ، يحفظ ذلك في الجانب التعليمي من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكاً جميعاً طريق الحقيقة وحيناً طريق الخمر . ويحفظ ذلك القصد أيضاً في حلوه الشاعرية حلواً مطلقاً من الألفاظ والمعاني التي يسمونها الأدب والدوق سليم . بهذه المزية يصبح «قول بأن» كتاب الملوك» كتاب يتألف عظمته الناس في كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت «الإلياذة» تسمى حيناً عاطفة الحياء والمهيب للحق ، وفصيلة الإبرار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت «كوميديا» ذاتي تعرفها بطريقته الرمزية أى أساليب الحياة يؤدي في الآخرة إلى الثواب وأنها يؤدي إلى العقاب ، وإذا كانت «الحمة المفقودة» تقوى الروح الديني في نفس القارىء ، فإن الشاعرية يرى إلى تهذيب النفس وتكثيرها .

وفلسفة الشاعرية الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذي يحاط صمغاً النفوس وحبوة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يعتمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استحکام أسباب العزة والجبروت في مظهر النفس والافتقار إلى عون الله ومدده مساعدة منه في توكيد ضرورة الإيمان في الحياة ، ورعة منه في كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شررة القلوب العاتية . ولتمثل لذلك من الشاعرية . فعند ما خرج الملك (كيجسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لقتل ابنه (سيا وحش) جعل يدعو الله تعالى أن يصرفه على عدوه يقول : الشاعرية^(١) : « وبعد ذلك اعتنق كيجسرو ودخل متعذراً لهم ، وجعل طول ليلته

يقصرع إلى الله تعالى ويتهل ويسرع حذو بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويستعين به عليه ، فقطع بيلته تلك بالسحود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه من وجهه وأعيام طلاله رجع إلى الله يستعينه ويستهديه » يقول الشاهنامة « فاعتزل ذات ليلة وأخذ كتاب الرند وغلا نفسه في مكان حال ولم ير طول ليلته ساعداً لله تعالى يبكي ويتصرع إليه سبحانه ويقول : « إن هذا العبد الضعيف ، الموضع الجسم والروح طاف لذي ، فسلك رمالها وقدرها ، وقطع حبائلها ونحرها ، طاف لأفراسياب الذي أت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك غير الحق دماء الصاد ، وأنت تعلم أنني لا أقدر عليه إلا بمولك وقوتك ، فكفى مه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، صرمتي عنه ، وأحق من قابي باثرة عداوته وقف بنى على سواء الطريق والهج القويم » . وعهد عمر لتاج سمديار وأمهاده في طريق « هفتخوار » الوعر الشاق ، ووجد ذلك النمل الموار معه أمام قوة لا يقتل له بها ، لم يسهه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى ، فتقول شاهنامة : « فبناهم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، وشأت سحابة أرقق وأرعدت وأطلقت عليهم ثلاثة أيام بيااليها ، تهيل عليهم النج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسمديار . وقال : قد اشتد غيب الأمر وليس ينصنا الآن رحولة ولا قوة ، والرأى أن نلجأ إلى من لا مانعاً منه إلا إليه ، فبه الكاشف للصر والقادر عليه ، فاحتضروا ورفعوا أيديهم وبضرعوا إلى الله تعالى مبتلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكت اهواء وعلت السماء »

والأصل الثاني من أصول الفلسفة الأدبية « لكتاب الملوك » القيم بالواجب ، والشاهنامة يعنى بهذا الأصل الذي هو قوام الحياة اليومية أهم عدية . فاعظم ملوك الشاهنامة أفومهم واجبه ، وواجب الملك في رعيته العدل ، والحلم ، والسحاه ، وترك الاستداد . فإذا ما حاد الملك عن هذا المس « حمت الأبواب في الصروع ، ولم يترج المسك في الوافج ، وشاع الزنا والر « في الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالبحر الصلد ، وعانت الدناب وصربت بالإس ، وتخوف ذور العقول من ذوى العوية والجهل » . وعهد كسرى أبوشروان لانه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التي تنص صراحة على ما يحب على الملك بمحوه ونحو رعيته .

و بطولة أبطال الشاهنامه تنقد إلى شعورهم القوي الواجب أنظر كيف لي رستم
 طلب (خيبر) إغاده (ييتر) وكان أسيراً مغلولاً في مطبوعة مظلمة بأرض طولان .
 وقوله له (لا تهتم فإني لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيد ييترن وضعها في يدك)
 و نظر حطاب حيوانه لك كبغضرو (أيها الملك إز أي ما ولدني لا بطاعتك ، وتحمل
 المكارة فيها هو سب راحتك وهذا أشد وسطي في امتثال أمرك ، ولا أصلاً إلا سدل
 خدمتك ولو أطر الهواء على ماراً ، ونحويت لأشعر في عبي شعراً) (قول (اكشهم)
 لييترن وهو يعود روحه (أيها الحبيب النابج لا تحمل على نفسك كل هذا ، فإنه أشد على مما
 أنا فيه . واسترح راسي بترك ، واحتشد في حملي إلى حصرة ملك ، فإن قصاري بقيت ،
 وغاية أمتي ، أن أنزود منه سطرة ، وأقر عبي مقلته ولو لحظة ، وبدت بعد ذلك مت
 وليس في فني حسرة ، فإني لم أولد إلا لصوت ، ومن أدرك أمه فكأنه لم يمت ، وأيضاً
 تحتهد فطعك أن تحمل هذين العدوين اللذين أهدسكهما الله على يدي إلى المعسكر ،
 وإل لم تقدر فاحمل رهوسهما وعدنهما حتى تعرضها على الملك ، ليم أي ما هسكت في
 غير شيء) .

وروعة شخصية المرأة في شاهنامه تقوم على وفور حطها من الأثونة والوفاء لزوجها ،
 يدل على ذلك روح (شهينة) على اسمها (سهراب) ووفاء (متيرة) لزوجها (ييترن) في
 محنته مع أن أباهما كان المسلط على عدايه .

وكما تفرض الشاهنامه القيم الواجب من حيث هو قصيدته أساسية للحياة الفاضلة فإنها
 تدل بالأمانة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدي الواجب . فينبغي أن يؤدي الواجب على
 بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق وصبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل
 على ذلك من الحوار الذي دار بين بطلي الشاهنامه (رستم) و (أسفنديار) عندما اشتد بينهما
 اللجاج وحى الخصام ، فهو حوار يرم عن سل خلق وسراوة نفس وقد بلغ من دقة حسن
 العردومي ورقة قلته أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ، وبوكان حيواناً أنعم أنظر بأي
 قلب وأية شمائل يحاطب رستم العرالة التي كان طرده لها سباً في وقوعه على عين ماء روى
 منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يحاطبها بقوله : (لارلت يا عرالة الريف ، تفيثين إلى

لظن الوردى ، وتكرمين في الزلال المعين ، وتقلبين بين الورد والياسمين ، وأبما قوس
راعك أياصه ، فلا رلت متقطعة أوامره ، فإنك سددت رمقى وشفيت علقى » .

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامه الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحننا
في غير موضع من كتابه على أن سقى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والصغية . يقول رستم
لأسفنديار : « ... وطهر قلبك بمصيلة الرحولة من دس الداء بدفين » والفردوسى لا يكتفى
بأن يمدد قارئه إلى طاهر قلبه ، بل لقد يتولى هو نفسه ذلك مستخدماً طريقة
العرض الدرامى التى مدخلها في أكبر الملاحم والقصص مدخلها في آثار هوميروس ،
وسموكليس ، واسجيلوس ، وشكسبير ، ومنى ، ودستويفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر
إلى حادث رائع مقطع ، فيمرسه عرساً في قلوبنا ، فيهر بذلك قلب القارئ ويحسسه ،
فيكون ذلك منه بمنزلة لدواء المرتهج المريض على بعض ، ولكنه تكون فيه سلامته
من عنته ؛ وقد نال الفردوسى أسلوب هذه الطريقة أسما عايت الفن ، وأتى من رائع القصص
ما يشعف القلب حسه ، ويسحر القلب بيه . اطر كيف يمرض قصة قتل رسم انه سهراب
على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاهنامه : « . ثم نادوا الحرب ، وتطاعنا حتى انتشرت
كهوب رماحهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتصارفا ، وكان البار تخطر من سيوفهما ،
ولم ير الا حتى تكسرت سيوفهما ، فذا أيديهما إلى عموديهما ، ورفعهما ، وحملتا يتصارفان
ويتقرعان حتى غرقت الأذراع الموصولة على أكتفهما ، وتقطعت لتخفيف على خيلهما ،
فصفا ، ووقعت دوايهما ، وبقيتا من العرق عريتا ، ومن المعطش محترقتين ، فوقف الأب
من جانب ، والأبن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فيا عجا ! كيف اسدت
دوسهما أبواب الثعارف ، ولم تتحرك سهما عروق الساسب ؟ والإبل مع علط أ كبادها ،
تسطف على أولادها ، وطيور في حو السماء ، والحيثان في قعر لاء . لا تتذكر أولادها
وأقرحها ! والإبن من « ط حرصه نحى عليه قلبه كنده ويستسكر فرة عينه ولا يبرع
إلى ولده ! »

ثم يقول رستم : « لم أر قط قتلاً بهذه الصفة ، ولقد اقطع رجائى من رجولتى » فإذا

ما استنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يحل أمه أمه : « بنى أرى أن يجمع الخوثن ،
وطرح السيف ، وكف عن القتال ، فإن قلبي يميل كل الميل إليك ، وإن وحي لي عمره
الحية منك » ولكن بجيت رجاؤه ، ويعود الأب واسه إلى الدررة ، فيتعجب الأب
ويصرع اسه ، ويختم على صدره ، ثم يدحجه دحجاً ، ثم يسبي له ، وقد سبق السيف العدل ،
أنه إنما دحج اسه ، فليشق حية ، وصر صصره ، وبتفت شعره ، ويدب ولده ،
ويحاول استنفاده من رزق الموت فمحزوه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن في
صدر رستم ، ويصبح من فرط العذاب . « من الذي أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذي
لحم بمثل ما به جفت ؟ قتلت ولدي حين شاب رأسي وانقصى عمري ! »

إن انتقضى ليتبع مشاهد هذه الفضة وقية يتوثب في صدره فرقاً ودعراً . فإذا بلغ
الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمه أمي وحزناً . وهذا الذي قصد إليه الشاعر رعدة منه في
أن يتمكن فيه بما تطلق الحنو ورحمة

ولا يقف الفردوسي عند هذا الحد من تصوير قلب قارئه ، بل يتعهد في أن يروض من
نفسه ويكبح من حماها ما أن يحلو لها تقلب هذه الدنيا ، ويصرف أحوالها ما من تصرفاً قد
يسوء صف الفؤوس ، ولكنه لا يزال من ذوي الفؤوس القوية مبالاً ، وهو على عادته يصعد
إلى أقوى شخصياته فحتمها مبال فلسفته رامية بذلك إلى أن تأخذ الدنيا كما هي فتمرح بها
إذا أقست في غير اعتزاز بها ، ولا تأسى عليها إذا هي أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية
اترجح فلسفة الروقيين الذين يريدون أن يتعبد من المحاطة لحظة ، فلا يفرح ولا
يحزن ، ولا يحصب ولا يعتب . انظر كيف نصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب
الزمان له ظهر الحزن ، وتحمم له وجه القدر ، قال أمره إلى أن وقع أسيراً في يد رجل عابد
فشد وثاقه واضطربه إلى أن يحاطبه بقوله : « أيها العبد ! ما تريد من رجل اختفى في معارة
صيقة ؟ » فلما عنقه العابد على ما احتجب من أوزار كان : « بهذا حررت على أقلام قصاء الله
في الأزل ، ومن لمصوم في هذه الدنيا العذارة من الزلل ؟ » . ثم إن مصير الملك دارا
واعيين عبيده له تقر ما يدمه إلى الإسكندر ليحرق بحري حديث أفراسياب من حيث
الدلالة على قلب الدنيا ، وهي تزيب الفردوسي حبريا يرى أن الإنسان لا يمتد لنفسه مع
القدر مما ولا صراً .

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فخليق بالماقل أن يرفضها ويرهد فيها والزهد في الدنيا هو الأصل نراعى من أصول فلسفة الشاهنامة الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً في صرف قلوبنا عن أن نقتنى بالدنيا ولكن في غير إحلال بالواجب الذى يعرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تصويره الحال المنوبة للملك كبحسرو عندما انقضت معه ، وأرمع لتحتل عن الملك ، ولذهب في الأرض ، فقد عهد إلى الله ، وودع أكار الدولة « ثم سار وصحبه رموس الإبراهيمين إلى أن صعد إلى جبل ، فقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج في أثره أساء الإبراهيمين ورحلها رهاء مائة ألف نفس ، ييكون . يصحون حتى طر بصياحهم وعو بهم السهل والجبل ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكار واددت بالانصرف من ذلك المكان وقال إن أمامنا طريقاً لا ماء فيه ولا عشب ، فبصرف دستان ، ورست ووجوده ، ولم يصرف عنه الملقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فربوا هناك وقال لهم الملك : قد طلعت الشمس عدأ حال وقت المراقبة ، فأتوا منهم عبد الدين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام للملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « يا شبح غداً يمد عليكم لطفى فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس كب الملك ، وعاب من أعينهم »

وحديث الإسكندر الملك الشاب الفتح الطموح مع أهل مدينة البرعم المنظمين عن الدنيا ، والرايين منها بأيسر أمرها رى إلى أى حد يذهب الفردوسى في تقرير فلسفته القاعة على المزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت لفرض السبب في تقدير غير الفرس لفردوسى ولشاهنامه ، وأحن هذا البحث بأن أثبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامة إلى العربية الفصحى في أوائل القرن السابع الهجرى^(١) ، وأن الشاهنامة قد نقل إلى أشهر اللغات الأوروبية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم في غاية الدقة والعناية والإتقان .

(١) وقد نشر بعض الدكتور عبد الوهاب عرم هذه الترجمة شرحاً علمياً محققاً ومن هذه الترجمة اقتبسنا النصوص الواردة في هذا المقال .

سيرة أحمد بن طولون

لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي^(١)

هذا عمل من سيرة مؤرخ مصري من أهل القرن الرابع فخرى هو أبو عبد الله
ابن محمد المديني البلوي وضعه في سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو
الأمير أحمد بن طولون مؤسس دولة الطولونية شهيد . وقد انقشت مخطوطة هذا الكتاب
من مصر إلى الشام في سبعة أيام كات مصر والشام تؤمن مسكا واحداً ووطاً واحداً .
ثم استقرت في دار الكتب الطاهرية بساق ، إلى أن قبض الله لها مؤرخ البعثة الأستاذ
محمد كرد علي بك فمضى عنها إلى الجول والسيل ، وأرسل من فوره قيمتها العسبة ، فمكف
على إعدادها للنشر ، ثم عرضها للناس في معرض غني فثيب . فكان ذلك الجهد منه وهو
في شيوخه لمباركة خير هدية يقدمها إلى مصر التي رعتة ومما في صبه . وصدر شانه ، كما
كان مثلاً جليلاً من أمثلة الوفاء وندية الأمانات إلى أهلها وفيه فوق كل ذلك إشارة
لطبيعة إلى اشتراك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بذت أشرارها ، ودوت في اندفاعين
بدرها ، فلم يحتفل الأدياء والمؤرخون بظهوره كما كان ينبغي ، وشعلوا عنه عا شعل به الناس
عامة من أهوال الحرب ومخطوبها . فكان ذلك الإهمال الذي لم يتمدوه من بعض ما ياهات
به الحرب الحاضرة من إنهم ، واحتفت من أوارار .



وتعتبر سيرة أحمد بن طولون لبلوي بحق نصاً من النصوص الأساسية الخاصة بالدولة
الطولونية تصم إلى المصادر القديمة التي وصفتنا في هذا الموضوع المام ومعنى بها سيرة أحمد
ابن طولون لاس الذاية المتوفى سنة ٣٣٤ ، وقد وصفتنا ملخصة نفم ابن سعيد العربي ،

وكتاب « السكافاة » لاس الذاية كذلك ، وكتاب ولاية مصر وقصاتها للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ ، وأحمد بن سبويه نصرى الحسن بن رزلاق متوفى سنة ٣٨٧ ، بل إن سيرة البوى تعد تقدمها وتسبقها إناى أهم مرجع لريخ لدولة طولوية شرف حتى اليوم .

والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يشتمل على مدخل بقلم الأستاذ لادشر صمحه الكلام على مؤلف وزائمه ، وعلى أصل المخطوط الذى طبع منه الكتاب ، وعلى أحمد بن طولون كما صور البوى . ثم على ذلك من الكتاب ويقع فى ٣٣٠ صفحة متوسطة ته ولى سيرة ابن طولون من أول سره إلى وفاته . ثم على من مهندس صافية ، وحدول تصويحات لأخطاء وقعت فى الكتاب أثناء طبعه .

ومن يقرأ « سيرة أحمد بن طولون » للبوى فراءة بحث وتحقيق ، معرض له أمور هى محل النظر من غير راع . فأولاً من هو البوى الذى ينسب إليه وضع هذه السيرة ؟ يجهز الأستاذ كرد على بك فى مقدمته مستنداً إلى أن القديم والطوسى والدهى وإن حذر أنه فقيه عربى الأصل يحدث عاش فى أواسط القرن رابع الهجرى ، وأنه كان شيعياً إمامياً ، وربما كان إسماعيلياً . وأن مؤرخى رجال الحدث من سنيين وشيعه يرمونه بالكذب ووضع الحديث . فإذا صح أنه شيعى فما الذى حدا به أيا كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركى سى متشدد فى سببته ؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يسر عطفاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على نشيد دولته ، وأنه كان يكتم هذا الطاف بنية منه ، فأحب البوى أن يحزبه عطفاً معطف ، فكتب سيرته . وعن محالب الأستاذ الخليل فيما ذهب إليه ، فليس فى سيرة أحمد بن طولون ما يستعد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة ، وخاصة الإسماعيلية ، ويرعى فى اصطلاحهم ، بل إن فى سيرة البوى بصورة صريحة فى شدة ابن طولون على العلويين والطالبين . من ذلك قوله علواً اسمه ما المكبر ثار عيه^(١) . وتمكيكه بان الصوفى وهو طائى بث عليه ثورة كبيرة بالصعيد^(٢) . ويروى الحقونى أن ابن طولون أخرج الطالبين من مصر إلى المدينة ، وسكل

واحد منهم لأنه تخلف عن الخروج^(١) كما يذكر الكندي أنه لما عصب أحمد بن طولون على حيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس يلبس اليسا إعلاناً منه غيلة إلى الشيعة^(٢).

هذا من دعوى عطف ابن طولون على الإسماعيلية أما الإسماعيلية النورية ، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجاني - وهو الحقبة الثنت في تاريخ النشيع - أن الأصول القديمة لم تشر إلى دعونه للإسماعيلية ، وأن صاحب الفهرست قد حط بين الداعين إلى المذهب الإسماعيلي والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة^(٣) بقى أن يقاس أن النورى كان إماماً المذهب ، وهو مذهب إليه عالم آخر بتاريخ النشيع هو الأستاذ إماموف^(٤) . فإذا صرح ذلك فلا حرم أن تشييعه لم يعطه كثيراً ولا سيما في ذلك العصر عن هدى السفة والجماعة . ويمكن إذن أن نعلم إقدام النورى على وضع سيرة أمير ترقى سى

ولحق أن النورى إنما صنف سيرته لا ليرضى برعة مذهبية خاصة ، ولكن ليدعى قس كل شئ - ميوه لأدبية ، فهو أدب تاريخ قوى كونه وعطو وفتية وعسا كما وصفه ابن النديم . رأى في سيره أحمد بن طولون - وأحد رجاله - لعلم للإسلامي من نصف الذي من القرن الثالث عملاً بعهده وبنه . وأي مادة لمحت منوفه له ولا مدون بده ، ورأى في الوقت نفسه أن السيرة التي حررها ابن الداية ممبسة من الوجهة الفنية ، فسمت به همة الأديب أمتر . إلى أن كتبت هذه السيرة على عوامتها وأنى وأهل بحسب في سيرة ابن الداية . وقد صرح بمرصه هذا في مقدمة السيرة حيث يقول :

« .. وأنت قرأت كتاب أحمد بن يوسف ثم تكن موقعه ملك العرص الذي إليه ذهبت ، ولا المعنى الذي له نخوت ، وأنت تريد ما هو أكبر منه شرحاً وأكبر وصفاً ، وأن أحمد بن يوسف كان يمر في شرح قصة نهم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يحلط أخباره » إلى أن يقول : « وقت ما هكذا أرتج لباس الأخبار ، ولا عليه نظم الآثار وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ »^(٥)

• - •

(١) الكندي في هامش من ٦٣ من السيرة .

(٢) السيرة من ٣٦٥ .

(١) سيرة هامش من ٦٣

(٣) السيرة ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٥) السيرة من ٣١ - ٣٢

وتم مسألة أخرى ، وهي مدى العلاقة بين كتاب الملوك الذي نحن بصددده وملخص
سيرة أحمد بن طولون لأن البداية كما هو ورد في كتاب المغرب ، من سعيد وكما نشره
المستشرق فولر سنة ١٨٩٤ ، أن الشبه بين الكتبتين قوى جداً غير أن كتاب ابن البداية
موجز ، وكتاب الملوك مفصل ويخوض بعض رداه في كتاب ابن البداية .

بطل الأسس كد على ذلك هذا الشبه المريب بين الملوك على طول ابن
البداية (المفقود) ويقف قصته غير حسب رفقين ، علمه ما ته على ذلك ، أن قيصة
له مؤلف آخر هو في الدين بقدرى فقط على كنهه ومضى قد لا يكون عجيب كل
المحب أن هذه مؤلف من القرن التاسع عشر على مذهب من أهل الفن الرابع ، هذا العجيب
حدا أن يسطر الملوك وهو من أهل القرن الرابع عشر على من لديه وهو معصر له ، ولعل
الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فبإحدى تلك الشبه العجيب مد يد إلى بره الأستد كد على ذلك ، وذلك
أن كلا مؤرخين فيما حقتد استمد كتابه من من مصدر لدي استمد منه الآخر ذلك
المصدر هو ديوان الإيلاء المعري .

لقد حمل أحمد بن طولون للرسائل ديوانا تحت فيه الكتبتين من أن يجرى الكتفاب
وعرضها عليه^(١) وأعين النص أن ديوان الإيلاء . كانت تحتفظ فيه سوى رسالتين الرسمية
مخضرة بحسب أن طولون بعد عرضها عليه كذلك

يسأل على ذلك أنه كتاب استكماله ، إلى حيث كانت حيز عو أو على فانظر
كل ما يجرى من بين من يخاصي من كان من الناس من صغير وكبير ، ما كتب خطابه
وحوائف ، وخطاب إياه وحوائف لي ، وعرضه على ما هشي^(٢)

وربما كانت تحتفظ في ديوان الإيلاء رفاعة التي كان يردها إلى الأمير كتبه
وعبدانه وصحب أحباره . من ذلك ما حدث به سيم لحادم قال : « كان أصحاب لأخبار
يرفعون إلى مولاي رفاعة في أنوم تكون سببا لأصطفاه . وفيه^(٣) . ومن ذلك ما حدث

(١) البيرة من ١١٢ .

(٢) البيرة من ١٠ - ٢٠١ ، من ١١١ - ١١٢

(٣) من ٢٢٤ .

به أحمد بن محمد الكاتب من أن أحمد بن طولون بده مرة لخصور مجلس جماعة من
المعروفين عن الأمان وتدوين كل ما يجرى منهم ، فصل بأمراء ، ورجع إليه تقريراً بكل
ما حدث (١) .

وللدليل على أن سجلات : ان ثلاث : لمصرى هي المجلد الأول الذى سهل منه ابن
الداية في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » و « الحكوة » ، وسهل منه البلوى في « سيرة
أحمد بن طولون » أن الكتب المذكورة تحتوي على نصوص مراسلات رسمية جرت بين
أبن طولون ووفق ، و بين ابنه « عباس » الذى عايه ، وأن تلك الكتب تنشأه في
الأخبار المشتركة بينها نشأها جميعاً في اللفظ والمعنى والأسلوب ، وأنها تتردد فيها نعمة واحدة
هي نعمة لإشادته بمحمد بن طولون ومناجاة ، والتماس العادى لأفعاله التى كانت تصدر
عن حدة مزاج تملح أحياناً ، ملغ القسوة والوحشية .

• • •

سكنى هذين المسألتين اللتين أنارتها قراءتنا مقدمة الكتاب ثم به بعد ذلك
على هاتين وقعت في متن الكتاب وحوشيه ، ولم نجد لها تصحيحاً في جدول التصحيحات
الوردية في آخر الكتاب . من ذلك « الطمرغ » في ص ٣٣ براه مهمة مكررة . صوابها
« الطمرغ » برأى مصححة مكررة (٢) . وفي ص ٨٩ « محمد بن علي بن غم الأرمي » صوابه
« . بن يحيى الأرمي » (٣) . وقول المتن في ص ٩٨ « وبلغ لم كل ما أحبوه » تعدية
الفعل « باللام » وقد تكررت هذه العدة في ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، والفصح مدية بالهاء
كما ورد في ص ٢٧٦ وحاء في المتن في ص ١٢٧ « منديل الصل » وعلق الشارح على
ذلك في هامش الصفحة بقوله « لأقرب منديل » ، والعمر ربح اللحم » ومباراة المتن هي
الصحيحة ومساها المنديل الذى كانت نصره الأوراق الخاصة بالأموال وحسابها . وقد
ورد فقط « العمل » بمعنى « كشف الحساب » في مواضع عدة من الكتاب . من ذلك
قوله في ص ١٦٣ « فان : فأحضرنا بها عملاً معصلاً ... فقال ما اعتدى لها عمل بتفصيل ...

(١) السيرة ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٢) انظر كتاب صورة الأرمي لابن حوقل ص ١٤ .

(٣) سيرة ابن الداية ص ٢٤ والطبرى ملغ أوروبا المجموعة الثالثة ص ١٤٩٤

وأخرج من حقه عملا وماوله الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حمل إلى بيت المال عن هذه الصياح « ولفظ « القصصيين » و « القصص » الواردة في متن ص ٢٠٦ وهامشها بالقاف المشاة صوابه بالفاء الموحدة ، ونحو القصص التوحيد ورد ذكرهم في شعر المتن وأحار سيبويه المصري وشعر أبي العلاء لمعى^(١)

وجاء في المتن في ص ١٧٥ « فلما توسطنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأرسلهم كتابا لؤلؤ وعرفتهم أني داهب إلى الأمير » وفسر لفظ « الأرباع » في الهامش « بالمارل » وهو تفسير لا يناسب السياق . والأرباع هنا أرباع حند الشرطة أو الجيش أي أقسامهم . وقد كان حند الكوفة زمن بني أمية مفسدين أرباعا وحند البصرة أحماسا^(٢) وأصحاب الأرباع والأخماس رؤساؤها .

وسيرة أحمد بن طولون الملوكي هي تاريخي هم كما قدما ، استمد من مصادر قديمة استمداداً مباشراً فهو من ناحية يتقيم سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فربما اتده أسره وتنقله في معارج الرقي إلى أرفع غاية قوته ، ثم استعمل أسره وأقول بحقه وهو في حلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة فيما يصور لنا هذه غريته وقوة إرادته وسناده واقتداره المعيب على العمل الفاضل وتمهد كل صغير وكبير من شئون دولته ، إدا به يلح إلى أن إفراطه في ذلك كله كان السبب الأول في هساد أسره وتصعد سطرانه ، ولا يمدد من حين لآخر أن يصور لنا ناحيته الإنسانية فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محمداً لسباع الغناء ، حم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح للحواب المنع والسكنة اللطيفة ، وأنه في الحمة أحياناً كان يمدح من جلد المارد الجبار ويلبس إهاب الإنسان الواحد العظيم .

والكتابات من ناحية أخرى يلقى صوءاً على حياة مصر العامة في آخريات القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يتبين الشيء الكثير عن نظمها الإدارية

(١) انظر الرائية التي رثي بها المتن محمد بن إسحق التوحى وأحار سيبويه ص ٤٧ وسقط الرد ص ٣٣ - ٣٤ من طبعة بولاق

(٢) الطبرى طبع أوروبا : القسم الثاني ص ١٣٩ ، ص ٢٤٠ .

من حراج ومعاون وقصاء وريد وجاسوسية . كما يبين أحوال الجماهير وأرباب الحرف والصناعات . وأوسع من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصري المرح الذي لم يعجبه أن يترعه متحير نأخذ بمحققه مهما يكن عادلا وحيرا . بصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على الثورة التي بعثها نفر من كبار المصريين برعاية العاس بن أحمد بن طولون والتي أيدتها الخلافة العاس من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقى صوفا على الدبلوماسية الإسلامية في الحقة المذكورة ، فهو يبين حال الخلافة العاسية لذلك العهد وانقسام الدولة الإسلامية إلى شرقية وغربية وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وعالمها الأقوياء بسلطة المركزية في العراق .



والكتاب يعد تحفة أدبية رائعة يحد فيه مؤرخو التاريخ ومن يدرسون الأنماط والأصناف العربية مادة غريزة حديرة بالبحث والدرس .

من مواقف البطولة الإسلامية

في القتال*

إن من يطالع على تاريخ الحروب التي وقعت بين العرب والروم في أواخر القرن السادس الميلادي، أوائل السابع، يرى إلى أي حد كانت هذه الحروب راحمة إلى السموات والأهواء الشخصية، مشوّت الأكاره تارة والقيصرة أخرى، وإلى أي حد كان يحسدها حب لعن والسم والسم، وإلى أي حد كان يدكي أوارها حب المشي والانتقام، وإلى أي حد كان يصاحبها التحريب والتدمير، ونقص اليهود والموثيق فاشهوة، والعبيبة، والانتقام، والحريب، والعدو، كن أهداف تلك الحروب التي كادت تنترك روع المشرق والمغرب حرايا يباباً.

ولعجب العاجب أن هذه التقاليد لمشنومة استمرت في العرب الذي يدّين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، وأصله لم يحل منها حتى يومنا هذا. ولتمثل لذلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشر طولها الأذنان، وبما صعد به سكان الكاثوليكين الأسمايين دسداً وإبرلا، على غرابة عداء أسلافهم على عاصمتهم صالحا، من نقص لليهود لمؤكدة، والموثيق لمعطة. والحروب المروعة في التاريخ لأور في الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية، وأخيراً بما ارتكب في الحرب العاسة الأخيرة من تحرب وسمير كان حكامه لقاء القنابل الذرية على مدن اليابانية، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين، عدراً وعباً وعدواناً.

وانصرفت صفعاً عن وصف الحرب في المصور الوسطى عند انقضاء الحروب الحرامية التي قصت على الدولة لرومانية، وعمرت أورما في ظلام دامس طول ألف سنة تقريباً، وعند النفر الذين قصوا على الدولة العاسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية في المشرق، فقد يستدر

عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم عجزت لهم حصاره الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدينية أوربا وأمريكا في القرن العشرين .

وسكن كم لحواذث الترخ ونصارى من أسرد حرص هذه ولا يرالون بحرصون على اكتسابها ووقوف عبيد ! وكم لله من طيب حتى حارث في كسبه الأثماء في وسط هذه العيىب المدلومة والطامت حركه نزع شمس الدعوة الإسلامية ، فبدأ الحرب المشروعة هي المبرهة عن شهوة سلطان ، وحب لمعلم والسمة ، وللمرأة من عوامل العذر والحيدة والاندرا ، وإذا بها تصدم من بطن العمران ، به يكف الظلم ويقمع لصعيب ، ويسلم من الفساد وقد عبر شوقي عن كل ذلك في قوله بحطاب الرسون العربى

الحرب في حق لديك شرعة ومن السموم الدفست دواء

وإذا هذه الحرب المشروعة تسمى جهاد في سبيل الله ، أى كسبه لإزالة كلته بكل ما شتمل عليه هذه الملاء من معان المدلة والإصلاح في الأرض وتحقيق المثل العليا وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به المد إلى الله بعد الإيمان به حالى وسعد بز الوالدين ، وإذا المجاهد إحدى الحسين إما الطغر وبما الشهادة . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون »

كانت هذه المبادئ أساساً جوهرياً من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعموا بها في حروبهم فلا عرو أن جعلت هذه الحروب بذكر لأبطال ومواقف البطولة الصمحية في القتال وعن يورد فيما يلى ، على سبيل امثال لا الحصر ، بعضها من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجهاء

١ - أبطال

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فخرج الناس على القتال ، وقال : « لا وادى بمسى يبد ، لا يقاسهم اليوم رجل فيقتل صبراً محتسباً مقبلاً غير مدر ، لا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن حمام من بنى مسلمة ، وفي يده ثمرات يأكلهن : « مع ! مع ! ما بقى بينى وبين الجنة إلا أن يقتل هؤلاء النجوم ! » ، ثم قذف بالثمرات من يده ، وأحد سيمه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفاً هزاه وقال : من نأخذ هذا السيف بحقه ؟
فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا أحد بحقه ، فأعرض عنه ، ثم هزاه التيبة وقال :
من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذ بحقه ، فأعرض
عنه ؛ فوجدوا في أنفسهم ثم عرصه الثالثة وقال : من نأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه
أبو دحابة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تصاب في العدو حتى ينثني ! فأخذه
منه ، وأعلم نفسه بمصدة هزاه ومشى إلى الحرب ، وحسن يديه حتر بين الصعين ، فقال الرسول
« إنها شية يمسها الله إلا في هذا الموطئ » ! ، دخل أبو دحابة في الحرب مبتدئاً بالقتل ،
فأبلى وأنكى .

وما استدل به القمء على حوار المأذونة مع التمرير ، فمما ما حدث في حرب الحندق
إذ برز عمرو بن عبدود فارس قریش ، فحده الحديد ، عدداً إلى البرز أول يوم ، هم يحبه أحد .
ثم دعا إلى العز في ليوم الثاني ، فلم يحبه أحد . ثم دعا إلى العز في يوم الثالث . وحسن
يعبر إلى سر إحداهم عن مباراته . فقام على من أتى طاب فاستدرك رسول الله في مباراته ،
فأبى له على حسنه به ، وقال « أخرج يا علي في حنط الله وعيده » ! فخرج فجدولاً وتذرت
مخاضه أحفهم عن لأصار ، ثم نحت عنهما وبني يمسح سيمه شوب عمرو وهو قهيل .

٢ — القفو عند المفرة :

د قصت قریش هدة احديبية التي كانت بين رسول الله ورسول ، عزم الرسول على
عزها وفتح مكة ، وذلك في رمضان سنة ٨ هـ فخرج من المدينة في عشرة آلاف وبعث قریشاً
على غير استعداد ، فم يسع ساداتها وكبراءها إلا أن يمددوا إلى أحد لآمار لأفهمهم ولبلهم ،
وقد أعظم الرسول هذا الأمر بعد أن سلموا وبهي الحش عن أن يقبل إلا من قاله ،
وقال في تأمير أهل مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن
حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أعلق عليه بانه فهو آمن » ودخل
الرسول وحيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واحتجعت قریش إليه عند الكعبة
معلقة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم عليه السلام فقال « يا معشر قریش ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

فقالوا: «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم!»، فقال: «ادهبوا فتم الطلقاء!»، هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التي كدته، وآذته، وأحرقته وأحماه، وباوأته أكثر من عشرين سنة! فصر بذلك أروع مثل ثمم ولعمري عند القدرة

٣ — طالب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أحمو عمر بن الخطاب من قتل في وقعه بمامة، جدى وفتح حرب الردة، وذلك سنة ١١ هـ رجع الناس قال عمر لاسه عبد الله، وكان معهم: «ألا هسكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حي! ألا دارت وحمك عي؟ فقال عبد الله: «سأل زيد الله الشهادة فأعطيا، وحسدت أن نساق إلى فلم أعطها!»،

٤ — لا نامت أعين الجبناء:

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد في الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق. وقد سماه الرسول سيما من سيوف الله، وكفى بذلك شرفاً له وموبها بقدره. ظهرت عبقرية في وفائع مؤنة والردة وفتوح العراق والشام ولكن بطوائفه تطهر فوق ذلك في تواضعه، فقد ما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتأها، رل على أمر الخليفة، وعمل رصياً تحت إمرة أنى عبيدة. وهي تتحلى بوجه أحسن في العبارة التي استخلصها من تحاربه وعبر عنها في أنفاط قلائل قلما عند ما حصرته الواقعة، قال: «لقد شهدت مائة زحف أو رهاءها، وما في بدنى موضع شبر إلا وفيه صرية أو طعنة أو رمية. وهأنذا أموت كما يموت الغير فلا نامت أعين الجبناء».

٥ — قائد محبوب:

كان النعمان بن حارثة الشيباني يقاوم المعمر بالعراق على شاطئ الفرات، فاشتبك مع الفرس في وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ. وكان قد انضم إليه قبيل الواقعة جمع من بصرى نعلت حمية لصلبة العرونة وإلى القارئ ما يصف به الرواية هذا القائد وجيشه في ذلك اليوم: «وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران في ثلاثة صفوف ومع كل صف

قيل ولم زحل ، فقال الثني للمسلمين : « إن النبی سمعون فشل ، فالزموا النصت ! » وطوّف الثني في صوفه بعهد إليهم ، وهو على فرسه الشمس وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الراميات بحرصهم ويهزم ما فيه ، ولكلهم يقول : « بي لأرحو إلا يؤت العرب من قبلكم ليوم ، والله ما يسرى اليوم عسى مني ، إلا وهو يسرى لعنتكم » فيحبونه بمنزلة ذلك . وأبصعهم من نفسه في القول والفعل وحلظ الناس في الخوف والمكره . « لم يستطع أحد منهم أن يعبه قولاً ولا فعلاً » . « بي مكر ثلاثاً فتهبوا ، ثم احموا في الرامة » فلما كبر أو مكرية أحمته « س وحاهوهم ، وركدت حيلهم وحرهم منيا ورأى الثني حلالاً في صفوف بني مخزوم ، فحلف يمد يده لئلا يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام » ويقول لا تمصحووا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضعك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال الثني لأس من هلال اعري : « إنك امرؤ عري ، وإن لم تنكر على دينا ، فإذا حمت على مهران فاحمل معي ! » فحمله ، فحمل الثني على قلب الجيش الفارسي « رآله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله علام من تغلب بصري . فلما رأته ذلك مجسات المسلمين حملوا على محسات الفرس ، وجعل الثني والمسلمون في لقلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يدمرهم ويقول لهم : « عادتكم في أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أمانس من الحرخي ، منهم محمود أخو الثني فعلى عليهم الثني ، وقال : « والله إنه ليهون وحدي عليهم أن شهدوا النوبيب وأقدموا وصبروا لم يجرعوا ولم يشككوا » .

٦ — الحقو عند المقدرة أيضاً :

من أظفح حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصيبين في البيت المقدس عداة استيلائهم عليه في سنة ٤٩٢ هـ . أحمت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصيبية على السواء . فلورد القاري : « لما حدث عند ما استقر صلاح الدين الأيوبي ملك المدة من الصيبين في سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين في وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتنهب للرحب منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يحصن تلك المدينة ويلاط الحرب والحاصر ، فاستدعى وقدأ من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التي يقدمها الصليبيون والمسلمون ولكمهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أو كراهة عند ذلك أقسم لهم أنه لن يأخذها إلا بالسيوف .

وقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ في مهاجمتها ، ونصب أسواراً ، وأوشكت حدوده أن تقترب منها . فلما رأى الصليبيون ذلك أعدوا الأمير بيبرس مصادفة صلاح الدين فطلب هذا الأمير أن يسمح للسلطان ببيت المقدس بقوة الذي سمعه من صديقه أخرى فلم يمنحه السلطان بل ما طلب منه من أن يمسك بيبرس التي أقسمها عند ذلك قال له بيبرس : إن المدينة ستين ألف مقاتل سيحرقون إليه بعد أن يقتلوا سباهم وأطفالهم ويدسروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فافتواه أن ما حدث من قتال حول المدينة كاف في إزراقه ، وأن في وسعه أن يعتبر كل من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يصرف منهم الفداء . وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأي ونجح الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التي يؤدي فيها الفداء وبتم الحلاء أربعين يوماً . ثم وحدث في المدينة بعدها كان مسكاً مسترقاً للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهي مصادفة عجيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أمتاء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بيبرس ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع حروج الصليبيين على ترسم المقرر ، ثم تأتي البطرك الكبير يجر من أموال الكنائس ونحوها وجواهرها ما لا يقدر تحال ، ثم عرض صلاح الدين شيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأنهى أن يقصص عهداً ولا يأخذ منه غير الدينار العشرة المقرر . وانقضت

الأربعون يوماً ولا يزال في المدينة ألوف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يتسكون فداء
يقول المؤرخ الصليبي « أربول » - ولعله كان حاصراً ذلك اليوم لمشهود - : « فتقدم
العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدي ! لقد أعنتك محمد الله على فتح هذه
البلاد وهذه المدينة وإلى أستوهك ألفاً من ثوبك الأرقاء . فبجاءه السلطان إلى طلعه
وعند ذلك أعنتهم لعادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطب مثل الذي طلب العادل
فوعدهم صلاح الدين ألف رفيق أطلقوا في الحال وأحيراً ينعت صلاح الدين إلى أصحابه
ويقول : « لقد أدى أحى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقي أن أؤدي
أما صدقي » ثم به أمر رجلاً من حرسه أن يظنقوا فينادوا في جميع شوارع المدينة أن
كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أربول : « وقد استغرق
خروج هؤلاء سهاراً كاملاً من لدن شروق الشمس إلى أن حسم الظلام »

ثم يمضي المؤرخ المسيحي المذكور فيقول متحدثاً عن أدب صلاح الدين وسله ورقة
قديه : « إن شاء من شاء فرسان الصليبيين كن قد لحان إلى ست المقدس بعد أن قتل
أو أسر أرواحهم وعائلاتهم في الحرب ، فاحتسب بعد أن أدين الفداء وحصر عند
صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهم ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل
من لها روج في حسه روجها ، وأمر نال من ماله لخاص لكل من لا عائل لها ، بما ألجج
الفتن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزي لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا
أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافياً في عده أعظم الفاتحين في عصره فروسية وأكبرهم
قلبا ، بل لعله كذلك في أي عصر من العصور » .

٧ - وإسلاماه !

اجتاح لتتدر أقاليم الدولة العاصية الشرفية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو
بعداد في سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت حيوشه الشام وأصبحت على
أنوار مصر وبعد أرس هولاكو إلى سطر مصر يدراك ، وهو ذلك بظفر قطار ، كيتانا
علاه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه ابتادرة إلى المصوغ له ولاستسلام فيه . فذرت حجة

السلطان واستمر الناس لجهاد القتار فتقاتلوا لما نمت في الأدهان إذ ذاك أن القتر لا يغدبون وانكر السلطان أعلن أنه سائر معه للجهاد على أى حال وأيصحه من يشاء . عند ذلك نفر معه لأسماء بأجادهم ، فار الجبش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس ، وحررت بيته و بين القتار وقمة عطية عند عين جالوت ، وذلك في رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقرئ في وصف بلاء قطر و بيبرس والجش المصرى في ذلك اليوم العصب :
« فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ؛ وفي قلوب المصريين وهم عظيم من القتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من القلاحين ، وتنازع صرب كوسات السلطان والأسماء ، فتجهز القتر إلى الجبل ، فعندما اصطدم المسكران اضطرب صياح السلطان و انتقص طرف منه ، فالتى الملك المنظر عند ذلك خودته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه و بمن معه حملة صادقة ، فأيده الله نصره . وقتل كثنما مقدم القتر ، وانهزم باقيهم .. وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان » ، « وسر المسكر في أثر القتر إلى قرب بيسان ، فرجع القتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول ، صرهم الله وقتل أكارهم وعدة منهم ، وكان قد رزّل المسكون زلزالا شديدا ، صرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم المسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطر على القتار » فلما اكسر القتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه وصرع وجهه على الأرض وقبها ، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب ، فأقبل المسكر وقد امتلأت أيديهم بالمعاصم . تلك وقعة عين جالوت التي صد فيها الجيش المصرى سبل الغزو التتارى الحارف ، واستنقذ بها الشام من أيدي القتار ، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وحبوتهم ، وعوق ذلك فإنه في ذلك اليوم وعلى غير علم به وقى أوروبا وحصارتها الناشئة دمارا محققا ، وذلك باعتراف مؤرخى أوروبا أنفسهم .



وسد ، فعل القارىء . يكون قد رأى من جميع النصوص المتقدمة أن الإسلام قد جعف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لها منهاجا فاصداً وسن آدانا كريمة .

كتب الحسبة

وفائدها في وضع المعجمين الوسيط والكبير (*)

معنى الحسبة والاحتساب في اللغة العد والحساب . وبمعنى الاحتساب بمعنى الإسكار
لشيء ، ومنه قول الكيت :

بأي كتب أ. ذببة سمه ترى حبه عازا على وعصب

أما في الشرع فقد عرف الإمام الماوردي الحسبة في كتاب « الأحكام السعدية » بقوله
(هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه وبمنع عن المنكر إذا ظهر فعله) « واستبدل على وجوبها
بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون » وبورد صحة الإسلام المزني في كتاب « الإحياء علوم الدين » أدلة
أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار وعلى هذا الأساس اعتبر
الفقهاء الحسبة وطيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى هو فرض على
القائم بأمر الجماعة الإسلامية بقول الله تعالى « أو يذب له من يراه أهلا له ، وهو المسمى بعدم
المحتسب . ويوحى أن خلدون في مقدمته عمل المحتسب فيقول : « وتجدد لأعوان على ذلك ،
ويبحث عن المنكرات ، ويمرر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة والمدينة ،
مثل منع من المصافحة في الطرقات ، ومنع الخنازير وأهل الفسق من الإكثار في الخمر ، والحكم
على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على
أيدي المذنبين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في صرهم للصبيان والمثقلين » . ويعرف ابن
خلدون بين اختصاص المحتسب واختصاص القاضي فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أي
المحتسب) على تنازع أو استعلاء ، بل له النظر في الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع
إليه ، وليس له إمعاء الحكم في الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالنفس والتدليس في المعاش
وغيرها وفي المسكايل والموديس . وله أيضا حمل المظللين على الإيصال وأمثال ذلك مما ليس

فيه سماع سنة ولا إبعاد حكمه ثم غصى بقول : وكانت أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أمرهم فتدبر إلى صاحب هذه النظمه يقوم بها فوصفها على ذلك أن تكون خدمة لمصالحهم ، وسخط من حدود التطور الذي طرأ على نظام الحسنة مما اقتضى فصلها عن مصدقها ، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل المبيديين ، مصر وسرب ، والأووين ، وأندلس ، دخلت في عموم ولاية القاضي ، يولى بها باختياره ، ثم لما انددت وطامة السطوة عن خلافة ، وصار نظامه عمداً في أمور السياسة ، اندرجت (أي الحسنة) في نطاق الملوك ، وأدت « بولاه »

وهذه أمثلة لأخير من حدود طريقة وهذه وتحتاج إلى شيء من البيان والله صريح في هذا ، منصب أمير لأندلس في عداد في سنة ٢٩٦ على يد مؤسس الخدم أصبح صاحب هذا المنصب وما دله من لأدب علم السطر في السياسة وشئون الحكم الفعلي ، في الحسنة الاسم والنظمه لروحة الحسنة ، وأصبح هذا المير وقد صدق هذا الاسم قيم حال طهره في لأدب الإسلامية الشكرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل عربة ، وبعده ، ودمشق ، والدمهر ، وفاس ، وسراش ، ومدن الأندلس إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، زاهرة بطوائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما عدت يثبات اجتماعية محتضنة تترامح فيها الأهواء ، والدع ، والجل ، والبول السياسية لمعاصرة ، والذاهب الدينية المختنة .

كانت هذه الحسنة وحدها قصوى من ولادة الأمور في الدولة أو الدول الإسلامية منها ويقطة حتى لا يهبط حبيل الأمن وسم العوصى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات دوى ميول سياسية ، ورعت مذهبية ، وكان كثير من أهل للذاهب الدينية متمسكين لمذهبهم مستعدين في سبيل نصرتة لحل السلاح وإراقة الدماء ؟ لقد كانت عداد ميداناً لغتس دامية متصلة تارة بين الحفالة وحصولهم وأخرى بين أشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام محالاً لنشاط الباطنية المعطلة لأحكام الدين الإسلامي . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك الغتس بعد أن قصى صلاح الدين لأيوبي على الدولة الفاطمية ، فقد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهية . ومثل ذلك يقال عن مدن المغرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل الدمة ، وكانوا

في كثير من الأحيان صاحبين مع المالك المصرية التي كانت تناسب لمسلمين العدا في شمال إفريقية والأندلس .

لكني يواحه دور مصر هذه الحل على قول من جلدوت فهو الحصة عن القضا ، وصيروه وطبعة ملكية ، وسعوا بد الختسب على كل آت يتفكر في المعاملات والمصاعف والمعدات ، وكل راع في العنة والقصد في الأرض وإقلال راحة الدس ، وبافصال الحسية عن القضا ، وصيررتها أداة ردة وسط وتعيد سر مع اصحت شحسية الختسب . ويحدث المقريري عن الختسب في القاهرة يقول « ولا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان لمدين ، وله استخدام امواب عمه بالقاهرة ومصر (المخطوط) وجميع أعمال الدولة كدواب الحكم وله حق الخوس بحمى القاهرة ومصر يوم بعد يوم وحقوف يوايه على أبواب الحرف والمعيش . . . ويطرون المسكايل وموارين ، ولمحسب الطر في دار العيار ، ويجمع عليه ويقرأ سحله عصر والقاهرة على المير ، ولا يخال بينه وبين مصنعة إذا رآها ، والولاية نشد معه إذا احتاج إلى ذلك ، وحاربه ثلاث دسار في كل شه » .

ويحدثنا صاحب « مدح الطيب » عن الختسب بالأندلس فيقول « أما حطه الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والعلم ، وكل صاحبها فاض والعدة فيه أن يمشى بهمه راكباً على الأسواق ، وأعوامه معه ، ومبراته الذي ير به الحرف في يد أحد لأعوار لأن الحيز عديم معلوم الأوران ، لوزع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للشس ، وفي ذلك مصلحة لقد يرسل المتاع الصبي الصغير أو الحاربه الرعناء مستويان فيما يأتياه به من السوق مع الحادق في معرفة الأوران . وكذلك الماحم يكون عليه ورقة تسره ولا يحسر الحرف أن يبيع بأكثر أو دون ما حله الختسب في الورقة ولا يكاد تحي خبته ، فإن الختسب يذس عليه صيباً أو حارية يتناع أحدهما منه ثم يحسب الختسب الورق فإن وجد قصاً فس مل ذلك حاله مع الدس . فلا تسأل عما يلقى وإن كثر ذلك منه ولم يتب بعد الصرب والتحر يس في من البلد » .



وقد سارت حركة التأليف والكتابة في الحصة هذا النطور مسيرة تامة . فقد ما كانت

الحسنة تابعة للنصاء. كان المؤلفون من الفقهاء يكسبون عنها على أبواب من أبواب الفقه فيذكرون شروطها وأحكامها وآبائهم فيهم لفقهية وأجمع ما وصل إيمان ذلك الفصل الذي عقده لأحكام الحسنة لمودد المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ثم الفصل المطول الذي كتبه في كتب الإحياء الإبراهيم امرؤ المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .

وكلام مودد في الحسنة كلام فقه متين علمي معصف انداهب للإسلامية لهذه بربد أن يرسم صورة للحسنة كما هي أن تكون من حيث انطفئة لأحكام الشرع مع الوضوح والبداهة والإيجاز . فما كلام الإبراهيمي في فكلاء عام متصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه الفرد الإسلامي في الإخلاص ، وكلامه على الحسنة بحري هذا الحري ، فهو عواصم في حكمة الله ، مع ، كسرة لاستشهاد سنة آن والدين والأخبار وما ية نصية مدقق سبب وبعد كل ، يكسب فيص من روحه تقوى ويثابه العميق

فما ندحت الحسنة في بواطن السعدية كما يقول ابن خلدون ، وحدث ما تبع إليه من تقدم الأمور في الأمصار فإسلامية العسكرية ، انعه ، لا يبد في الحسنة أعدها عمير يرى إلى صراط الخلق سمرقند من موقوف الحسنة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتيه أربابها من أمور العيش والحكمة والندس وأكل أموال الناس بالعدل .

وقد وصل إلينا من التآليف الموصوعة في الحسنة والتي بها أصحابها فيها هذا المعنى الواقعي كتب تزيد على العشرة عدا ، أكثرها من مشرق العالم الإسلامي ومن مصر والشام خاصة وأقدم من المغرب والأندلس وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة .

١ - « كتاب مية الزينة في طلب الحسنة » لعبد الرحمن بن نصر البزري الشيرازي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبي للاستئانة به في الاحتساب على أبواب المهر والصناعات وأهل الأمانة الذين كان هوام مع العاطمين كما تقدم القول . والكتاب يقع في أربعين باباً وقد اشرف في مصر حديثاً نشرًا حسنًا . وهذا الكتاب يعتبر في الحقيقة أصلاً للمجموعة الشرقية من كتب عليه كل من كتب بعد في الحسنة في الناحية العملية .

٢ - محمد بن محمد بن أحمد القرشي المصري المعروف بابن الأخوة والمتوفى سنة ٧٢٩ هـ

قد وضع كتابه « معناه تفرقة في أحكام حجية » وهو يتضمن كتابه هذا أبواب كتاب
النيرى مع زيده ثلاثين باباً وإحصاءات فيه ومسحوبات شخصية لمؤلفه خاصة فيها
التاريخية كما سيأتى .

٣ - ثم يأتى محمد بن أحمد بن سماء الضرى وهو من أهل قرطاج من المعنى أبيصع
كتاباً في الحجة بسميه كذلك « هدية نرسه وصدف حجة » وخصه أبواب الكتابين
السابقين ويرد عليه تحية وأربعين باباً بذلك . عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة
باب استوفى فيه الحجة على ما عرف من جميع الحرف وإحصاءات ووجوه عهد، وبحال
الطوائف وأهبيت التي بنفسه معصده لدية من كتب عن طريق الاحتمال عهد .

٤ - والكتاب رابع من المجموعة الشريفة هو كتاب « الخمار في كشف الأسرار »
لكتاب من كتب الدولة لألفية سنة عبد الرحمن بن أبي بكر لا شقى وهو من أهل قرطاج
وقد وضعه كما قول في مقدمه يطلب من السامع مسعود ساه على ثلاثين فصلاً كله في
التعريف بحرق مش والدبى في الصدقات الخفية وما يقع من طوائف معيبة من الناس
من الشعوذة والاحتفال .

أما المجموعة العربية فتمتثل على كتابين اثنين .

١ - كتاب آداب الحجة لاس عنده محمد بن أبي محمد البقلى الدائى لأندلسى لمتوفى في
أوائل القرن السادس الهجرى وكتاب يشتمل على ما فيه أبواب في الحجة صحتها أموراً عاينها
بنفسه أثناء ولايته الحسية بمدينة مالقة .

٢ - والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وحررة لمحمد بن أحمد بن عبدون النحوى
الإشبلى لمتوفى في أوائل القرن السادس الهجرى؛ صحتها ما يراه من وجوه لإصلاح لأحوال
مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحجة على موطئى الحكومة وأرباب الحرف والصدقات
وهو في رسالته هذه يتدد بعش الصاع وأهل الحرف وفساد ذم بعض الطوائف
وإحلال أخلاقها .

للكتب المذكورة مزية عظيمة في دراسة المجتمع الإسلامي كما بصورة حياة المدن الإسلامية الكبرى في العصور الإسلامية الأخيرة ، ثم من قبيل سموط بغداد إلى أبعث أنهضه الحديثة في أحرى القرن الثامن عشر ، فهي من الناحية الاجتماعية بصورة ما انتاب العالم الإسلامي من أدواء وعمل وفقر مدقع ، ثم أدى إلى التمسك في العنق والنكسب بالمهن الحليفة والنعودة والاحتياض حتى صار ذلك صاعدة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مدناً لكثير من الناس قولهم « حينئذ عيهم ولا الحاجة إليهم » . ثم من هذه الكتب تشتمل على نقد المجتمع لدع مثل قول ابن الأحرار في تعيل ترك الناس دراسة لعب وإقبالهم على دراسة الفقه يهود « ولطاب من هروض السكينة ولا قائم به (اليوم) من المسلمين وهم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الدمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتمنى بالأطباء من أحكام (الطب) ولا يرى أحداً يشتمل به وينهاقون على علم الفقه ولا سيما إغلايات والحديثات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفنوى والحواب عن الواقع . فليت شعري كيف يرخص الدين في الاشتغال بفرص كفاية قد قام به جماعة ، وإجمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولى القضاء والحكومة ، والتقدم به على الآخرين ، والتسلط على الأعداء ؟ هيئت قد اندرس علم الدين : فافقه المستعان ، وإليه الملاذ ، بأن بعيداً من هذا المرور الذي يحط الرحمن ويصحك الشيطان » .

ويقول ابن الأحرار أيضاً في ذم طائفة لموكلين بالخصومة أو الحادين من أهل زمانه « وأما الموكلون . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون به بسبب الشرع فيوقفون القضية ليصعب الحق ويخرج من بين يدي طائفة وصاحبه فإذا حصر الخصمان في الحق يظهر سرياً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل . فكان ترك الموكلين في هذا الزمان أولى من نصهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من دوات البروز فتوكل ، أو صبي فحينئذ ينصب الحاكم عنه وكيلاً » . ويقول التيزي في أمر التحوط من الباطنية « ويتقدم الختسب إلى حيران كل مسجد

بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، سيما في هذا الزمان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الدلتية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة وإبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك لتتقوى عمائد الأمة .

إن السكب المذكورة صورته في الحلة الحياة اليومية في المدن الإسلامية الكبيرة فنصف الأسواق وحركة السد من وما قد تقع من مكر يد راع الخنثب إلى إزالته ، كما نصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .



ومهما تكن لها من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها القوعية هي الخديرة بالنسبة في هذا المقام . إن كتب الحسية العممية التي وصفت إبانها تحوى عشرات بل مئات من الأندط والمصطلحات الفنية التي جرى استعمالها منذ أرسائه عام أو تزيد . ولأورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيرازي في باب الحسة على البيطرة « وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الحرق ، والفتان الرطاب ، والنفق الياس ، والحمون ، وفساد الدماغ ، والصداع ، والحرق ، والدمعة ، والورم ، والمرة المانعة ، والديبة والحمام ، ثم يعمى فبعد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول في باب الحسة على الأطباء « ويبين الطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على السكال ، وهي كليات الأعراس ، ومكاوى الطحال ، وكليات العاق ، وزرافات القوائم ، وملزم البواسير ، ومحرمط المناخير ، ومنحل النواصير ، وغالب التشمير ، ودرصاص التثقيب ومفتاح الرحم ، وبار النساء وسكدة الحشا ، وقدرح الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب غير آلة الكحالين والجراثيميين مما يالف ذكره في موضعه »

ومن المصطلحات التي التفتتها من كتب الحسية المذكورة والتي يستعمل نحن بمصرها في حياتنا اليومية : الزحار بمعنى صداء النحاس ، والقياس ، لآلة الوزن المعروفة ، والقرمة التي يقصب عليها اللحم والقطان (بمعنى المنحد) ودقيق الملازمة أو الدرملك لدقيق لب الحطة ، واللقوم

الواقعة لهزيمة ، والسملك العائت ، والسملك الطرى ، والبيض مندر والسملك المندر معنى
العسد ، واريون معنى المليل ، وأرش العيب معنى ما يطرح من لثن بظهور عيب في
السمة (وهو من أرش الخراج في عنه بمعنى ديت) والطحير للقدر الكبيرة المتحدة من
النحاس ، وهي تقابل لفظ (القزان) عندنا .

أما بعد فقد تم المشرق هوسدى دورى في النصف الأخير من القرن الماضي عهد
مشكور ، وجمع طائفة كبيرة من الألفاظ ، المصطلحات العربية التي لم ترد في المعاجم العربية
وشعرها ، وسكن كم راء الأول لآخر إلى من حق الألفاظ والمصطلحات التي ذكرت
وأما على محمد ، أن تجمع وفسر ، ثم ضمن المعجمين الكبير والوسيط بذلك تكون قد
وسمها معاجمها ، وزعم في مادة نعت ، ورددا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات اعتبرها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها^(١)

أبى حنيفة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمره هذا العام بحثاً فى موضوعه بصيغته العربية ، وقد عرض حصرته أسباب هذا التصحيم سبباً ، وكان البحث منصب على نقد هذه المعاجم وما يقع فيه ، ودفعها من أوجه وأعلام أدت إلى التصحيم المذكور . أما البحث الذى أشرف بزمته اليوم فمُصَّب على سحبه من نواحى عو اللغة العربية إن اردنا ان ندور حول الإبداعية القديمة ، والنمو غير التصحيم ، فالتصحيم على يد الحق الكائن على قضيته وتعلمه وقد تودى حياته . أما النمو فبدل صحته ، وقوته ، وحيويته ، وفسيحة لائقه . واللغة لأشك كائن حتى ، ، إننا كمال الواجب يقتضى أن نتعرف علل لغته كالتصحيم الذى سلك عليه الأستاذ الخليل ، فثنا على ما أن نتعرف طوره ونوعه ونماها وحيويتها فتكون قد جمعت بين الحسنيين بين التصحيم من أسباب العلل . ولأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية والمضي بالانتفاع بها فى إحصائها وإثباتها من عثارها .

ولقد عذب فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى عو اللغة العربية وانتشاره العظيم أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٠) والثانى أسر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أسر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨) بفكر كنىب الفلسفة من يهودية إلى عربية . وقد تكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مبين الساعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى عو اللغة العربية وانتشارها . ثم أحتم كلامى بانفارة بين ما حصل من مداً أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .

(١) أبى هذا البحث فى المؤتمر النبوى لخم فؤاد الأول لعمه العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما توتت الفوح وتداقت الأموال من الأنظار المفتوحة . فأنصت الحل اتحاد نظام لتقييد أسماء مقدسه وفنائهم ومنع إعطائهم . -تشر عمر ذوى رأى على عادته في كل أمر حرب ، حدث مهم فاش وأعليه وضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كما نقول دائرة المعارف الإسلامية قد يكون رأى الأصل ودأصلة بكلمة « دير » الفارسية ومعناه « الكتاب » . ثم أطلق في الفتوح العربية على المحلات التي تشبه على حسب الأموال ، ثم أضحى في الدولة العباسية على كل إدارة من إدارت الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وهلم جرا .

وتدكون عمر بجه الديوان أسماء الحد وبيد أنسابهم وأعطائهم على نظام اتفق عليه وبه ماوردى في كتب « الأحكام السطوية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش وهو أور ديوان وضع في الدولة الإسلامية ، وكان يحضر العربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان من والحدية وكان مقر ديوان الأموال هذه في عواصم الأقطار المفتوحة وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحتها ومقدار إيراداتها ونوع ذلك على أهله على هيئة حراج أو حربة ، وذل هذا الديوان يكتب في كل قطر بصفة أهله ، وكانت في العايب بمة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامي ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام برومية ، وديوان مصر بروسة والقطنة . وكان يقولون نشون هذه الديوان عمل من أهل الإقليم ، فكان عمل ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمل ديوان الشام من الروم ، وعمل ديوان مصر من الروم والقيط .

وقد طالت ديوان المال والحدية يكتب في الأقطار المفتوحة بالعبارات الأصلية منذ كورة ويقولوها عمل من مولى الفرس والروم والقيط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحدثهم قوم منهم إلى جانب لغتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت رجعة القود في مايران الدولى ، هذا إلى عصبيتها الشديدة لسكل ما هو عربى ، فلم يكن من الطبيعي أن تطل ديوانها تكتب بلغات غير العربية ، وانجذبت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فصرها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإساده « إن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعد عام الجماعة

أى سنة ٧٤ هـ وصرب الحاج الدراهم آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بصرم في جميع الفواحي سنة ٧٦ هـ ثم اتهمت عريضة عند ذلك وعامله الحاج إلى تعريضه للدين.

يروى البلاذرى نقلاً عن ثنائي عن شيخه في بيان السب الذي من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يرل - من حراج السواد وسائر العراق بالخراسانية ، فلما ولي الحاج العراق استكتب رادان فروج بن يعزى ، وكان معه صاحب بن عبد الرحمن مولى بني تميم يحيط بين يديه بالخراسانية والعربية . فوصاه رادان فروج صاحب الحاج وحلف على نفسه ، فقال له ذات يوم : بك شئى إلى الأمير وأرأه قد استعصى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسفط . فقال لا تفل ذلك ا هو أحمق . بنى منه ، إليك لأنه لا يخدم من مكفه حسابه عبرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية خوفاً ، من خوف منه شطراً حتى أرى ، فعل . فقال له عرضاً فمارس ، فبنت إليه الحاج طلبة ، ثم يريه عنه . وبلغ رادان فروج ذلك فأمره أن يخط . ثم أن رادان فروج قتل في أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأنتى الكيسى . . . فاستكتب الحاج صاحباً مكانه فخطه لردان كان حريه منه وبين رادان فروج في نقل الديوان ، فعزم الحاج على أن يتولى الديوان بالعربية ، وقد ذلك صاحباً فقال له مراد بن شاه بن رادان فروج ، كيف تصيب بذهوية وششوية ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر . قال كيف تصنع موبد ؟ قال أكتبه « وأيضاً » والوید النيف والزيادة تزداد . فقال قطع الله أصلك من الديار كما قطعت أصل الفارسية . وبنت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، ففى وقته . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ! ما أعظم منه على الكتاب . ويقال إن الحاج أحل صاحباً أحلا حتى قلب الديوان »

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً حسب نقله فيقول « قالوا ولم يرل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر بنقله ، وذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ما يقبل في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بمحراج الأردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقص السنة حتى فرغ من نقله وأتى

« عبد الملك قد دعا سرحون كانه ، معرض عليه ذلك ، فعه ، وخرج من عنده كشيء ، فلقية قوم من كتب الروم ، قال : اطردوا الميثة من غير هذه الصاعه ؛ فقد قطعها الله عنكم ا قال : وكانت وطيفة الأورد التي قطعها له مائة ألف وثمانين ألف دينار » .

أما ديوان مصر فيقول سكندى في كتاب « الولاة والقصة » و أسر نقله « وبيع الوليد بن عبد الملك ... فأمر أحماء عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأسره بالدواوين ففسحت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقطعية ، وصرف عبد الله بن أشاس عن الديوان وجعل عليه ابن يروج الراوى من أهل حمص »^(١) .

ومهما يكن ما تزويه المصادر من أسب مباشرة تعريب الدواوين ، فالذى لا شك فيه أن عبد الملك واسه الوليد وعاملهما المحتاج كماوا شديدى العصبية لكل ما هو عربى وأن الدولة قد آجعت إلى تعريب إدارتها كما قدما ، استكمالاً لمظاهر سيادتها وتوحيدها لكرامتها . ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخى الهام عدة أمور عظيمة : —

فالعربية العصبى أفادت أعطاء جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية وويد ، هى مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع وطهرت فى العربية ألفاظ كثيرة إما عربية أو منقولة عن أصولها الأهمجية المستعملة فى الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاظم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم العربية بعامل المصلحة الذاتية ، وذلك لان نظام فى أعمال الكتبة والخراج وما يتصل بهما ، ولتسهيله القاضى فى المنازعات التى كان ينظر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكند ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغتت الفارسية والزرمية والقطبية على أسرها فأحدثت هذه اللغات تتصايل وتضمحل فى الأقطار المذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

(١) وإعنا لهذا العصر التاريخى أقول إن أسد حسن حسنى هذا الوهاب العلامة التوسى وعصو بمج مؤيد الأول لله العربية أحرق أن ديوان العرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية فى حوالى الوقت الذى عرفت فيه دواوين للفرس وأنهم صدواى بمى نواى العرب على دينار عربى من عهد الأمير موسى ابن صير .

وبانتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهبها ظهرت في الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية محلية بين أما المصرية منها مجموعات العردي التي كشفت في مصر والتي يصاحب تاريخ مصر الإسلامي من أول الفصح العربي إلى القرن السادس

تتضمن هذه الوثائق القيمة على رسائل صدرت عن ولاية مصر مثل قرعة من ثم يك وغيره وبعض المتفنين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصحة ، كما تشمل على عدد عظيم من وثائق المدينت والمدائمت ، وعقود الزواج والعتيق ، الشؤون اليومية ، وهذه مكتوبة بلغة شعبية مصرية للفصحى وفيه كثير من خصائص اللغة المصرية المحصورة ، من ذلك إبدال الصاد من الطاء في « احضر » بدلا من « احبط » وإسقاط الميم في « إسقاط » يكاد يكون مطردا يقال « وبس » بدلا من « وبس » ، « وأيه » ، « حذشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب يقال « ثين » حيث يجب أن يقال « اثنين » وهلم جرا وقد نشر جانب من هذه الوثائق مخطوطة بدار الكتب المصرية الأستاذ المشرق أو واف جدهم للموسى في ثلاثة أجزاء ، ذكر طبع ، دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جده حديثا كـ ، فيما في هذا لموسى اسمه « من عالم البرديات العربية »^(١) وأهم النتائج التي ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يمتد إذ ذك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي .

* * *

هكذا عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار : أما تدوين الحديث النبوي فالمرحوف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتب آخر يشمل المسلمين عن تلاوه وتدمير معديه . بيد أن هذا التخرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروى الخطيب البغدادي في كتاب « تقييد العلم » عن ابن

(١) نسخة حديث : « حجة الدراسات التاريخية للمصرية » .

شهاب الزهرى أنه قال « لولا أحاديث تاتنا من قبل المشرق سكرها ولا معرفها ما كتبت حديثاً ، ولا أدت في كتابته » . فلو أن الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجميع السنة وكتبها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجميع السنن فكتبناها دفعة دفعة فمعت إلى كل أرض له فيها سلطان دفعة » . ثم استفاض تأليف الكتب في أحدث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة المشهورة .

والذى يحصيه بالملاحظة من هذه الطائفة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بسعي ، هي طبقة غاية من البلاغة ، فوددت اللغة من تدوينها تودحاً للعبارة البديعة مكن للمصحح بعد المثلة التي يعهد بها الكرم أي تمكنه ، وأن حرص المسلمين في كل عصورهم على هذين مصدرين لأقديس وبلغ عديتهم سيما قوم الفصحى على أساس راسخ لا يتردد فيه وهن مادام في الأرض مسلمون وإسلام .

ثم إن السنة المروية عن رسول الهى تعد مصدر الذى من مصادر التشريع الإسلامى ، ومن ثم وصفت كتب في الحديث سرمة على أبواب الفقه كوطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة عدت من الفقه الإسلامى وعلم الحديث وايتضعت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطالع على الكتب المؤتمة في هذين العليين الحيين .



ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بن كنف الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا في أمهات مدنها مدارس السريان والعرب والتمط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية في الشام والعراق رغبة من الساطرة والعباقرة في درسها بلعتهم ومناطة منهم في مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنييسة البيرونية التي اعصلوا عنها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس في هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والمجوم والسكيميا . وقد نقلوا كذلك كتباً عدة في الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية .

واستمرت هذه الحال في العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

العلمي الذي كان يسود بلاد الشرق الأدنى عصل مدارس الإسكندرية وأطاكية وقيصرية
ومصيبين والرها وحديبور ، حتى روى أن الأمير حلال بن بدي بن معدوية درس الكيمياء
على راهب إسكندري اسمه ماريوس وأنه ألف في الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن
العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان للعبقة المصور ولع
خاص ما نط والنجوم فترجعت له كتب في هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرمكة
أثر كذلك في تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، لما جاء المأمون وكان ميلا نطمه
إلى البحث الفلسفي وآراء المفترقة كانقول بحق القبر وعيره من مشائهم ، فقد سلك مسلكا
جديدا بالرة ، إذ أنشأ في بغداد « بيت الحكمة » لادرس والبعث . والظاهر أنه أنشأ بيت
الحكمة هذا على مثل مدارس السريان التي أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب
الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأسا دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويرى
ابن النديم في « الفهرست » السب الذي بحث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى في
منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فما به من يومه طلب ترجمه كتبه ، فكتب إلى
ملك الروم يسأله لإذن في إعاد ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه
إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الخواجه بن مطر وابن الطريق ،
وسم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا بما وجدوا ما احتسروا ، فلما حمله إليه أمرهم نقله
فقل ، وجعل يمرض الناس على قراءة تلك الكتب ، وبرغهم في عملها كما يذكر ابن
العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واقصدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوعاة والثروة في بغداد ،
فتقاطر إليها المترحمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم الساطرة واليعاقبة والصائفة
والخوس والروم والبراهمة يترحمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية
واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت اخل على ذلك
حتى أنه لم يكند ينتهي القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيما ، بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترحمون
عشرات الآلاف الفلسفية والطبية والكيمائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها
إلى ما يقابله في العربية وواقين بعضها بنطه مما حمل علماء اللغة على أن يحصوه بتأليف

خاصة مثل كتاب « العرب والدجيل » لجوالقي . ومهما يكن من شيء فقد أعادت اللغة العربية مادة غنية مكنت السعاة والمتكلمين وللعلاسة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل علومهم بلسان موالية ، وأعطت دلة على معنى حتى يريدون التعبير عنها

أما بعد ، فإننا إذا اعتبرنا ما أوداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية في مجال المصطلحات الإدارية ومالية ، وتدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، ونقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء في ميادين العلوم العقلية والنظرية ، فإننا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت في القرن التاسع عشر أرحب ، ثم تقصى وضع معجم لجميع ما فيها وتبين معنى معرديتها . وهذا كله بفضل ما أولت هذه اللغة من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التي انتهجتها حكومة برلمانها على المعهود في بناء

ثم أحتم كلني فأقول : أنه أشبه بالله في درجة الفهم أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية في شبه الحال التي كانت عليها في أرمي عصور الإسلام . لقد عرفت الدواوين بعد أن كانت تكتب بلسان أحشية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم هدمى دى حركة نقل قوية عن اللغات الأوروبية في مختلف العلوم والآداب يقوم عمدها على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإيجازها . وكما كانت العربية أداة للتقدم وتبادل الرأي والفكر في الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها سبيل أن تصبح كذلك في عالم شرق حديث يمتد من أقصى أسويسيا إلى سراكش ، وهو لعمري عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامي القديم . ولكن معنى هذا كله ترايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحاجة لغة الصاد ، وأخص بالذكر منهم رجال محمد الموقر . إن الآمال المعقودة بهم في حوز العربية تنهض في المستقبل القريب نهضتها في الماضي البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال — وهي متحققة بإذن الله — سيكون للعربية شأن أي شأن في نشر الثقافة العليا في اقطار أسويوية وأفريقية . والله ولي التوفيق .

أثر مصر

في الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

العيسوي الأول*

لم تكن مصر في نظر العرب عند ما أقدموا على فتحها في سنة ١٨ هـ كميرها من الأنظار التي فتحوها في ههناهم لعطش ، بل كان لها في أحبيهم وحوطهم مكانة متميزة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر في مواضع عدة ذكرها كريمة تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والمصباح . فمن ذلك قول القرآن محباً عن فرعون « أليس لي منذ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » وقوله محباً عن يوسف عليه السلام « ادخو مصر إن شاء الله آمين » وقوله : « وعد نوحاً ، هو إسرائيل مبعوثاً صديقاً » . وقوله : « كم تركوا من حداث وعسا ، وروع ومة كريمة وعنه كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثها قوم آخرين » وقوله : « ربما يأتى آت من فرعون وملائه ربيته وأمواله في أعياد الدنيا »

وكما سجل القرآن على حمزة آت من سورة بقدر مصر وحطرها وثرائها ، فإن السنة ذكرت مصر ووجت بأهها خاصة لأسباب ودل في قصص الكتب المقدسة . من ذلك ما يروى من أن أسي (من) قال : « يد اصبحت مصر فاستوصوا بالقط حبراً فإن لهم دمة ورحمة » وقصروا « رحمة » بأن هاجر أم يسمعين عليهم السلام كانت مصرية وأهها ولدت لإبراهيم ولده إسماعيل الذي هو أصل عرب الحجاز . فكان لقط أحول لعرب الإسماعيلية إذا أخذنا نظرية النسب العربية .

ولمعروف من التاريخ مقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

(*) بحث في الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠ .

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد وشأ موسى عليه السلام ، ومنها خرج نوح وإسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وحده أن مصر كانت متجرأ لم تحمل إليهم منها فيما يحمل الثياب المعروفة بالقطنى ، جمع قُطَيْة ، وقد ورد ذكر هذا الصرب من الثياب في الشعر العربي القديم .

كل هذه الذكريات مستمدة من مصدر التي ذكر . كانت تحول تعواطر العرب عندما قدموا إلى فتح مصر ، فعاتبه لم فحها فملا واحتطوا بأهلها ، وعابوا بها المحجب ، وترتب الحصنة ، وحيرابها ، وانثرها زائفة ، ووصفها لخرافيها يد ، ودعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والكدب بالزعة ، الصدعة ، وجره . كل ذلك حصصهم يرون أن قد صدق الظنّ الخمر فاطلقت أسنهم تشيد بمصر ، وحات مصر ، ويل مصر ، ومحبات مصر ، وحميمها ، حمة لذي « كد به لله في أمه » ، ودوا « من أراد أن يدكره » . أو « من أراد أن يظفر به » . إلى أرض مصر حين تحضر روتها وتور ثمارها . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبل ذلك الوصف الدقيق الذي نقل أن عمر بن الخطاب ، مثله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هو فيه خلاف مدطر ، أو « نصري من لب أن يكون معموأ عياه الفيصا ، إلى أن فحصر عنه اماء ، وحرث لأرض ، وحرث بالشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتنوع ألوانها ، فيقول : « فبصر مصر يا أمير المؤمنين فؤده مصر » ، إذا هي عبدة سوداء ، إذا هي زمردة خضراء ، إذا هي دماحة رمضاء ، فتدرك الله على ما شاء .

والحق أن من بين الشعوب التي احتلت حكومتها على مصر لم يصب مصر وبقى بها غير لمصر بن القدماء والعرب ، فقد سبغ من قسمة الأولين بها أن ألجوا وعدوا بينها ورضها وسماها . أما الآخرون فسمهم دنهم من البورطى شيء من ذلك ، فراحوا يتمنون محاسنها في متوهم ومظلومهم . وكل من هؤلاء هؤلاء كاز تحول أمداً ، وأعظم أنرا في تاريخ مصر ، ممن دخلها غاصب مسيطر ، أو متجراً مستعمرأ

من أجل ذلك لم تست مصر أن استعالت قطراً عربياً إسلامياً في زمن أوجزما يحمرى

في الحسان عادة ذلك من الصلة الاستعمارية القديمة التي ترمس إليها قصة إبراهيم الخليل
وهاجر المصرية وولد إسماعيل أبي عرب الشام ، ما طل من الحقيقة ، فاصبر يون والعرب
هما في الحق أساء بشة تكاد تكون واحدة ، والملاذات الدرامية يسبب من غير التبريح
مشتكة متصلة ، ثم مصر كانت قد تعرضت إلى حد ما قبل فتح العرب ، فخريرة سيدها
كانت تعمرها قبائل عربية تضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص في رحله إلى مصر ، وفي
الحديثة عثرت إلى مصر واستقرت على موح من سحر الأحرار في شمال السودان قبل عربية
يقيم من مديون على بعض كنفه الكثر مثلا فدية استعرب وذي أسير مدقة
على انسح العرب في تمرد ، فسح وحضمت عوار كبر أشهرها عريان ، عجزه انقراض العنة
مع عمرو بن العاص ، وأكثف من عرب اليمن ، ثم عجز فيه عذبة كانت في خلافة
هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت في الحوف الشرق ، وقبل ما سببه لأن
مديرية الشرقية ثم يحدث لامتراج فسبق العرب في الأرض ، برعوبه وسموعه ،
ويعمل ابط على العرب سكك العربية ودحول لهم المير منهم في الإسلام ، وذلك
تصيح مصر قتل عربيا إسلامي شتمت بخصائص مكسه من أن يشترك في الأحداث
الكبرى التي وقعت في لدولة الإسلامية عامة ، وهما عن أولاء يستقرى هذه الأحداث
ويبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسي الأول ، أي إلى قرب منتصف
القرن الثالث الهجري .

ولكي نحلو الحوادث التي شاركت مصر فيها نقول إن حوادث الدولة الإسلامية
من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسي الأول تقع في ثلاثة مدين كبيرة ، ميدان الفتوح
الحربية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفتوح الحربية :

كان المدا مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر
المدكور ، فكان لروم يحذرون ارتعاع ما فقدوا من أملاكهم في آسيا وأفريقية ، وكان
العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان . ولقد وقع عبه قتال الروم في ذلك

العهد على الشام ومصر بحكم وصعها الخرافى ، واصططعت مصر بمصر من هذا العهد
اصططلاعاً رائداً . كما كان لها أثر قوى فى مد نطاق الدولة العربية غرباً وحبواً وشمالاً
محصن جهودها ومواردها . من مصر كانت فى نظر الخلفاء باب الحرب وابو سيلة إليه فعولوا
عليها فى فتحة وسط سبتهم عليه . لذلك نجد عمرو بن العاص غداة فراعته من أسر مصر
يكرر على رفة فيستولى عليها سنة ٢٢ هـ . ويتبع ذلك الاستيلاء على طردس سنة ٢٣ هـ
ثم يمسك الحديمة عمرو بن الخطاب فى عمرو إفريقية فلا يبدل له على عادته فى التمسك
والترتيب براه المشروعة الخطيرة ، ولكن غمار من عدل يطفى مد عبد الله بن سعد عامه
الحديد على مصر فيفتح فرقة ، ثم تلى عقبة بن نافع القهرى فيؤسس مدينة القيروان ،
ويكتسح شمال إفريقية ، ككل ذلك بحبوش مصر ومورد مصر . ثم إن فائق العرب من
بعد عقبة وخاصة حسام بن الحمار وموسى بن نصير قد مكثوا للدولة العربية فى العرب حتى
سواحل المحيط بحبوش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائماً ردها لهم تساعدهم
بأسطوطها وماله . وحتى الأسس الباقية قد اشتدت عند مصرى فى تهدئة أحوالهم ضمن حلة
كل يوم بن عيص القشبرى ، ورل هذا الحد المصرى كورة تدمير التى سميت « بمصر » إشارة
إلى أن الحد الذى رها أصله من مصر .

هد فى العرب أما فى الحروب فقد عرفنا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود
سنة ٣١ هـ وريثون بها البوثة ، وكانت الحرب عيفة اسمس فيب العرب واسودان ،
لجح اس أبى سرح إلى السلم ، من شجاعة الودن ورعهم فى الرمية فى لومة
أعروفة يوم دمقته ، فقد سه وسهم هدنة على شروط معينة

أما فى الشمال فكان هدف لدولة الأموية لاستيلاء على القسطنطينية واقصاء على
الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريص على ذلك هذه العادة ، ومن إلى
دلائل بإشده بحربه ديه فى سواحل الشام ولاستعماله بالأسطول مصرى والاستيلاء
على حرز البحر الأبيض الشرقي . وفتح معاوية ربحه سنة ٢٨ هـ بالاستيلاء على قبرص
ثم كانت لومه بحرية معروفة بذات الصورى سنة ٣٤ هـ فى أواخر عهد عثمان . وه إلى
الأمر بطور قسطنطين سار فى أسطول صحر يريد به التجمع فقد ، بما لشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان الشامي والمصري إلى لقائه . وكانت الوقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، فانتصر المصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيروني وعاد الإمبراطور معلولا فقتله بعض منساعه بحرية صغية حزاء له على تلك الطريقة المشهورة . وفي سنة ٢٤٤ أعزى معاوية الأسطول الشامي جزيرة رودس ، واشترك في الغزو الأسطول المصري بقيادة عقبة بن عامر الجهمي ، ففتح رودس عبوة (البلادى ٢٤٤) وفي سنة ٤٩ كانت الحملة العنيفة التي أعدها معاوية لغزو القسطنطينية ، وغر فيها أسطول كبير وعدد من صناديقهم أبو أيوب الأنصاري . وقد استولى هذه الحملة لأسطول مصري بقيادة عباس بن سعيد المرادي . (الكندي ص ٢٩)

ويذكر في هذا الصراع عمل مصر على تزعج جزيرة إفريطش من أيدي الروم . وذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصري أو ثل الفريق الذي حدة من مع حرة لأنداس بمن أحلام الأمير اعلم فيهم ثوره ، ومن المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجهه شطر مدينة فاس التي كانت تؤسس في ذلك الوقت فزلم لإدريس بن عبد الله بها واتبع مكديتهم في الصعدات الخسفة . أما سائر المهاجرين فتبعوا السير شرقا حتى دخلوا مصر في وقت اضطرب أمورها بالفتنة بين الأميين والموالي . وسقطوا احتلال الإسكندرية بصح عشرة سببه إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون ، فحاصرهم بالإسكندرية حتى ريو على حكمه ، ثم به أعانهم سمن ومال وسلاح فساروا إلى إفريطش سنة ٢١٢ هـ فاحتلوه برعاية أبي جعفر عمر بن عيسى الأندلسي .

الزعماء السياسية :

من ذلك رى إلى أي حد أسهمت مصر في حركة الفتوح الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما في أمر المغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الخروب العربية البيرونية . وقد جرت مصر في ذلك على ما نرى من تاريخها قديما وحديثا . وفي وسعنا كلما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر المتوسط بحسبها في الميزان الدولي كل حساب . ولم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد انتصحت مكانتها في الفتوح الكبرى عماى عن

مجرى الأحداث السياسية والانقلابات العامة التي رخت الدولة الإسلامية رجاً عميقاً ، والحق أنها تلحظ أثر مصر بارزاً في أشد هذه الحوادث وأحررها . ولابد أن الفتنة الكبرى التي كان أظلم أحداثها مقتل الحسينة بنت عثمان .

لا يريد أن يحوم في هذا الموضوع في أسباب هذه الفتنة فقد احتطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصية القوم له بنية الحريش . ولكننا نادر إلى القول إلى أنه قد يكون عجباً من إعجاب أن تشرك مصر في هذه الفتنة . فهو في بادئ الأمر من إثمها ، مع أنها في ذلك وقت كانت أروع تأييد الدولة الإسلامية حلاً وأحسن إدارة . وقد صدرت عن السيدة أمية هي في طاعة السب في قتال مصر على عثمان ، تلك عز عثمان أمه وبن له من عن مصر . وإيمته مكانه أحد أقرانه وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعمرو بن لحي بن مسعود ، ورجل للشركاء رجح للخير . ولم يعطن الحليفة الثالث لذلك عدم عز عمراً من مصر ، كما فعل له من عدم معاوية . أحل فقد أقم عمرو على حدود فلسطين برف لأخوه ونزل على عثمان في الحجاز وفي مصر . ثم يتهتم الخطاب ، ومعهم في الفتنة في عروبة ذات الصوري نفسها ، وتأتي مصر دعوة الداعين إلى الخوارج ، لا سيما وراء النور ، وسكن في المدينة نفسها ، فتخرج من مصر عصاة مؤمنة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عيسى الدوي وكثيرة من بشر لتعطي ومحمد بن أبي بكر الصديق . ودارلون يدفع الحليفة بأعوان الأسر فيني ، فيجرون عليه ويحاصرونه في داره ، ثم يقتحمونها عليه ويقتلون الشيخ هرم والصحابي الجليل وهو يقرأ في مصحفه (١٨ دى الحجة سنة ٣٥) ويعود انصاريون إلى مصر بعد أن ولوا على أن أي طالب الخلافة ، عادوا وهم يرتحمون :

خذها إنيك واحذرن أم حسن أما عمر الأسر إسماعيل الرمن

وطامن الملك بلين كاشطن ياسيف كي محمد بيران الفتى

ولكن الرواية لم تتم فصلاً ، فقد انصدعت حقن عثمان وحدة الدولة الإسلامية وانقسمت إلى معسكرين متعاضدين ، معسكر على وحشمه ، ومعسكر معاوية وحزبه . ولقد أخذت مصر جانب على بطبيعة الحال في هذا الصراع العنيف ، وحسنت تتقبل عماله راضية ، ولكن معاوية كان أدهى من ألا يعطن إلى أهمية مصر وضرورة حصوله

عليها ، فأحد يشجع الأنبياء المعروفة فيها ، فتنبية ، كما جعل يتخصص من عماد عليّ على مصر بواحد هو الآخر ، الحيلة تارة والأعيان أخرى ، إلى أن ظهرت مبيحة التحكيم ولم تكن في مصلحة عليّ ، فأرسل معاوية سنة ٢٨ عمراً إلى مصر عن رأس جيش فابصرها من يد محمد بن أبي بكر عامل عليّ ، وإن ذلك بعد وقعه هائلة حادف بيوم المساء ، عدداً عمرو أهول وقعة حاص عمرو على كثر ما شهد من بؤساء من قتل وتظهر وقعة الخوارج ، ويجمع لهم على عيين ثلاثة بدين كانوا في نهرهم سب كل الهلاك ، وهم : عليّ ، ومعاوية ، وعمرو ، ويقتل عليّ ، ويحوي معاوية وعمرو ويستقر أمر الخلافة لمعاوية في سنة ٤١ هـ .

ولكن مصر عصي في محاصرة الأمويين ، فعندما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبنو أمية أحدثت مصر حاسب عبد الله بن الزبير وباعته ، خلافة ، ولكن ما هي إلا أن انتصر مروان بن الحكم في وقعه لمرج المشهورة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزعها من عامل ابن الزبير .

ودان المصريون الأمويين مكرهين ، فقد ظهرت لدعوة العباسية ث دعائهم الدعوة للمباسين بمصر ، فاستجاب لها المصريون بوجه عام ، ذلك لأن المتأخرين من حنابلة بنو أمية هموا بالمصر الذين التمسوا الذي كان يشد معكمهم ، فاعترف عنهم الياسون ، وهم جبهة عرب مصر وطردوا ذلك في وقعه لزار إلى هرم فيهم مروان بن محمد وفرقوا على أثرها إلى مصر وجيوش عباسيين ، فقتله ، وبعد جمع المصريون على بيع مروان من حول مصر فاضطر إلى دحونه عنهم ، وحكمه كان قد عاصمت به لأسباب ودركة العباسيين في بوسير من عمال الأمويين وقتلوه ، ومصر بين لم يصدقوا عن الأمويين وقاموا في مصرتهم قبلها حادف لتغير مجرى حوادث في أعين لطل عيراً كبيراً

لم يكفد لأمر يستقر لدى العباس حتى رهبته ثورة عظيمة قام بها العباسيون من بني الحس من عليّ بن أبي طالب ، فقد قهره ، ثورة ، وحدث سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحنفي الملقب بالعباس بركة ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالعراق وعاقم لأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور ومجرد له تمرداً تاماً ، وثبت الدعوة في مصر للعلاويين

فاستجاب له المصريون وحلف المشهور بصلح الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالحجر ، فأمسك حنينح أمير مؤسسي التوصل بين النيل والبحر لأحر . ولكن حركة العلويين بالحجر والعرق ماء بالحمل وغلبت أربعين العلويين على أسرها وقتلوا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية في مصر (سنة ١٢٥٠)

ولما وقعت الحرب بين الأخوين لأمين وشمون انقسم المصريون حزبين أحدهما مشايخ لأمين والآخر لشمون . ووقعت الحرب فعلا بين حزينين ولم ينقضي حروبها في مصر إلا بعد ما بلغ مصريين مقتل الأميين سنة ١٢٩٨ . ولكن المصريين من مشايخ أن ثاروا بالأميون وحملوه عند ما بلغهم بأن أحدهم البيعة ولأية إمام على الرضا العلوي ، فلما بلغهم موت علي رضا وعمدال إبراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة في بغداد انحلدوا إلى السكون

بقى الحدث الأخير والخطير لقد قامت لدولة العباسية على أكتاف الموالين من عمه ورس وحراسه ، وواقع أن انتصار العباسيين على لأمنيين كان انتصاراً للمع على العرب وإيداناً بدهاب نفوذ العرب السياسي ولا شك أن ذلك كان الحاضر لأول نوات العرب طوال العصر العباسي الأول في العراق وشمون ومصر ، ريث انحدت هذه الثورات صوراً شتى كما رأينا . ثم كانت الحامية منتصم فكيف للنفوذ العربي المصرية العباسية . وذلك بعد أن تمكن له جيش تركي قوي ، فسيطرت العرب من الديار ، وانسحق قطع عندهم وكتب بذلك في عامله على مصر عرس من عند الله لمكتب تكبير ، فبعد كمد رأس الحدية من السكبي . ولما طلع امطاء خرج معي من لوزير اخرون في جمع من لهم وخدم وقال هذا أمر لا يقوم في فصل منه لأنه بعد حقد و... مشيخ بيه نخوم حربية ولكن كل هذه السمات إن كانت قد انحست عن شيء فبما انحست عن تحول حطائر وضع مصر ليسى . فندشحه مصريون بقوتهم وبسبه وعصبه العلوي . حدوا يمشون على الاستقلال شوقهم له حله عن أقل تقدير ، والذين عمو ذلك . أسرة عربية مصرية تعرف بأن السرى من حكمه كانت أممو مصر بجمع من مصر انشقى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك نهضة لاستقلال مصر فعلا عن الدولة العباسية وقيام الدولة الطولونية في سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية :

لا شك أن الحركة الفكرية من أحال حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وما يستتبع بالتراث الضخم الذي خلفه ما ذلك العصر الزاهر في ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم ، الحركة الفكرية ردهرت في الشام والعراق بحكم أهميتها ، كما مقر أخلاقه الأموية والعسفية . ولكن يبقى ألا نعظم مصر بصيبتها من هذه الحركة ، فالحق أن القسط طغت بيثة عمية تدرك المصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه جامعهم بدر من باب الحداث ونفقه كما تدرس الآداب العربية

أما الحديث فقد هبط مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدركوا رسول (صلى الله عليه وسلم) وشرفوا بصحبته والسمع منه ، فكانوا رواة بعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون بعد . من هؤلاء عمرو بن العاص وقد روى عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن أمية ، ورواه عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب ورووا عنه ثمانية حديث ، وأبو أيوب الأنصاري وهم عنه نعمة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عمارة ، وحاتم بن عبد الله الأنصاري ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير معينة العدد ، وأصالة بن عبيد الأنصاري ، وهم عنه نحو عشرين حديثاً ، وعقبة بن عامر الجهني الذي تولى إمرة مصر وهم عنه نحو مائة حديث . وبعث ابن عبد الحكم في تاريخه بعض على ما نورد هؤلاء روايته من الأحاديث وما شاركهم فيه غيرهم من محدثي الأقطار الأخرى ، وهو بحث علمي طريف . وذلك أنهم المصريون في جميع سنة الرسول (ص) وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن . فما ابتدأ تدوين الحديث النبوي بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية المصرية ذات محل بارز في كتب الحديث التي ظهرت ابتداء من القرن الثاني الهجري .

والقرآن والحديث هما مادة الفقه الإسلامي الأساسية ، ولا شك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤدياً لأبحاث إلى اشتغالهم بالفقه . وقد نذكره أن نظاماً محكمة للقضاء قد قام في مصر الإسلامية من أواخر الأمويين ، وأن القضاء كان لا يتولاها في الصدر الأول إلا الراسخون في العلم بالكتاب والسنة والقانون على الاحتياط والاستسباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة الفقهية قد

تسكملت وصائلها في مصر في زمن مبكر لا يكاد يبدو أوائل القرن الثاني ، وذلك مستفاد من ظهور طائفة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين دفعوا دراسة الفقه مكانه عيب . يخص منهم بالذكر « الإمام الليث بن سعد » المتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فقيه مصر وعلمها ، ولد في قنقشدة ، وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكتابه في مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة المنصور ولاية مصر فبأها . ثم « أما محمد عبد الله بن وهب » المتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى فقيه مصر » . ثم « الإمام الشافعي » المتوفى سنة ٢٠٤ ولد مرة من أرض الشام ونقل في لأقطار الإسلامية ، وفي الإمام مسكنا ، وأحد عنه « ماوطأ » ورحل إلى العراق غير مرة ، ودرس مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ واستقر بها ، وفيها كتبت موهبه الفقيهية ، وأملى على تلاميذه نخام القضاة كتبه الخريدة التي يعرفها « بالقول الجديد » ويجمعها « كتاب الأم » ، وهو مذهب الذي أداه إليه اجتهاده في مصر .

ثم « أما محمد عبد الله بن عبد الحكم » المتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وولده محمد وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » مرتلة عالية في العلم والجد ، وكان صديقا للشافعي وعليه رل الشافعي حين جاء مصر فأكرم مثواه وبلغ العلية في إكرامه .

ولا يغوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبري ، شيخ المؤرخين والمفسرين وقد على مصر مرتين في سنتي ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علمه القضاة ، وحررت له فيها مواد ذكرها ياقوت في ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بحقق القرآن مشرفا لهم فقد امتنعوا عن متابعة المؤمنين والمتصم ولوثق في حقون بحقق القرآن ونقوا من حراء ذلك القول والحس والتشهير ، ولكنهم احتملوا كل ذلك في صبر وإباء حتى انحلت العمة بحجاء التوكل وأبطاله امتنع الفقهاء والعلماء في مسألة القول بحقق القرآن

ذلك مبيع تقدم العلوم الشرعية في مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجري وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر في تحرير علوم الحديث والفقه بذكر لم يميز الإيجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تطلع في مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

نماء لم تصل إليها دواوسهم كاملة للأسف أمثال مُعَلَّى الطائي ، وسعيد بن عفير ثم أبا
اجتهدت إليها طائفة من كدر شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبي نواس ، ولا
سسى أن الشاعر المبدع أبا تمام الطائي نشأ وروى في حاضرة عظماء .



ذلك مبدع ما أسهمت به مصر في الأحداث العامة في الدولة الإسلامية حتى منتصف
القرن الثالث ، ومنه نتبين أن مصر شاركت في كل ماضي الحياة العامة من حيث الفتوح
الحرية والحوادث السياسية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أزرر شخصيتها وكشف
عن جلالة قدرها وحطرها وهما لها السيل إلى أن نصبح بعد في العصر العباسي الذي دولة
إسلامية قوية أثرت في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ أجمع الآثار وهو عهدنا بين
ذلك بحث آخر ومقدم آخر إن شاء الله .

القسم الثاني
المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ - ٩٨ هـ

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاضح الحروب والأندلس ، وناشر الإسلام والملة العربية فيهما والمهد لقيام الحضارة الإسلامية في هذين القطرين العظيمين .
وشخصية موسى بن نصير يجمعها انموذج من كثير من نواحيها ، كما أن سيرته تدل على القصص وأحاديثها قصة للجيل منها حظ غير قليل ، ولكننا نقصر حديثنا على الثابت لمدينة من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل بطنية العراقية ، أسره خالد بن الوليد في وقعة عين التمر سنة ١٢ مع فتيان آخرين كانوا في بيعة يتعلمون الإغريق ، والده هو أن نصير أسلم عند الأسر ، ثم انتقل إلى الحضر ودخل في قبيلة حم لخمية ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى في سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب . ثم بعد نصير بعد في الشام ثم حيل معاوية ، فلما عزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبي طالب لم يخرج معه نصير محرراً ، وقبل معاوية عذره ، ولم يكرهه من الخروج معه .

عاصر موسى في حياته أحداثاً حساساً ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين علي ومعاوية ، وثورة آل الربيع وكان في موسى طموح ونشاط في المجد شديد ، ولم يمر على سنة أيه من بعد عن السياسة ومحركاتها ، بل حرص عمرها ، فأخذ حبيب عبد الله بن زبير ، واشترك في وقعة المريج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة هزيمة أنصار ابن الربيع وأنصار مروان الأموي وحزبه ، كان موسى من بين الذين أراد مروان ضرب أعناقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار بعبد العزيز بن مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعته . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أصبا الأمويين إخلاصا لهم ولدولتهم .

ويقول الخليفة بعد مروان اسمه عبد الملك ، فظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن في العراق لا في الشام . وفي البصرة دعات فقد تدخل أول الأمر في المناقشات الحربية لشدة إدراكه بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية معروفة ودات اعتبار خاص . ثم برز به الخليفة حرج البصرة فنتهم بأنه احتجب مالاً من مال الدولة وتشتد عليه وطأة الخراج أمير العراق بإيعاز من الخليفة . ولا بد من دفع هذه التهمة من الصحة فذهب الخليفة في أحداث الحربية عشية إدراكه في الموصل (ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر وحنى مرة أخرى بعد أمر من مروان ونحف الأمر إلى الخليفة ومعه موسى بن ميمون سأل أن يحمل الأمير عن موسى نصف ابن الطوبى ، ثم هود إلى مصر ومعه صاحبه .

في ذلك الوقت ، أي في أواخر العقد ثامن من القرن الأول الهجري ، اضطربت أحوال العرب وتفتتت البربر وفقدت أمور تلك الأقاليم ، هذا إلى أن العرب الأقصى لم يكن قد فتح بعد . رأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر العرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاة عليه ولاية عامة في سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وذلك لولاية شرع موسى يحيط صفة محله وفخاره الباقي على زمان .

كان موسى إذ ذاك قد استعصمت به ، وبصحت مواهبه ، ونعت تحاربه ، فأقبل على عمله الصعق مهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستعيناً في جميع أمره بمائته المحبب عبد الله وعبد العزيز ومروان ، ومرحال من البربر اصطفاهم واصطنعهم بصلوة الولاء أمثال طارق بن زياد وطريف ابن مالك . فجمع قسمة البربر في شيء من العنف والشدة ، ثم استألم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حملهم والعرب على العرب الأقصى ففتحهم ونشر فيه الإسلام والامة العربية ، وخطط لبربر العرب وعامتهم جميعاً معاملة واحدة ، وهي سياسة حكمية لم تكن إذ ذاك متبعة في المشرق . وذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة حصته عند عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن الفرصة في أمر إسبانيا لم تسنح بعد ، فيترك أمرها مؤقتاً ويعود إلى مقر إمارته بالقبروان ، تاركاً مولاه طارق بن زياد في طليعة ومعها حامية قوية ليرقب الأحوال وينهى إليه ما عسى أن يكون من تطور الأمور .

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت في حال اضطراب سياسي وإحلال عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة الشرعية وعلى رأسه رجل يقال له يليان وفريق آخر يمثل « لدريق » الذي اغتصب الملك اعتصاماً . فجاء ممثلو الفريق الأول إلى طارق يلتمسون منه المساعدة ، ويهتفون عليه أمر الأندلس ، فأحاطهم طارق على مولاه موسى ، فأدرك موسى أن الفرصة في أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في عزو إسبانيا ، فحماه الوليد بالإذن على أن يلتزم الخليفة والاحتباس الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاحتبر السواحل الإسبانية بالسرايا ، سرية إثر سرية فجاءت بنتيجة احتباره مشجعة له على الشروع في العزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوى أكثره من البربر وأقربه من العرب ، فحل طارق بالصخرة التي عرفت بعد « بحل طارق » ثم تقدم عبراً والنقى لدريق في وقعة البحيرة في رمضان سنة ٩٢ ، فهزم لدريق ويقتل فيما يقارب وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم رحل طارق من فوره نحو طليطلة عاصمة الدولة القوطية فدخلها عسوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن يهزم نفسه لإنعام ما شرع فيه من الفتح وليتفادى ما عسى أن يحل بطارق وحشده بعد أن أوعى في أرض المدو . فركب البحر في سنة ٩٣ في أسطول كان قد أحده في إعدادة عند تسييره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها طارق ، وفتح مدناً عظمت ثم التقى بطارق في طليطلة ، ثم سار ومعها طارق يفتح الأقاليم الشمالية الشرقية حتى نبع حلال البراس المنحرة بين إسبانيا وفرنسا .

والمحبيب من أمر موسى ، وهو شيع قد أربى على السعين ، أن يهزم بأن يعبر حبل

البراس ويسير مشرقاً فاتحاً كل ما يعترضه حتى يستولى على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

وبينغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه طبيعة الحال لإسرائيل وتغريباً ، فيستدعى الفاتحين موسى وطارقاً من فوره إلى الشام . فلا يسمع موسى إلا أن يصدع بالأمر فيخرج سنة ٩٥ فاصداً الشام ، ومعه من الغنائم والسبي والأسرى ما لم يسمع مثله في تاريخ الفتوح العربية .



كان من حق هذا الفاتح المظفر والشيخ الكبير أن يسم في القية البابية من عمره نسمة الراحة والهدنة ، ولكن أيت عليه الأقدار ذلك ، قالوا : إنه لما بلغ موسى في طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرض موته ، فكتب إليه ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه عدم العجلة في السير حتى يتوفى الخليفة ، فتصير إليه الأموال التي مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وفاته ثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الانتقام من موسى لعصيانه أمره ، فأقبل بحاسه حساباً عسيراً وطالته بأموال جسماء هجز موسى من أداؤها فجعل يعذبه ، ثم إن موسى استجار بربيد من المهلب وكان أثيراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن اقتدى موسى نفسه بحال عظيم يؤديه ما عاش . وظل موسى يستعين قومه من غلم وأحياء العرب على أداء ما ألزم به حتى أدركه الموت في ودي القرى سنة ٩٨ هـ . ولقد عدت مكتبة موسى هذه من سيئات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكانت في الحق كثيرة .



هذا هو الجانب الأعم والأشهر من سيرة المظفر الفاتح موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالعدل والورع والتقوى والشجاعة ، وأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه بسلامة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن والإحاطة بالمعارف السلطانية من حرب وإدارة ومياسية ، وتصفه فوق ذلك كله بأنه تابعي حليل روى الحديث عن نعيم الداردي ورواه عنه هو آخرون . ولكن أسراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، في سبيل الواجب قام عما قام به
من الفتوح العظام ، وفي سبيل الواجب احتمل ما احتمل من الأذى والضّر

قالوا : إن يريد من الذهب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له . « يا أما عبد الرحمن !
في كم كنت تعتد ، أنت وأهل بيتك ، من الموالى والخدام ؟ أمكوبون في ألف ؟ » فقال :
عم ! وأب ، ألف ، إلى منقطع النفس ! « قال : « علم ألقىت نفسك إلى التهكة ؟
أفلا أقت في قرار عرك . وموضع سلطانك ؟ فقس : والله ! لو أردت ذلك ، لما قالوا من
أطراف شيئا ! ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! »

أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد مال بطغيانه وجبروته من مال موسى
وبذنه ، أما بعد موسى ، وعطية موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن يتال مهما سالما

حديث

الفتية المغررين من أهل لشبونة*

كان حماديو الأغريق مندوباً أن الأرض المصورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أقيانوس » ، وقد تابعهم حماديو العرب في اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذي يحيط بالمصورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر العذات ، والبحر الأحمر ؛ كما قسموه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمالي وحتوبي وشرقي وغربي .
والحيط العربي هو الذي تسميه الجغرافيا الحديثة بالحيط الأطلسي أو الأطلسي .

لم يخرجوا من القدماء على النموذج إلى المحيط العربي ولا يبدل فيه إلا الفيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطحيون أهل قرطحة ، فهم الذين نفذوا إليه ، وركبوا ثبجه ، ولجئوا فيه شمالاً حتى الجزائر البريطانية ، وحتوباً حتى مسطط حليج عانة العظيم ، ولما لاح القرطحي (هو) القذح المائي في كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكن يمتكر الفيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بحيرات جزائره وسواحله الأوربية والأفريقية ، ويمنموا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أبحار الناس واسترهبهم بأباطيل لفقوها عن هذا البحر وأداعوها ، فقد صوروه بحراً عظيماً الأهوال عانى الرياح ، يركبه ظلام حالاك ، ويسبح فيه كائنات متكررة الأشكال ، وتعمر حراره التناين والأعول والسعال ، وتستقر في حوفه راكبين تقذف يانثار اللحم والدهن ، وأنه نهاية المصور ومقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراءه مطعم لطامع

ولقد عمل هذا التخويف والإرهاب عمه في ملاحى الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فتحموا ركوب هذا البحر المخوف ، وقصروا نشاطهم التنحري والاستعماري على البحر

الأبيض المتوسط . على أن هذه الأراحيف لم تمنع الحيلال الإغريق من تداول هذا البحر والذهب في صورته كل مذهب . فقد تنقوا هو ميروس بغروب الشمس في لجة هذا المحيط ، كما قرأ أطلانوس في بعض حوارياته أنه كان في هذا المحيط لعرى جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة عزت أراضي البحر الأبيض المتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أثينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جهوى شائى ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة أقصى أسرها من طغى عيبها البحر فغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلسى ظل لمرأ عاصماً يستثير أعجب الأنحيلة وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب في القرن الثالث الهجرى من أرض المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا عملاً شرفين على هذا الحصن العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الحارقة لرد عادية أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ تقدم يقدمون على ركوب البحر المحيط في غير خوف ولا وجل ، ويمررون الشيء الكثير عن سواحله وجزائره ، ويصفون كل ذلك وصفاً لا بأس به في جملته .



ومن أعجب ما يروى عن عرب الأندلس في هذا الصدد حديث فتية من مدينة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، شافهم الجيول من البحر المحيط العربى ، فأحبوا أن يقيموا على مدها ، ويحلوا الصمص من أسرارها ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال رأوها ، وقصوا حديث حنتهم على أهل بلادهم .

واقعد أورد الشريف الإدريسى خلاصة حديثهم في كتابه « روضة المشتاق في احتراق الأفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج عشرين في ركوب بحم الضمات ليعرفوا ما فيه ، وإلى ابن تهاؤد ولهم بمدينة لشبونة موضع من قرب الجفة درب منسوب إليهم يعرفه بدرب العررب إلى آخر الأندلس ، وذلك أنهم حتموا ثمانية رجال كلهم أساء عم . فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من ماء والزاد ما يكفيهما لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس

الريح الشرقية (أى هبوبها ؟) ، فخرجوا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غيبظ
الموج كندر الروائح كثير التروش (الصغور التى لا يكاد يستترها الماء) قليل الصوء ، فأيقنوا
بالتلف ، فرددوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجرؤا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ،
فخرجوا إلى جزيرة الغم ، وفيها من الغم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى
لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة ، فزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعندها شجرة
تين رى ، فأخذوا من تلك الغم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ،
فأخذوا من حلودها ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً ، إلى أن لاحت لهم جزيرة ،
فنفذوا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فإذا كان غير بعيد حتى أحيط
بهم في روارق هناك ، فأخذوا وجمعوا في مركبهم إلى مدينة على صفة البحر ، فأرلوا بها في
دار ، فأروا بها رجالاً شقراً زعموا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبلة ، وهم طوال القدود ،
ولسانهم حال عجيب . فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام ؛ ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل
يتكلم باللسان العربى ، فسأله عن حالهم وهم جاءوا ، وأين لهم . فأخبروه بكل خبرهم ،
فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجان الملك . فلما كان في اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا
بين يدي الملك ، فسأله عما سألهم الترجان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجان بالأمس من
أنهم اقتنحوا البحر ليروا ما به من الأحبار والمعائب ويقعوا على سباهته . فما علم الملك ذلك
ضحك وقال للترجان : خبر القوم أن أسر قوماً من عبيده ركوب هذا البحر ، وأسلم حروا
في عرصه شهراً إلى أن انقطع عنهم الصوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .
ثم أسر الملك الترجان أن يمدح خيراً ، وأن يحسن طعمهم بالملك ، ففعل ثم صرفوا إلى
موضع حسهم إلى أن بدأ جرى الريح العربية ؛ فعمرهم زورق وعصت أعينهم ، وجرى
بهم في البحر برهة من لدهم ، قال القوم قد رآنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بليديها حتى جئنا
بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتبنا إلى حلف : وتركنا بالساحل إلى أن نصل إلى النهر ، وطلعت
الشمس ، ونحن في صك وسوء حال من شدة البكتاف ، حتى سمعنا صوصاء وأصوات داس
فصعدنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إينا فوجدونا تلك الحان النيسة ، فخلونا من وثاقنا وسألونا ،
فأخبرناهم بحبرنا ، وكانوا رار ، فقال لنا أحدهم : أنتمون كم يتسكم وبين بلدكم ؟ فقنا لا ،
فقال : إن يتسكم وبين بلدكم مسيرة شهرين فقال زعيم القوم : وأسنى المكان

إلى اليوم « أسنى » وهو الرمي الذي في أقصى الغرب .

ويتم الإدريسي حديث هؤلاء الفتية في موضع آخر من كتابه عند ذكر جزائر المحيط الأطلسي فيقول : « وفي هذا البحر أصلاً جزيرة الأخوين الساحرين الذين يسمى أحدهما شرهام ، والثاني شرام . ويقال لهما كانا يهده الجزيرة يقطعان على المراكب التي تمر بهما بطاسهما ، ويهلكان جميع أهلها ويأخذان أموالهم ، فسخ الله بهما نفلهما ، وبقيتا حجرين على صمة البحر قائمين ، ثم عمرت هذه الجزيرة بالناس ، وهي تقابل مرسي أسنى ولهذه الجزيرة قصة عربية أخبر عنها المنفرون من أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها عركهم » .

ويؤخذ من سياق كلام الإدريسي أن هؤلاء الفتية كتبت لهم السلامة وعادوا إلى بلادهم ، وحدثوا أهل لشبونة بما رأوا وعاشوا في رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا في هؤلاء الفتية بمد كل الذي سمعوه منهم إلا رجلاً مغريراً محاطرين ، وسموا الدرب الذي فيه دورهم بدرب المغررين .

• • •

ومهما يكن رأي أهل لشبونة في هؤلاء الفتية ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريف حقاً ، ورحلتهم هي الأولى من نوعها بعد رحلات العبيثيين القدماء . ومعالم قصتهم صحيحة صادقة من الوحة العلمية قاطعاً منهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوماً متجهين شمالاً إنما أصبحوا في محاذة لإرلدة ، فما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب اثني عشر يوماً وبنوا الجزيرة التي سموها جزيرة الفهم ، إنما بنوا الجزيرة المسماة الآن عاديبرا . ويذكر العلامة دافراك نقلاً عن العالم الطبيعي رتلوا أن يهده الجزيرة كثيراً من الممرات تنوع من عشب هذه الجزيرة هو السب في مرارة لحومها . أما جزيرة الأخوين الساحرين الذين سمعنا حجرين فهي الجزيرة التي تعرف الآن بجزيرة (لسوت) وطرورها الشالي صخرتان متقابلتان هما القتان تحدث عنهما الفتية في حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هي في أغلب الظن التي جرى للفتية مع ملكها الحديث الذي قصه الإدريسي .

وكما ذات معلومات الفينيقيين والفرطنجيين عن البحر المحيط وجزائره في أوهم القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك دانت معلومات هذه القصة في أوهم أوربي المصور
الوسطى ، وظهر ذلك واضحاً في القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة
مزعومة تصاف إلى راهب إيلندى يعرف بالقديس براندان

كان هذا الراهب من أهل إرلند ، وقد عاش في القرن السادس الميلادى ، ويسبون
إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله ميادة لصالحى القديسين ، والتى توهبها جزيرة من
حرار المحيط الأطلسى . فأعد سفينة شحها بالزاد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه
الرهبان ، ثم صرخوا بها فى عرض البحر ، فبلغوا جزيرة الصم وجزيرة الطيور (لكثرة
عابها من طير الماء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعانوا من المحائب والغرائب الشئ
الكثير : من ذلك حريرة حردها طمسوا إليها ، فلما أوقدوا بها ناراً للإصلاح طعاهم أعترت
هم ، فأسرعوا إلى الفرار منها ، فإذا هى حوت عظيم راكد على سطح الماء . ومنها أنهم
عابوا طائراً هائلاً يمتطى الوحوش الكبار . ثم يعود الراهب وأصحابه من رحلتهم هذه
إلى إرلندة ، ويقصون على قومهم ما رأوا وعابوا

ومع أن الراهب براندان من أهل القرن السادس الميلادى ، فإن قصة رحلته المذكورة
لم تظهر إلا في القرن الحادى عشر . وقد أبى من دوا أحبار القديسين أن يسجلوا هذه
القصة ، واعتبروها حديث حرافة ، وانزع أن قصة الراهب الأيلندى ليست إلا قصة الفتية
المررين التى ذكرناها مع ما أصيب إليها من أخبار عجيبة أحدثت من أسرار السندباد البحرى
المشهوره فى قصص « ألف ليلة ويلة » ، وذلك لحكاية الحوت الذى طنه الراهب جزيرة ،
وحكاية الطائر المائل الذى هو (الرخ) فى قصص السندباد .

• • •

أما بعد ، فقد جرى فى أوربا — فى القرن لاصى — جدل شديد بين المؤرخين ، مداره
أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف عواممه : الجنويون
أم القريسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن المحيب أنه لم يذكر من هؤلاء المؤرخين دأكر أن
هذه الشعوب الثلاثة قد سقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف عواممه بثبات السنين ،
وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « الفتية المررين » من أهل لشبونة .

زرياب المغنى *

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها المعنى والاجتماعى ، فلا شك أن أضرب صفحة في ذلك التاريخ المجد وأعجبها ، قد تكون صفحة أى الحسن على بن نافع المعنى الملقب بـ « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .



فتح المسلمون الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والتركية في سهولها وحزوها ، ولسكنهم طغوا حتى أواخر القرن الثانى بذاة جماع ، كلما اجتمعت كلمهم لم يبتشوا أن تفرق بينهم الإحسان والعداوات المبعثة عن العصبية القبلية . فكانهم لا يراون صابرين في هضاب محدوسهون نهامة ومداوزة رقيقة وشعابها ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتندسق فحصل مجهودات المقدمين من أسراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فطلت على ما كانت عليه بذاة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامى في ذلك الزمان ، فقد استعمر فيه لعمري وبعث المدينة الإسلامية فيه عاينها ، وعلق فيه ذوو الدعة والبسار بأسماء المكالي من شئون الحياة بعد أن استكفوا الضرورى والخاص منها على حد صغير من حدود . وقد ساءهم في ذلك عامل الدين وعامل المارح معاً . فأما المعتدلون منهم فكانوا يستمدون إلى أن الدين الإسلامى دين يسر يحب من مؤمن أن يكون هيناً لنا موفور الخط من الظرف والكياسة غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا وأما المنتظرون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما حسهم يؤثررون العاجلة ويحرمون على لذة الحياة الدنيا ومعها ، أيا كانت الطرق لموصلة إليها

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرسطراطية ، مرهقة الأذواق ، رقيقة الطباع ، ترى في الموسيقى ومحاسن الأس والطرب وحفلات السر حير ما يفتقون به غلة تلك الأذواق المرهقة والطباع المترفة . هذا هو السب المباشر في تقدم صناعة العناء في ذلك الزمان ، وبلغها العتبة على أيدي إبراهيم بن المهدي ، وإبراهيم الموصلي ، وأنه إسحق . وهذا هو السب كذلك في استفاضة محاسن الأس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي عامة وبغداد خاصة ، وفي بلوغ هذه المحاسن درجة من التألق يمكن تصورها إذا عرفنا أهم وصموا لها آداباً كانوا يأخذون بها من يحصرها من الدماء ، والجلساء ، والسيار .

من ذلك أن يكون العناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصنفة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والبراقين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً خفيف الروح ، حاصر النديهة ، قادراً على قول الشعر وأرتجاله ، فصلاً عن تدويعه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

إلى هذا الشرق اتجه أسراء بني أمية الأندلسيون ، وهم أبناء حلائف دمشق ورمصفها ، يستهدونه فديمين ومعهين يهدون ما غنط من طبايع العرب والبربر والمولدين ، ويظلمونها جميعاً في سق واحد . وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المعين أمثال هلون ، ورفقون . ولكن زرياباً كان أعظم هؤلاء جميعاً وأسلمهم أثراً



كان أبو الحسن علي بن نافع مولى للحبيفة المهدي العباسي ، وسيرة لونه ورقة شمائله لقبوه زرياب ، تشبهاً له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تكاملت لزرياب كل أسباب السوء والتفوق موهوبها ومكسوسها ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عارفاً بالمجون والأقاليم ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان إلى العناء أميل وبه أشغف . وقد درسه علما في كتب الأقدمين من حكماء اليونان ، وعلموا على استباده إسحق الموصلي زعيم المعين في ذلك الوقت ، ولشدة اقتدار زرياب بالموسيقى كل تفكيره فيها لا يكاد ينفطع حتى أنه يلهيهم « النوبة والصوت » وهو « ثم فيهم من يومه مسرعاً ، ويقيد ما وقع به أو يلقيه على جاريته عزلان وهنيئة ، ثم يعود إلى مصححه عجبلاً ، ومن ثم قيل

إنه كان يأخذ الخنا من الجن كما قيل في إبراهيم الموصل نفسه . قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأعاني يأخذها . ولم يأل زرياب جهداً في أن يأخذ معه بالأدب الرفيع والسلوك العالي المصطلح عليه في البيئة التي كان يعيش فيها ببغداد ، بيثة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية .



ويدكرون أن السب في هجرة زرياب من المشرق إلى المغرب ، أنه عي يوما في حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة بصناعته وظرفه وطلب إلى إسحق أن يعي به حتى يرفع لسماعه . ولكن إسحق لم يبد أن تحركت في نفسه عوامل الفيرة والحسد والحقد على تلميذه ، فخلاً به وحيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم بغداد فيعرض حياته للهلاك وممته للنف ، وبين أن يذهب في أرض الله العريضة فيسبحو بحياته ، ووعد إذا هو اختار ثاني الأمرين أن يعينه على الرحيل ، شاء من المال وغير المال ، فاختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، وولى له إسحق بما وعد به من المعونة .

وتذكره الرشيد بعد أن فرع من شعله اندى كان مسكاً فيه ، وطلب إلى إسحق إحصاءه فقال : « ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذلك علام مجنون يرع أن الجن تكلمه وتطارحه ما يرمي به من غائنه ، فما يرى في الدنيا من بعده ، وما هو إلا أن أعطات عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقد التفتير به والنهوين لصناعته ، فرحل معاضياً داهياً على وجهه مستحياً عي ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لم يشاء ويعرط حيطه ، فيزع من رآه » . يقول المقرئ « فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به فقد طأنا معه سرور كثير » .



خرج زرياب من بغداد يوم المغرب ، فلما كان بأفريقية اتصل بصاحبها ريادة الله الأغني . ولكنه لم يطلب له انقام بها ، فرحل عنها إلى المغرب الأقصى ، وهذا كسب إلى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأدنه في دخول الأندلس والصيرورة إليه ، فادن له الأمير في ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر إلى عدوة الأندلس

وبينا هو متأهب للرحيل إلى قرطبة إذ سمع نواقة الحكم ، فهم أن يعود أدراجه إلى العرب
لولا أن كتب إليه الأمير أحمد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويمنحه أن يديه كل
ما تصبو إليه نفسه من مال وجاه ، فقدم عليه ردياً . ويروون أن عبد الرحمن احتفل
لمقدمه أعظم احتفال إذ حرج معه من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع عهده وحديثه حتى
شعبه ، فعمره بمصلاه ورجائه ، وأخرى عني من الزواجب والأوراق الشيء الكثير ، حتى
كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر العيين ، وبلغ من شدة شغفه به
أن جعل في قصره مأناً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب ممتع غداه الرائع ، وحديثه
المذهب الطريف .

وقد بقي ردياً الجميل الجميل ، وحزى على لمعروف بالمعروف ، ولكنه قصد إلى ذلك
من طريق غير مباشر . قصد إليه من طريق النصيح والإصلاح للأندلس التي أصبحت
له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومشرقه . فكلف على رفع مستوى الموسيقى
الأندلسية ، وعلى النهوض بالمجتمع الأندلسي حتى يذاب المجتمع الشرقي بمقدار . وقد وفق
فيما قصد إليه كل التوفيق .



يمكن القول بأن ردياً نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك
بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء
وتنميته . فقد أخذ لنفسه وهو بالشرق عوداً جعله على الثالث من وزن العود القديم ، وصنع
أوتاره من حرير لم يفسل غناء ساحن فأكسبها أوتنة ورجولة ، واتخذ منها ومثنتها من
مصران شلل أسد : « فيها في الترم والصعاء والجمارة والحدة أصعاف ما لعبها من مصران
سائر الخيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المصارت المتعارة بها ما ليس لغيرها » . فما
كان بالأندلس راد أوتار العود الأربعة المفاصلة للطنائع الأرمع وترا حامسا يقوم مقدم النفس
من الحسد ، « كقشب به عود ، أطف معنى وأكمل فائدة كما يروي المقرئ . ونجد مضراب
العود من قودم النسر بدلا من مرهب الخشب ، « وذلك للطف قشر الزينة وقوته وجمته
على الأصابع وطول سلامة اوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء الغناء ، فقد
رسم زرياب أن يبدأ في الإلقاء بالشيد بأي فركان ، ثم يؤتي في أثره بالسيط ، ويختم

والحركات والأهراج . أما مذهبه في تعليم النساء فيقول فيه القري : « وكان إذا تناول الإناث على تلميذ يعلمه أسرته بالقعود على الوساد المذود للعروف بالسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لثيه أسراً أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت فلا يحد متسعاً في الحروف عند الخروج على القم ، فإن كان ألس الأعراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند الطق ، راحته بأن يدخل فيه قطعة خشب عرصها ثلاث أصابع ، يبيتها في ده ليالي حتى ينخرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطوع الصوت المراد تعليمه من غير مطوع أسره أن يصبح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصبح آه أو عند سها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ، ندياً ، قوياً ، مؤدياً ، لا تعتربه عمة ، ولا حسة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف يحب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعد . هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن رزيانا أنشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث لهجرى ما يصح أن نسبه لعمدة الوقت الحاضر مهدياً لتعليم الموسيقى .

ولم يكن رزيان أقل ابتكاراً في شئون الحياة اليومية منه في مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر لأهل الأندلس الزاناً من الطعام استطبوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلاً من آنية المدن . وهو أول من اجتنى لم البقلة الشبيهة المعروفة بالخيلون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا سمر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنط لها وآبق لمطرها ، وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء ، ولقنهم إلى أنواع من الطيب والمطر لم يسموا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعاطون به من قبل ، كما علمهم كيف يظلمون شعورهم ، تصفيفاً ، وتدويراً ، وإرسلاً

• • •

لا بد من ملاحظة متى توفي رزيان . والسلب أن وفاته كانت في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكان رزيان الخطوة عند أهل الأندلس في حينه فقد ررقتها ذكره عندهم بعد مماته . ذلك بأن مذهبه في النساء وما رسم لهم من أسلوب الميمنة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرباب وآدانه . يقول ابن خلدون عند ذكره زربابا « فأورث الأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بأشبيلية بحر زاهر وسافل متب بعد ذهب حضارتها إلى بلاد المدوة إفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها ومنها الآن منها صناعة على تراجم عمراتها وتناقص دولها » .

ويقول بقرى « وكان زرباب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من صروب الظرف ، وصون الآداب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المحالسة وطيب الخدانة وممارسة الخدمة اللوكية ما لم يجد أحد من أهل صناعته حتى انجده . بوك أهل الأندلس وحواصمهم قدوة فيهما سنة لم من آدانه واستحسنه من أطلعتته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به » .



أما بعد ، فقد كان أهل رومية القديمة على عهد بيرون يتقنون سرياً من سراتهم اسمه بطروتيوس رب الطرف وسلامة الذوق ، لأنه كان عندهم مصرع المثل في ذلك
أما أهل الأندلس فقد وصفو زرباباً بأنه « معلم الناس المروءة » والمروءة عندهم كالإسبانية ، وهو لا شك أحسن أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه الريح ويذكره به ما

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس (*)

عما يوصف به لعقل اليوناني القدم أنه عقل لطيف ، نفاذ ، بحث ، شكك ، عواص
على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أضرار هذا الوجود ويؤميه التي يقوم عليها
نظامه ، معنى مهم قوى الطبيعة ونسجها لمصلحة الإنسان

هذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم في أنواع المعرفة على
اختلافها ، وأصبحوا النبل الأعلى في البحث المعنى الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التي يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من
علماء الأغريق من حيث الشغف بالبحث العلمي ، والمخاطرة في سبيل ذلك إلى أبعاد حدود
المخاطرة ، رجل أندلسي من أهل القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي ، اسمه عباس بن
فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسر اللغويون الحكمة بأنها عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسموا
من يحسن دقائق الصناعات وينقحها حكيماً ، ولكن الخوارزمي في كتابه « مفايح
العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحقق لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على
الإطلاق » . ونمل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما
سترى ، فلقب بالحكيم كما لقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بن أمية ، وذلك
لبصره بالكيمياء خاصة .

كان أو القاسم عباس بن فرناس من مولدى الأندلس ، أى إسباني الأصل ، وقيل
بل كان من أصل ربرى ، أى أفريقي الأصل . وكان من مولدى بنى أمية ، وكان أهله من

كورة تاكرها الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن بها الرضى . والظاهر أن ذلك كان في أوائل القرن الثالث ؛ وقد عاصر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الرضى ، وابنه عبد الرحمن لأوسط ، وحفيده محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ - ٢٧٣ هـ) واصل مهم جميعاً وحنت مكانته عندهم .

وفي هذا العصر اشتد إقبال المسلمين على علوم اليونان إلى درجة لم تعهد من قبل ولا من بعد ، فقلت إلى اللغة العربية أمهات كتب الأعريق والسكندريين في الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعات . وناصر الخلفاء والوك وأعيان المسلمين هذه الحركة العظيمة أيماناً مناصرة ، وكان الخليفة المأمون رعيماً أنصارها بالمشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذ قد نشأ أبو القاسم عباس بن فراس في جو مشبع بالروح الأغريقى ، وكان على حظ من صفاء الذهن ، ودقة الملاحظة ، وحب البحث العلمى ، والتوفر عليه دون سواه ، فلم يلبث أن هضم ما وصل إلى يده من آليف الأعريق على كثرته ، واستطاع في قنبل من الزمن أن يرد ما همم اختراعات وابتداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلاً عن العصر الوسيط .

ويعد المؤرخون لعباس بن فراس أموراً في العلم كان أولاً فيها ، وأموراً لم يسبق إليها في الأندلس على أهل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتاب العروض للخليل بن أحمد وحل رموزه ، وعنه أخذ الناس في الأندلس . قالوا : « أدخل مصص التحار كتاب « المثال » في العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يكن عليه ولا على أصحابه ولا هموه ، وصار الكتب مطروحة في داخل القصر يتلقى به الحواري ، حتى إن بعضاً يقول لمصص : صير الله عقلك كعقل هذا الذي ملأ كتابه من مدعين ، ففاعيل ؛ وبلغ خبره ابن فراس ، فكتب إلى الأمير يأله إحراج الكتاب إليه ، ففعل . ونظر فيه بحذقه فافتح عليه وأورد علم العروض منه ، وقال بمصطلح هذه الكتاب يدل على أن ما قبله يفسد . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى المشرق يطلب تمامه ففى إليه بكتاب « العرش » فاستكمل به عباس بن فراس نظره وفتح على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض في الأندلس . ووصفه الأمير عبد الرحمن على ذلك بثلاثمائة دينار وكساه .

وقالوا إنه أول من فك الموسيقى بالأندلس . ولا شك أن المراد بذلك أنه اهتمدى إلى حل رموز كتاب يوناني قديم في الموسيقى ، على نحو ما صيغ نكتاب العروض الآف الذي ذكر

على أن مكاتبة عباس بن فرنس العمية ، مما تقوم على تمكنه من علوم الحكمة رياضية والصحيحة . والحكمة الرياضية تشمل علم العدد ، والهندسة ، والهيئة ؛ ومن أدلة براعته في هذه العلوم أنه صيغ في بيته كهيفة اسماء ، ركب على صيغ الحكمة ، ومنل فيه أملاكها ، وأقام فيها آلات تحيل إلى اسطر فيها أسماء نجوم وعيون ، وروق ورعود ، وأراها كثيراً من عيون الناس مفتحراً عليهم بحكمتهم ؛ فذاع ذكرها في الناس وكثر حديثهم عنها ، من بين مطرلة من عليه ، أو مررد لعله مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة ترصد حركات الكواكب والنجوم تسمى عندهم «دات الحلق» ويقول أستاذ العلامة المرحوم كرولو لينو : إن هذه الآلة مذكورة في كتاب المحسطن بطليموس وفي كتاب أفع رقلوس اليوناني أحد علماء القرن الخامس الميلادي ، وإياها تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب المسطح ، وأياها تسمى بالفرنسية sphère armil aire وقد عملها عباس بن فرنس ورسمها للأمير عبد الرحمن ، وبثت معها هذه الأبيات :

قد تم ما حسنتي من آلة أعيى الفلاسفة الجهاد دوني
لو كانت بطليموس ألهم صنمه لم يشتغل محداول القانون
فيذا رآته الشمس في آفاقها بثت إليه بنورها الوزون
ومنازل القمر التي حجبته مما دوت الصيرون مكل طالع حين
يبدون فيه بالنهار ، كما بدت بالليل في ظلماتهن الجوف
وكلفه الأمير محمد عمل آلة لمعرفة الأوقات ، فعمل له آلة تعرف بها الأوقات بالليل والنهار غير رسم ولا مثال ، وتسمى «المنقالة» ، ورسمها إليه وقد نقش عليها هذه الأبيات على لسان حال تلك الآلة :

ألا إني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبين كواكب ليل حالك الظلمات
بينم إمام المصطفى محمد تحلت في الأوقات للصلوات

وكما اشتغل عباس بن فراس بعلوم الحكمة الرصاصية فكذلك شتمل بعلوم الحكمة الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ، وكان على حد تسميهم صاحب « براحيت » والبراحيت لفظ فارسي الأصل ، وهو معناها أن العرض منها تمزيج القوى التي في حواشي العالم الأرضي لتحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب .

والكن لا شك في أن أكبر مظهر لحكمة ابن فراس وجوانته العلمية أنه حاول تطيير حنانه فكان — إذا صح ذلك — أول طيار بطفه في التاريخ . فابوا إليه كما نفسه ريش قشام السور على سمرق الحرير ، ومد لنفسه حنايين على وزن وتقدير قدره فنياً له أن استطاز في الجو من ناسية الرصافة بقرطبة ، واستقل في الهواء ومكث فيه حتى وقع في مكان مطاره على مسافة بعيدة . وقد ندى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتياض لوقوعه ، ولم يقدر أن الطائر إنما يقع على زمكانه أي دنيه ، فسما عن ذلك ولم يتحد معه ذباً . وقد أزع من رأى طياره من أهل الصحراء ، فكثر حديثهم عما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن ابن سعيد ، وكان مغري بهجو ابن فراس :

يَظُم على السقاء في طيارها إذا ما كسا حنانه ريش قشام



ولما كثرت أحاسيب ابن فراس ، وتعددت استداعاته جري له ما يجري لكل مبتدع يفتح الناس عما لم يأنفوا ، فكان الخاصة يمزونه ويرمونه بالحق والسحق ؛ من ذلك قول مؤمن بن سعيد في هيئة السماء التي أحدثها عباس في داره :

قعدت تحت سماء لائن فراس تحت أن رحي دارت على رأسه
سماء أبوك سواها وحفها بحبة دات أيايب وأصراس
لما يحوم تنبي أن خالقها إذا نظرت إليها أحق الناس

يمسى ويصبح من شغل بصفتها يحيى هم وتمكيد ووسواس
كان احدى بان يرقى إليه بها راق هيدحو بها منه على الراس
وقد كان ابن فرناس كسب إليه مهازلا :

دنت لسماني يا خلق حالفها واستشر الخوف من صواعقها
فرد عليه ابن سعيد نيات من نفس الورن والروى أحش فيها .

أما العامة فكل سحسها أشد وأدها أسع فقد رمتها بالزندقة والسحر والكيمياء ، وطعنت
في دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل كتب مصمم وثيقة بزدقه ورفعها إلى فاضل
الجماعة قرطبة ، وشهد عليه مصمم بأنه سمعه يقول معاذيلن ، معاذيلن ؛ كما شهد آخر بأنه
رأى لدم يعور من فتاة داره ليلة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضي رجلاً
حصيف العقل ، فظفر في أنهم به ابن فرناس بطرة تحقيق وتمقل ، واستشار فقهاء قرطبة
في الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سيلاً إلى عفائه ، وأفتت ابن فرناس بحريمة الذقن
كما يقولون .

وسمى إلى العامة لمدورة إذا هي نفرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة
من الزمان .

قاض فاضل (*)

هو أحمد بن بقر بن محمد قاضي الجماعة قرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) كان أواه بقر بن محمد عمداً وصلاً ورعاً راهداً وهو أحد الذين عرّض عليهم المصاه وتو قبوله نحرّاً ، وذلك أن أمير الأندلس المسمى محمد (٢٧٣ - ٢٧٥) أراد أن يويه القضاء فأتى فذهب إلى سكره واعتذر عنداً نظيفاً وقيل لأخيه عذره وقد تشابه أحمد بشاة حسنة حميدة ، وعرف منذ حداثته به بالعقل ، ووسم تحت الخيبر وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) يشاره إليه بأحد ربابه مع أن سبه إذ ذاك لم يكن تريد على خمس وعشرين سنة فمد تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاء صلاحه الجماعة قرطبة ، ثم ولاء بعد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة ، وذلك في سنة ٣١٤ هـ .



وكان منصب قاضي الجماعة قرطبة أحد المناصب الثلاثة التي تعتبر أركان الحكم في الأندلس على عهد بني أمية ، وهي إمارة النهر الأعلى سرقسطة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة قرطبة ورعاً كان قاضي الجماعة أتى لمهنته الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذي كان عديم مهنة رئيس لوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلقبون قاضي الجماعة بالوزير القاصي معجماً لشأنه وتعظيماً لقدره . وكان اختصاصه عديم يشمل المطر في الموارث والبوصايا والتعجير والأحاس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد تجمع له فوق ذلك إمامة الصلاة العامة ، وهي صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخل في اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يسندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بفرارة العلم والبراعة في الفقه ، ووصف بالفصل والورع وراعاة الصير ولعله لم يقول قضاء الجماعة قرطبة رجل أجمع لتلك الانفصال من أحمد بن بقر ، حتى لم يكن

اعتباره للثل الصالح للقاضي الشرعى في عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

كان دامعشة مهلة سادحة ، « إذا طرقه صيف ليل لم يدع له شيئاً من الطير ، وقال
الليل آمن لها ، ويقتصر على العسل والسم واليهن وما شا كل ذلك فيقر به إلى الصيف » .
وكان متواصلاً ، مثل مرة عن نسه وولانه فقال ولأولاً لامرأة من أهل حيين .
وكان ولي عهد الدولة الحكم المستنصر يعصب من صدقه في ذلك ويقول : لو شاء لادعى
أشرف الأسباب ثم لا يجد في ذلك مكدا .

وكان رهوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب حاته مرة امرأة نحاصم روحها فجلت
تستطيل على زوجها بلداها وتؤذبه بصلفها ، فطر إليها ابن بقى وقال لها : أقصرى ! وإلا
عاقبتك ! فاكسرت المرأة شيئاً ثم عودت الصلف ، فقال لها القصى مرة أخرى .
أقصرى . وإلا عاقبتك ! فاكسرت شيئاً ثم عادت الصلف . عند ذلك عطف عليها
أحمد بن بقى فقول لها أنت طمة أنت طمة أنت طمة ! ثم قال : ألم أحولك
من قبل هذا ؟ ولم ترد عقوبته له أة على ذلك .

وكان كثيراً ما يدر الحدود الشرعية بالشبهات يتعمدها سياحة منه للعامة وقد منه
سها . قالوا أنه المحتسب مرة رجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لسكاته : استسكه !
فعل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب فطهر وجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر من
كان حاصراً بحلته : استسكه أنت ! فعل ، فقال : أحذر نمة ولا أدري إن كانت رائحة
مسكر أم لا ؟ فنهال وجه القاضي وأمر بتخلية سبيله .

ومع أنه كان رهوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز في كثير من المواطن
أبلغ من العنف والمؤاحدة ، فإنه كان في صميم واجبه القصائى مثل الدقة والدأب
والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته في وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك
أن صديقاً له أرسل إليه مرة وثيقة كتبها على رجل عمال ليشهد عليها . وقد ذكر في الوثيقة
سبباً يحصلها واحدة . فلما قرأها ابن بقى وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن يسه المشهود عليه إلى وجهها . فأنطق مبياً ثم رفع رأسه وذل للشهود عليه أنشهدنى على أن لفلان عندك كذا وكذا مثقلاً إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فنفذ شهادته على هذا اللفظ بعينه لا غير .

وكان حم العياض ، نصر الوثائق حاصه ، شديد العقب عليها . وكانت الوثائق يجررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحبيب كثير الزهو ولا اعتداد بعلمه ، فعدله تعقب القاصى عليه وقال : من أين يتصل على أن بقى أنه أعلم بالوثائق منى ؟ وبلغ قوله القاصى فاستهزأه فصره غايه وثائق ، واستخرج جهده فى التعقب عليها حتى أخذ موضع أسبغ له وأمره بتسييرها ، ففهمه وأنه سب . فنفذ عليه فيها مرة أخرى . فإرسل إليه أن احبب يقول : إلى أقر لك أنك أعلم منى وأنشهد بذلك ، فدعى من كبره هذا البحث والكشف وإلا حدثت لا ! كتب وثيقة ، فتركه أن بقى بعد ذلك وسامحه

وكان من عاده أن بقى فيما يتحصن عنده فيه أن ينفذ لظاهر الدين . ويستعمل الأمانة والثؤدة فى التمس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير المتحصنان إلى التصالح والتمسوى . وربما حر ذلك التمسك والتمس فى المصايب المشتبهة إلى ما حير لأحكام رماً طويلاً قد يصحصر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك فى حصرة الحليفة لناصر وما عرف به من أين الحاسب ، فقال : أعود بالله من بين يؤدى إلى ضعف ، ومن شدة تبع إلى عيب ؛ ثم حمل يذكر فساد الزمن وأحبيس الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لا تتميز له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضى الله عندهم قوم صال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمروهم بابتداء الحصومة من أوها

ومما يصدق مذهبه هذا فى الثواقف عند الشهات أنه رخصت إليه حصومة وقعت بين الحاسب محمد بن موسى - والحاسب عديم كالأدما بمنزلة رئيس الوزراء عديداً - وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود فى مصلحة الحاسب . وسكن القاصى اصطنع الأمانة ولم يجعل الحكم لشبهة وقعت فى نفسه . فأرسل إليه الحاسب يقول : لا قد عرفت محبى لك ، وشعنى بجميع أسبغ لك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحق

ما قد علمت من الخصمة ، وقد شهدت عليه عندك البيعة العذول ، وتأببت عن الحكم عليه .
 فقال القاضي للرسول : « نلع الخاحب على السلام ونقول له : إن محبنا كانت لله ولوجهه ،
 ويحيى بن إسحق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل على أرتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى
 ابن إسحق بشيء حتى يتصح عدى أمره بوركاتصاح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يحيرنى
 أحد من يحيى بن إسحق إن حاوى الخصومة بين يدي الله » . فأدى الرسول هذه المقالة
 للخاحب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حصر من الوزراء يقع في القاضي
 ويبدى ويعيد في ذلك . فتحول الخاحب إليه أخيراً وقال له : « يا أحن القاضي والله رجل
 صانع ، ولا ترار محبر ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .

والله ما راده فعله عدى إلا محبة واعتقاداً » .

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يثق به ويحمله ويعرف حقه ولم يمزله عن
 القصر حتى توفى سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

(*) بين خليفة وقاض

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي استوى على عرش الأندلس حين سنة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) تمد بحق أرمي عصور الأندلس ، ومن أجد العصور الإسلامية على الإطلاق . تولى والأندلس على أسوأ حال : شمل عرق ، وقتل صلبة أطناسها ، وعدو يتحز لينقص عبيها من فوقها ومن أسفل منها . فال زال باعق حق قطع دارها ، وبالأعداء يحادهم نارة نفسه ، وأخرى نازع قواده ، حتى حصص شوكتهم ، وكسر شريتهم ، وأزلم على حكمه .

وسا رأى التباث أمر الخلافة المباسية بالشرق ، واستعمال أسر العبيدين بالهروب ، استقرى نفسه أنه أحق يلقب الخلافة من الصاسيين والعبيدين جميعاً ، لأنه أجمع منهم لشروطها فأعلن خلافته في سنة ٣١٦ هـ وبايعه الشعب بالخلافة طائفاً راصياً . ثم إنه رفع لعم والحصارة بالأندلس مناراً عالياً . وعى بالبيان والعمرة فشيء مدينة الزهراء التي كانت تصرب بروعتها الأمثال . وطار صيته في الحافقين وأردفت إليه موت أوربا ، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته وموادته ، فكان بحق أوجد ملوك العالم في عصره .



وأما القاضي ، فهو أبو الحكم مدرس سعيد البوطي ، أصله من شخص البوط في شمالي قرطبة ، ولد في العقد الثامن من القرن الثالث الهجري ، وشأ وتفق بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى اللبني وأمثاله ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً وطالاً للرواية ، على عادة كثير من علماء الأندلس في ذلك الزمان ، واجتمع في رحلته بمجموعة من علماء المشرق ، وطهر فضله هناك . ومن سمع عليهم عمكة : محمد بن المنذر النيسابوري ، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء ، المسمى « بالأشراف » ، كما روى عصر كتاب « العين » فغليل من أبي العباس بن ولاد ، والشعر القديم عن أبي جعفر بن النحاس . ثم عاد إلى وطنه ، وقد

استحكمت سنه وكنت تحاربه وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً في كبار فقهاء الأندلس وثقاتها في العلم ، وقد صنف كتباً في علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يعطب عليه التعمق عدهب داود الطاهري ، ويأخذه به نفسه وذوبه ، فلما تولى القضاء كاسيحيه ، كان لا يفتنى إلا عدهب مالك ، لأنه المذهب الذي كان عليه العمل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق في مسائل الفقه ، ميالا إلى الاجتهاد ، غير ملتزم للتقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

عذيري من قوم إذا ما سألتهم دليلا أجابوا : هكذا دل مالك
فإن ردت قالوا : فإن سحسون مثله وقد كان لا تحي عليه المسالك
فإن قلت : قال الله ، صحوا وأعولوا على وقالوا : أنت حصم محاحك

وكما كان مندر فقيهاً متبحراً في الفقه ، كان حطياً معوفاً وواعظاً جدير الصوت ببيع الصارة . قريب الدمة ، حسن الرثيل ، قوى التأثير في سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ، وشعره من قبيل شعر المصدا ، وقد ورد المقرئ في كتابه مدح الطيب ، مساحلات شعرية حوت بينه وبين أبي علي القلي وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع حذو وورعه ، دعابة رعا المحدث بها من لا يعرف ماطه ، فإذا أراد الميل من دبه نكثف له عن أسد ورد لا يرام حاه .

* * *

والظاهر أن مندر بن سعيد كان يحيا في قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء ، دون أن يلى للسلطان عملا ، مع فصله وتقدم سنه . لذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته . اللهم إلا أن يدعى في زمرة الفقهاء إلى المحلات الرسمية ، التي كثيراً ما كانت تعقد في البلاط على عهد الناصر . ثم عرضت ظروف نهت الخليفة إلى مكانة مندر وقصده وخطره ، ورفضته في طرفه عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففي عام ٣٣٩ قدم قرطبة وفد عاهل القسطنطينية ، يحمل إلى الناصر تحملاً وهدايا ، ويرغب في توثيق أواصر الود والصداقة بين الناصر والعاهل البيزنطي . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد في بعض مجالس الزعماء أحم استقبال وأعظمه . وقد أتى المقرئ في كتاب « مدح الطيب » على وصف

ذلك الخلق بالتفصيل . قال : « ووقف الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهد له بإعداد من يقوم من الخطباء وبقدمه أمام ، بشاد الشعراء ، فقدم الحكم إلى أبى على القالى البغدادي ، صيف الخليفة وأبى الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على بيته صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وسهت ، فما وصل إلا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر في رسة الفقهاء ، قام بدرجة من صرافة أبى على ووصل إليه بكلام عجيب ، سهر العقول حركته ، وملأ الأسماع حلالة . وخرج الناس يتعجبون من حسن مقامه ، وثبت حديثه ، ورائعة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه . وأقبل على ابن الحكم فسانه عنه ، ولم يكن يشتد معرفته ، فقل له : « هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فحمد الله فدا أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بمدينة الزهراء . ثم حدث بعد قليل من الزمن أن تولى قاضي الجماعة قرطبة ، فولى الخليفة منذراً قصاه الجماعة قرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .

وهكذا شئت الصلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين القاضي منذر بن سعيد . نشأت من مناسة عارضة أحب فيها الخليفة بالقاضي والقاضي بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور . أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ، بما يجانبه الصواب في تصرفاته على غير قصد منه ، ولما كان يحب مع ذلك أن يعرف له حقه من التبحيل والتكريم ، أما القاضي فكان يرى أن واحبه ينعم عليه أن يحمرى في تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان المتقاضى إليه ولو كان الخليفة نفسه .

فلما إن الناصر احتاج إلى شراء دار في قرطبة لأحدى سائمه ، فوقع استعصانه على دار واسعة ذات مستعمرات وافرة ، وكانت لأيتام في حצר القاضي . فأرسل الخليفة من قوتها بقدر ما طالت معه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم ، وذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضي منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضي في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجود : منها الحاجة ، ومنها الوهي الشديد ، ومنها

العبطة ، فما الحاجة فلا حاجة هذه الأيتام إلى البيع ، وأما الوهي فليس فيها ، وأما العبطة
فهذه مكابها فإن أعظم أمير المؤمنين ما تستعين به العبطة أسرته وصيهم بالبيع وإلا فلا
فمن جوابه إلى الخليفة ، فظهر الزهد في شراء الدار طمعاً في أن يعير القاضي رأيه . ولكن
القاضي لم يعير رأيه ، ثم إنه حاف أن تست من الخليفة عزيمة تلحق بالأيتام ضرراً ، فأمر
وصى الأيتام بقص الدار وبيع أبقاضها ، فعزل ، فكانت قيمة الأبقاض أكثر مما قومت به
للسلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضي مشدداً عما دعاه إلى قص الدار ؟ قال
أحدثت فيها بقوله تعالى « أما لقيمة فكانت لساكنين يعملون في البحر » فأردت أن
أهبطها ، وكان واهم ملك . أخذ كل سعيقة عصا ، مقوموها لم يقوموها إلا تكدا ، وقد
قبض في أبقاضهم أكثر من ذلك . وقيمت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسمع
الخبر إلا أن بقر القاضي على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من انقاد إلى الحق ، لحراك الله
هنا وعن أمانتك خيراً » .

وهكذا أدرك الخليفة للحدث أن يمر بسلام ، وإن كان أبقى في نفسه شيئاً من الوحدة
على القاضي الذي نحره على هذا النحو لدى لم يهده . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد
من الحادث الأول وأدهى لذلك الدمار طمعه ميلاً إلى العثرة ، مشغولاً بتشديد البنيان
يرى أن ذلك من أهله ملك وبديل الحق على خدمة الدولة ، ويسبب إليه أنه القائل :

هم لموك إذا أورد ذكرها من مدم فأس النيران
أو ما ترى المرمين قد نبهاؤكم من عتقه حوادث الأرومان
بالبقاء إذا سطم شأنه أحصى يدل على عظيم الشأن

وقد أقبل على عمارة الزعماء ، أيما إقبال ، وأبقى من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها
ما أبقى ، وهي لا تعدو في حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة محصنة
لربله وسكنى خدمه وحشمه وحرسه ، وكان ربما أشرف نفسه على شئون البناء والزخرفة
حتى شعله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع مثاليات . فاشتد ذلك على
خطيب المسجد الجامع بالزعماء وإمام الصلاة فيه ، ورأى خروجاً من تبعة التصغير فيما أوجب

الله على الخطاء من تنبيه العاقل وتذكير الداسي ، أن يبقى على الخليفة درساً قد يكون ثقيلاً على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس وفي المسجد الجامع بالزهراء نفسها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعه عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تحبش به نفسه من المني . فما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى المنبر ، وانخبة حاضر والمجد عاص بالصدى ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى « أتدرون بكل ربيع آية تعشرون ، وتتعدون مصانع لعكم تعلمون » إلى قوله « فأولوا سواء علي أو عطلت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى في دم تشييد المنبر . واستغرق في رحررفته ، والإسراف في الإغراق عليه ، بكل كلام حزل ، وقول فصل . بلا قوله تعالى « أفئن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا حروف » فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهذي القوم الطالين » وراح يحوف من الموت ويحذر من لعنة ويدعو إلى الزهد في هذه الدار الفانية ، ويحصر على الإعراض عنها ، ويهيئ النفس عن اساع الهوى ، فذهب في ذلك كله وأصاف إليه من آي القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحداث والآثر ما يشاكله ، حتى إذا ذكر من حصر من الناس وخشعوا ورفقوا ونكروا ودعوا ودعوا . . . وأحد الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فسكى وبدم على عمر خطه .

بعد أن الخليفة وجد على مندر لمنظ مائة عه به فشكا ذلك لولده وولى هذه الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تعمدي مندر بخطبته ، وما عني بها غيري فأسرف على ، وأفرط في تفريري وتأنسي ولم يحسن السياسة في وعظي ، فرعزع قومي ، وكاد بمصاه يفرعي . ثم استشاط عيط عليه ، فأنقسم أن لا يصلي جمعة صلاة الجمعة خاصة ، فحمل يلتم صلواتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويحاسب الصلاة بالزهراء .

هذه كل العقوبة التي نال بها الخليفة الخطيب الذي تجاوز الحد في وعظه وإرشاده . ولقد قال له الحكم : فما الذي يمنعك من عزل مندر عن الصلاة بلك واتحاد غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زحزحه وقال له « أمثل مندر بن سعيد في فضله وحجيره وعلمه ، يميز لأرصاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون . بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله ، فما أطلسا نتناض منه أبداً » .

ثم إن الحقوة أكدت وشدت بين الخليفة والقاضي ، وودى العهد لو أراها
أوحده من حديثها ، فحينئذ به أصدر إلى خمسة عمال من مدر وقال يا أمير المؤمنين : إنه رحل
صالح وما أراد إلا حبراً ، ولم يرني ما صنعت وحسن تلك البنية ، لعذر ، ويريد بالبنية هنا
القبة التي بها المصير . برهراء وانخذ فريدها من قصه ، وعصها بمشي بالذهب ، وحمل
سقفه بوعين صمراء فاقعة إلى بضاء صفة ، يستب لأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم
ذلك ، أسرعه رشت برش به سج وحسن به لأهل محكمته . ثم في قرابه وورائه :
أرأيت أم سمعت ما كمال على صبح مش به سمعت ؟ فقلو لا والله يا أمير المؤمنين ! ،
وإذ لك لأوحد في شأني ! فسمعتهم على ذلك ، بدد حل مدر من سعيد واحماً ، كسا رأسه ،
فما أحد يحمله قال له به في قرابه ، وقدمت دموع القاضي تنحدر على خيته وقال :
والله يا أمير المؤمنين . طبت أن الشيطان جمع منك هذا سبع ، ولأن تمسكه من
قيادتك هذا لتتمكن . مع ذلك لله تعالى وقصته به على سمين ، حتى يترك منازل
الكافرين فاشتر الخليفة من قوله ، ودن له انظر ما تقول اكيف أرلى مبارهم ! قال :
نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولو لا أن يكوب الناس أمة واحدة فخلوا كلابهم بعضهم
لبؤسهم سقفا من قصه ومخرج عيبها بظهور » . لأيات . فوهم الخليفة ، وبكس رأسه
مسياً وحملت دموعه تنحدر على خيته ، ثم أقبل على مدر وقال له : « حزنك الله عما ومن
الدين حبراً فالذي قدت هو الحق » ثم قام من محبه وأمر بقص سقف القبة وأعاد قزمها
تراها على صفة غيرها .

وهكذا أمر الخليفة للقاضي بأنه على الحق فيما قال ورأى ما كان في نفسه من
الموجدة عليه .

ولكن بقي أن يرضى القاضي عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيداً . فقد حطت الأندلس
في آخر مدة الناصر (سنة ١٣٥٠ هـ) فأسر مدرأ بالخروج للاستسقاء ، خرج ، واجتمع له
الناس في مصلى الرص ، وصعد الخليفة في أعلى مصامحه المرتفعة ليشرك الناس في الخروج
إلى الله وأطأ القاضي حتى اجتمع الناس ، ثم خرج محوم ماشياً متضرعاً مخبطاً ، وقام
ليحطب . فلما رأى حشوع الجمع وإحسانهم رقت منه وعلمته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

اجتمع خطبته فقال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه الحصر ، ولم يكن من عادته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ثم اندفع في خطبته ، فهدر القلوب ، وأسكنى العيون ، وكان الخليقة أشد الحصور وحلا وحشوعا ، وأعزهم مكانا وأحرهم دعاء ، فلما رأى القاصي منه ذلك تهبل وجهه وقال : « قد أدن الله بالنسبية إذا خشم حصار الأرض ، فقد رحم حصار السماء » قالوا وكانت كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

وتوفي الخليقة الناصر في سنة ٣٥٠ أما القاصي فمات فكاكته وفاته في سنة ٣٥٥ في خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على نصاء الجماعة بقرطبة والحطبة والصلاة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدري بأي هاتين الشخصيتين هو أشد بهجما ؛ أباخليقة في بيته ، وسعة احتماله ، وإدعائه للحق عند وضوحه ، أم بالقاصي في عدالته ، وعصر دحمته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواحه . ألا حي الله تلك العفوس السكبار فلي منها تصاح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي^(١)

لقد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف المصور في لحظات العامة المعاصرة لم
أو السابقة عليهم مادة قريحهم ، وسرحاً لخيالهم ، فأنحدوا منها موضوعات بنوا عليها
قصائدهم ومرحياتهم فعل ذلك هوميروس في إنسانيته ، وشكبير في مسرحيته ، ولنتبي
في سيميائه ، وشوقي في احتجائه وسياسياته . فهل للمؤرخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء
مصدراً من مصادر التعريف بهذه الأحداث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فهل أي مدى يكون
اعتماده على الشعر في تاريخ الأحداث المذكورة وبصورها ؟ إن الأمر ليس سهلاً كما يتبادر
إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بمنزلة الخيال دائماً ، وهو محكم منه الراسخ
ذائق في تناوله لحوادث . فهو يرسمها ويحكم لها أو عليها تبعاً لما تمتع في نفسه من عاطفة
وتثير من إحساس . أما المؤرخ فيحكم صاعته واقعي النظر إلى الحوادث ، بصورها كما
هي في الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها في الواقع على أقل تقدير ؛ ويبغى أن يضبط عاطفته
جهد طاقته ، فلا يحمل لها على قلبه سلطاناً ، وأن يتقيد بالواقع كل التقيد ، يسبح في محيطه
مهما يكن كثيراً ؛ فإن خلق موقفه فلكي يتمكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل .
وإذا فبين الشاعر المؤرخ والمؤرخ المختص تباين شديد على ما يظهر ولكن يظهر أن
التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر
والمؤرخ في مرآة أسره يرجع إلى الواقع ويعترف من بحره . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً
بين أسلوبيهما في التعبير عن الحقيقة والواقع . فالمؤرخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ،
ويعنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويطلها ، ويرد بعضها إلى بعض ،
بإعلاء الصدق في كل ذلك شعاره ومبدأه ، متحاشياً الخطأ في القياس أو الاستنباط .
أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يتناولها من بعيد جداً ، يتناولها
مصعدة مقطرة متألوة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها في نفسه ؛ ومبلغ

تأثر نفس الشاعر بمحادث ما واهتياجه له رهن عقدار بأثر البيئة التي يعيش فيها هذا الحادث واهتياجه له . فالشاعر يستعمل أثر المحوادث في المحيط الذي يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذي يعد ترجماناً صادقاً لإحساسات البيئة التي وحدهم . ولتلك تلك شعر أن الطيب المتنبي قائم على يجمع سيف الدولة في قصائده المسميات ؛ وأما في قررة نفسه بعقده أر سيف الدولة من حيث رقعة مسكه وسعة موزده ، لا يريد على أن يكون أميراً فقطعياً من أسراء الدولة الإسلامية مراميه الأطراف ، وقد يكون أقل شأنً وحطراً من أسراء بني وويه شرقاً ، وحده الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن في سيف الدولة عيوباً لا شق رؤيتهم على مثله ، وسكته مع ذلك يحسن النظر عن عيوبه وخصي عن سيف الدولة حيلاً مشرفة من مدحه . ذلك أنه إنما أراد أن يصور رأى الناس بهذه في هذا البطل وفي وقائمه مع الروم دفاعاً عن شعور الإسلامية ؛ في حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست في نظر المؤرخ مدقق شدة كبيراً باعتماد أي أنظار مسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وسعد ، ولا في الوقائع العظيمة التي حثرت بينهم وبين فياصرة بيرطة . واحة أخرى من شعر المتنبي ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يسمي أرح الدم ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافور الإخشيدي ويذم لمصريين ، حتى يبيكار يمدحهم بسوء المهمة . وقد كما نقرأ كل ذلك فهو رؤسا ويقول شعر يريد الاقتان والإعراب . ولكن الحقيقة أن المتنبي لم يرد اقتداء ولا إعراباً ، وإنما هو من حيث يريد أو لا يريد ، يصور ما لحق نفوس المسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وقصور ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولاً والصليبيون أخيراً ، فعروهم في عقر دارهم ، وتعلبوا على حوزتهم حقنة طوييلة من الزمان . هل يقال بعد ذلك إن شعر المتنبي لا يحدى على المؤرخ لأنه شاعر كثير الذهب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا ! فالمتنبي بأسلوبه الشعري الخاص قد سد نقصاً في كشف التاريخ ، ولا على المؤرخ الحديث عن ديوانه عند ما يؤرخ الشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري . وما يقال عن المتنبي يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل المحوادث العامة في شعره . على أنه ليس كل شاعر يستطيع أن يتناول المحوادث على نحو ما تناولها المتنبي أو شكسبير ، فالقدرة على تصفية المحوادث وتقطيعها وبورتها لم توهب إلا لباقرة الشعراء وخولهم حسب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هاني الأندلسي . وقبل أن نفصل القول في ذلك نعرف القارى بهذا الشاعر تعريفاً موجزاً .

هو أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي ، يقال إنه من ولد المهلب بن أبي صفرة القائد الأموي المشهور ، ولقب بالأندلسي لثروته بينه وبين ابن هاني المحكي الذي هو أبو نواس . كان أبوه هاني من قرية من قرى المهديّة بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس وول البيرة وقيل قرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢٦ على خلاف في ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . وشأ محمد بقرطبة وتعلم بها وحقق علوم عصره وخاصة الفقه والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية وزلها وانصل بصاحبها واختص به ؛ غير أنه سرعان ما ست به إشبيلية والأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هاني عرف بحرية الفكر ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، ورمى بالعلو والتشيع ، هذا إلى استهتار ، ومساد في السيرة ، وهو جاج في الطريقة . وكانت الأندلس أيامئذ حديثة عهد بحلقة سنية جديدة ، أقامها الناصر ليعي بها على الخلافة العباسية المصطنعة ، ويتعدي بها الخلافة الفاطمية الشيعية التي ظهرت في شمال إفريقية ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت موذقها الماسكية ؛ فكانت القسمة والمشتغلون بها محل مقت الخفاصة والعامة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرق كتب الفيلسوف الأندلسي ابن مسرة علماً في شوارع قرطبة . من أجل ذلك اعترم ابن هاني الهجرة إلى عدوة المغرب حيث الدولة الفاطمية الجديدة ، وهي دولة قامت على دعابة باطنية واسعة النطاق ، تنسج لكل مفكر ألياً كان اعتقاده وموع تفكيره .

كانت إجازة ابن هاني إلى عدوة المغرب في السنة السابعة والعشرين من حياته ، أي في سنة ٣٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٣٢٠ ، أو سنة ٣٥٣ على رأي من يجعل مولده سنة ٣٢٦ هـ ، وعلى كلا الأسرين لقي ابن هاني جوهرراً الصقلي ، إما في حلقته الجارية الأولى على المغرب الأقصى ، أو رحلته الثانية إليه بقصد تمهيد أموره قبل أن يسيره المعز إلى مصر لفتحها ؛ وقد مدح ابن هاني جوهرراً لأول التقائه به بقصيدة لم يحزه عليها القائد

الكبير لا يبلغ زهيد من المال لم يرص الشاعر ؛ وساق عن رجل ما عرف يكون أكرم منه ، فدل على حمير بن علي بن حمدون صاحب كورة الزمردانية ، فقد رحله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن علي ، ومذحجه معروف صائده ، وكافاته على ذلك الأموال السنية ؛ وعلا صيته ، وأخل شعراء العرب لصدده على الإطلاق ثم نبى حيرة إلى الخليفة المميز لدين الله الفاطمي ، فاستهداه من حمير فبيده معه مع تحف وهدايا كان أو القاسم أمسها في نظر الخليفة . وربما كان بدء اتصال ابن هديء بامر حوى سنة ٣٥٤ ، وانقطع ابن هديء من ذلك الوقت حتى وفاته نذح المميز وكبر حال دولته ، وحصل يشيد بمعد الدولة الفاطمية ويهجو أعداءها . فبدأ أربع المرار الاعتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لها خرج ابن هديء لتشجيعه ، قالوا : ثم استأذنه في العودة إلى المغرب ليأخذ عياله وينتقل به ، فأذن له في ذلك . وعاد ابن هديء وتجهز ثم تبع الخليفة ، كما كان يرفقه استضافه رجل من أهله ، فزل عليه في رفاق ؛ فبقا إسمع عهده في محبس أسس فتلوه ، وقيل في موته غير ذلك . ومهما يكن من شيء فقد كانت وفاته في سنة ٣٦٢ بالأمم من العمر اثنين وأربعين سنة أو ست وثلاثين سنة ثم ألسنة ميلاده كما تقدم . وأبى الدكتور زاهد على المسمى الذي نشر ديوان ابن هديء من سموات إلا أن يحصر لأموالي الأندلس يبدأ في موته ، مع أن كل الروايات الواردة في موته لا تشير إلى شيء من ذلك ، وإنما في الدكتور فساد سيرة الشاعر التي كانت السبب الأول في موته غير الطبيعي .

ولقد أجمع نقاد الشعر ورواه على أن ابن هديء أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وأنه عندهم بطير معاصره لمبى عند أهل مشرق . ولم يمت وفاته لمرأسف بذلك كثيراً ، وقال : هذ الرجل كما رجوا أن يذخر به شعراء المشرق . ثم بقدر ذلك

ومع أن كل الشوهد تدل على أن ابن هديء كان مكر الشعر ، ومن الشعراء للكثيرين ، وأرق بخته كانت وقدة ، وطعمه سحيق بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشيء الكثير . ولم يصدر إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذ أهدانا بقول من يحمل حياته ست وثلاثين سنة فقط ، أو شعر خمس عشرة سنة لأخيرة ، إذا قلنا

بالرأى الذى يجمعها اثنين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شيء أنته من شعره الذى قد به وهو فى الأندلس مع أن الأندلس وطنه لأول ، فيه ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . و « شيبيلة » استمتع بصحبة ملكها وعاملها لى أمية ، فأين عرابيته ، و « حداديه » ، و « حوايياته » بل أين مدائحه فى صاحب أشيبيلة الذى رعا مزارعه ثم هيا له سبيل الهجرة إلى العرب ؟ لا شيء من ذلك أنته . ويعسر الدكتور زاهد على الهدى ذلك النفس فى ديوان ابن هانئ « مسير » ، فيحمله على أن الشاعر لم يشتهر فى وطنه ، بل اشتهر فى العرب ، وأن هذا حال أكثر القصلاء « لأن الرجل فى وطنه لا يكون معروفًا ، فإذا اعترب غرو فصله ، وقد يما قوا ليس لى كرامة فى وطنه » (مقدمة الديوان ص ٢٠) وسكن ابن هانئ فى الأندلس فعلا ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؟ وأكبر العل أنه اصطحب سبعة أشعره الأندلسية ، فبى ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى العرب . وسنشهد على ذلك بحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع حمصر بن على وأخوه يحيى وعشيرتهما نوب التميم وسكن بيعة المزم ، وخرجوا من العرب بعد أهول ، ولحقا بالحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، فاهترت الأندلس لمقدمهما وتقداتهما بأعظم القبول . فإذا عرفنا أن هذين الأميرين لهما من الأيدى على ابن هانئ ما لهما فهل يعقل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانئ أثرًا يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شيء عن ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانئ خاصة ! إن الدم الصحيح فى صباغ الدم الأندلسى من شعر ابن هانئ ، والشعر الذى قاله فى حادث ابنى على هو أن جامع ديوانه أراد ألا يشت من شعر الشاعر . لا ما قاله فى الدولة الفاطمية فقط . وبدأ فصح بإراء ديوان شعر شيعى لشاعر شيعى إسماعيلى ألم فيما وصل إليه من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فسنظر إلى ما تداوله من تلك الحوادث نرى كيف ألم به ، وكيف صور

٢- الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (*)

مصور قنقري* العصر الذي عاش فيه ابن هاني الأندلسي ، فنقول : ولد شاعرا نحو سنة ٨٣٢٠ هـ ووفى سنة ٨٣٦٢ هـ ؛ فقد عاش إدا في صميم القرن الرابع الهجري ، وهو عصر حافل بالأحداث الحسام التي وقعت في العالم الإسلامي ، كما كان عصر تبدل واضح في علاقة الشرق الإسلامي بالعرب الأوربي المسيحي . وحسنا في هذا المقام أن نقول في وصف العالم الإسلامي لذلك العهد إنه كانت تنقسم ثلاث دول متقاطعة ، وتتورعه ثلاث خلافتات متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بامشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى اضمحلال ومهاد لصية الترك والذيل على خلفائها واستعدادهم بالأمر دوسهم ، مما أضغف السلطة المركزية ببغداد ، وأصاح هيئة الخلافة ، وذهب رونقها ، وحر إلى تحزؤ الدولة إلى دويلات عدة كان بأسها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت حالها إذ ذاك على النقيض من حال الدولة العباسية . كانت في عصرها الذهبي ، عصر عاهليها العظيمة : عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر ؛ وقد قامت فيها خلافة سنية اهتمتها الناصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الاضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التي قامت بأفريقية في آخريات القرن الثالث الهجري ، وسرعان ما عم نفوذها شمال أفريقيا كله تقريباً ، ووقع الصدام بينها وبين الدولة العباسية في مصر والشام والحجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية في المغرب الأقصى .

وكان القرن الرابع الهجري زمن تبدل في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي المسيحي ، فقيه بقيت وقويت فكرة الحرب الصليبية في أوروبا عامة وعند أباطرة الروم خاصة . وكان السبب في ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطلمعوا في امتلاكها والزحف منها إلى نفس الحجاز . على أن عدوان الروم في الشرق على البلاد الإسلامية كان يعاصره عدوان مثله في الغرب من المواطن على بقية ملك الروم في جزيرة صقلية .

عاش ابن هانيء في ذلك العصر ، واضع في البيئة الفاطمية السياسية كل انماص ،
وصور في شعره بواحي الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاقة الدولة الميمنية بالعباسيين والأمويين
والروم : وهو في أثناء ذلك كله يردد البيت أو البيتين يصممهما شيئاً من تعاليم الشيعة
الإسماعيلية لذلك العهد .

* * *

يصور ابن هانيء المزعز الفاطمي حلقة مهيبة ، حكيماً ، يضع الدننى في موضعه ، والسيف
في موضعه ، نافذ الأمر في أقطار المغرب .

ملك أمانح على الرمان بكل كل	فأذل صمياً في القياد جهوحا
يغضى المنايا والمطايا وادعاً	نصبت له هزماته وأريحا
قل للعصاة الملوكة تنموا	سلاً ، كفى الحرب الموان لقوحا
ميموسكم رهج الحسود قواغلا	بالأسس تنقل الدم المسفوحا

وهو يلقى صوماً على النظام الذي جرت عليه الدولة الفاطمية في عهد هذا الأمر بقى ، وهو
النظام الإقطاعى الذى عم الشرق والمغرب في المصور الوسطى ؛ وذلك واضح في قصائده
التي امتدح بها رجالات الدولة الفاطمية ، فيقول في جسر بن على صاحب الزاب

مسد الإمام بك النور وقبله	هزَمَ النبى بقومك الأحرا
أنتم دود التيهان من يمن إذا	عد الشريف أرومة وصبا
إن نقتل بها الملوكة قصورك	فلطالما كانوا لها حجبا

ويقول في أخيه يحيى بن على :

وسيد سادات إذا مارأيته	عرفت يمانى التجار متوجبا
تألق في أوصاحه وحجوله	فلم ترعبنى مطراً كانت أمهجا
بما المغرب الأقصى سطوة بأسه	فأضربه رهواً وقد كان مرهجا

ويقول في أبى الفرج الشيبانى ، ذا كراً ملاء في التمكين للدولة الفاطمية شرقاً وغرباً :

تشوق الشرق الأقصى إليك وما	ترك في الشرق من مأثورة محب
وكم تخلف في أوراس من حير	سارت مذكرك في الأسماع والكعب

قد كنت نهمؤم خيلاً مصرةً يحمن كل عتيد الناس والمصب
 كى كيف شئت نأرض الشريفين تكسها اشهاب الذى موعى شهب
 فأت من أقطع الأقطاع صطع ا معروف فيها ولم نظم وم تحب
 ويقول فى بطاء الحش الذى حل به حور مصر

وقد رمت فيه نواء مرهناً فى بن متبوع وآسر يبع
 نسر على أهدارها فى محجة ويقدمها منه العزير السبع

فهذا وصف عمل لم أحساب وأساب ، ونس وسطوة ، ولسوا مجرد عمل إداريين
 بالمعنى المألوف .

ويصف بحرية الدولة العاطمية ، فيقول فى الأسطول وفى استعماله البحر الإغريقية
 فى حرب الروم خاصة :

لك البحر والمحرم العظيم عابه فسيان أعمار نحاص ويبد
 أما والحوارى المنشآت التى سرت لقد ظهرت بها عدة وعديد
 قباب كما برحى القباب على المها ولكن من صمت عيه أسود
 أطاع لما أنت ملائك حلفها كما وقعت حلف الصوف ردود
 وأن الرياح للداريات كتاب وأن النجوم الصلوات سعود
 مواجر فى طوى الصاب كأنها لمزمك نأس أو اكفك حود
 من القادحات البحر نكرم لأعلى فليس لها يوم القفا حود
 إذا رهت عيها رامت تدرج كما شب من نار الحميم وقود
 فأفواههم الحميات صوعق وأناسهن الزهراء حديد
 يشب لآل الخليلق سميرها وما هى من آل الطريد صيد
 يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول فى ضعمة الجيش الذى فتح به حور مصر :

رأت سبي فوق ما كنت أسمع وقد راعى يوم من الحشر أروع
 غداة كأن الأفق سد بمشله هاد غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال المحمدات لسيده ونسجد من أدنى الخيف وتركم
إذا حل في أرض يده مدائنك وإن سار عن أرض ثوت وهي ملقم

ويحبوب ابن هاشم ، حية هامة من تاريخ المغرب لعهد ، فيذكر لنا وجود المذهب
الخارجي في المغرب الأقصى وإفريقية في ذلك الزمن ، وأن الخوارج كانوا يعملون لحساب
الدولة الأموية ، ويبين حد الخليفة لمز وعنده في قتال هذا المذهب اسافس للتشيع من جهة
والمشايخ لدولة معادية من جهة أخرى ؛ فيقول في أحد جملتين على قلعة حصينة كانت
بأبدي الخوارج بإقليم لزاب .

حرورية ما كبر الله حاطب عليها ولا حيا بها ملكاً وصد
وكانت شحا لذلك ستعين حجة وما طيب وصل لم يكن قبله صد
وعادت بهم حرب الأزارق لالحاً وإن لم يكن فيها المهب والأزد

ويقول في حرب أبي العرج الشيباني مع خوارج المغرب الأقصى .

كل السيوف اللواتي حردت كذب وهو الخرد سيف الحقيق
لم يحبوا ما ألقى في التشيع من تحريض شاربة أو ناس شاري
وما يدال من أهل الصاد لم وما يداري من الدين الأباضي
من يصطلي حر نار أنت موقدها وهي الحرور على الشعب الحروري

هذا من حيث أحوال الدولة الفاطمية الداخلية ، فأما من حيث علاقاتها الخارجية ،
فالشاعر يبدى القول وبعبده في بيان المداوة بين المواطنين والأمويين وهو متأثر في ذلك
سوامل بعضها شخصي كما نؤخذ من قوله بصف فراره من بني أمية إلى إفريقية ؟

ولو علقت من أمية أحبل لحب ستام من بني الشعر تمالك
ولما التقت أسياها ورماحها شراعاً وقد سدت على السالك
أحزنت عليهم عاراً وتركها كأن للدايا تحت جنبي أرائك
وما نعموا إلا قديم تشبي فنجي ليبياً شدة التمدارك

وبعضها عام راجع إلى ما كان بين الأمويين والفاطميين من المداوة فيقول :

وأمية تحنى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يدكر نوحاً ؟

يهشوا فهم بتوهموك بارراً والتاج مؤثلاً عيبك لموحاً

لبسوا معايبهم ورزء فقيدهم كالثلاسات على الخداد مسوحاً

وقد يحمله فرط تعصبه للمواظم على أن يصف الأمويين بالحين وعدم البصر بالحرب :

وما عرفت كرم الحيات أمية ولا حنت زالقنا وهو شايك

ولا جردوا بصلاً نخاف شباته ولكن مولداً عدداً وهو آئك

ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك

٢ الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (*)

ومن المحيب أن ادعاء ابن هاني* حين أموى الأندلس على بطلانه ، يكرره دامية قاطبي آخر ، هو الرحالة أبو القاسم بن حوقل المرفى المعاصر لابن هاني ؛ فيقول في كتابه « صورة أقاليم الأرض » « ومن أعجب أحواله هذه الجزيرة بقاؤها على من هم في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبدم من اليأس والشحاعة والقرومية والسالة ولقاء الرجال ، ومراس الأعداء والأبطال ، وعلم مواليها عليهم السلام بمحلتها في نفسها ومقدار جباياتها ، ومواقع نصيبها ولذاتها » . والشاعر والحراي كلاهما يرميان إلى غرض واحد ، هو حمل المعز على غزو الأندلس ؛ ولكن المعز كان أبعد منهما نظراً ، فلم يفرط في حرب حدية مع الأندلس ، بل صرف قوته إلى المشرق ، على ما هو معروف .

ولست حلة الشاعر على الأمويين بأقل من حنته على العباسيين ؛ وهو متأثر في ذلك بالمكرة السياسية للشيعة القائلة بأن الخلافة حق لأبناء علي بن أبي طالب دون غيرهم فيقول مخاطباً بني العباس :

أبناء تنلة ما لكم ولعشر هم دوحه الله الذي يختار ؟
ردوا إليهم حقهم وتفتكبا وتحملوا نفساً استحم بار
يذهبهم زمر المثنى كلها الهاكم المثنى والزمار

ويعرض باستعراء الخلفاء العباسيين وعلية الأعاجم عليهم .

فقد شمتت بيض الظى من حوسها وكات متى تألف سوى الهام تآم
وقد عضت للدين بأسط كفه إلهين في الآفاق كالمطلم
وللعرب العرباء دلت حموددها وللمسترة العمياء في الزمن المسمى

ولملك في سداد أن رد حكمه إلى عصفد في غير كف ومعصم
إلى شوميت في ثياب حليلة وبصم حم في هباب مورم
فإن يكن السسد للثيم نماره ف هو من أهل العراق بالأم
سوام رناع بين جهل وحيرة وملك مصاع بين ترك وديم

ولما عب عاهل الروم بقور فوقس الثاني على الثور الإسلامية ، وأوغل في الجزيرة
وبارل أسكية ، واستولى أسطوله على قبرس ، وعجز سيف الدولة الحمداني عن مدافعته
لاشتماله بحرب اطامعين في ملكه من جهة مصر والعراق ، كان ذلك أثر عميق في نفوس
المسلمين عامة ، لم يحف به إلا صحن حيوش المعز الفاطمي على قوى الروم بصقبة . وفي
سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدي الروم ورمطة في سنة ٣٥٣ !
وفي عام ٣٥٥ عقد صلح بين المعز وبين الامبراطور بقور فوقس ، وقد تجاوزت أقطار العالم
الإسلامي بأصداء هذه الحرائم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن هاشم في شعره تلك
الأصداء ، فيقول في وصف إلحاح الروم على مدبر الشام ، وعجز شارفة عن مدافعهم :

مالي رأيت الدين قل نصيره	بالمشرفين ودل حق حرقا !
هم صيروا خدما قوس أمورهم	يا للزمن السوء كيف نصرقا !
عدان عمدان دمع تبع	فالفصل المصون والوجه القما
يا ويلكم أمالك من صارخ	إلا بشتر ضاع أو دين عفا !
قدينة من بعد أخرى تستبي	وطريقة في إر أخرى تقتبي
حق لقد رجفت ديار ربيعة	وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فالشام قد أودى وأودى أهله	إلا قليلاً والحجاز على شفا
أيسر قوماً أب مكة عودرت	عجز جيش الروم قاعاً صفصفا !
أو أن ملحود النبي ورسه	بمدارج الأقدام يقصف منسفا ؟
فتربصوا فاقه منجز وعده	قد آن للظماء أن تتكشفا
هذا المعز ابن النبي للصطفى	سيذهب عن حرم النبي للعطفي

ويقول في مدح المعروفي الفتح الذي تم له على الروم ، ويصف كيف تلقى المعز بها ذلك الفتح :

يوم عريض في نهج طويين ما تمضي عر له وحصول
مسحت ثمر لشام أدمعها به وقد تن انترب وهي هول
وحلا طلام امير والديا به منيت لما في اسكرم فعول
لله عينا من رأى إحياته ما ناه بردها الأحويل
وسعوده حتى انتقى عمر النرى وحيسه والعلم والأكليل
و أنصرك الروم يومئذ دوت أن الإبه ما شاء كعيل
أنت الذي رث السلال لديهم فالأرض قل والسعود دليل

وقد نكون أم من كل ما تقدم ، نعت الدحية من شعر ابن هاني التي تصف عقائد التشيع ، (الاستيعلى في العهد الأخرى من حبة لدولة العاطية^(١)) . واس هاني شديد الحية للتشيع ، فهو عنده المذهب الحق ، فيقول في مدح أبي العرج الشيباني :

ركن لعمره من أركان ولهم وعروة من عرى لدين الحق
كل لسيوف للواري حردت كذب وهو المحرد للسير الحقيق
وعنده أن لأدب الحق وانطق الحق هو الأدب الشيعي وحق الشيعة :

لله من عوى رأى منسب إلى العلى وائلى الأصلى مرئى
شيعة أمرك كركر هموا نسبوا ولست تنق أدينا عبر شيعى
ويجمرص ابن هاني لنظرية الإمامة عند الإسماعيلية . فيقول بصورته :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تفريق اللغات لصلة فلا بد فيها من وسيط مترجم
وآية هذا أنت دعا الله أرضه ولكنها لم ترس من غير معلم

(١) راجع مقفلة الدكتور راهد على ليوان ابن هاني ص ٥٢ — ٥٨ .

وإمامة الإمام لا تثبت بالاجتهاد ، ولكن بالنص من قبله :
وما دلك أحدًا بالقراسة وحدها ولا أنه فيها من الفن مضطر
ولكن موجوداً من الأثر الذي تلقاه عن جبر حسين به جبر
والإمام مظهر نور الله :

وما كنه هذا النور نور حينه ولكن نور الله فيه مشارك
والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذي تعرف به معاني القرآن الحقيقية :
قد كاد ينذر بالوعيد لطول ما أخصى إليك ويصم التأويلا
وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم من العامة
إذا كانت الأدب بقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكن
والإمام معصوم من الخطأ :

من كان سببا للقدس فوق حينه فأما الضمين بأنه لا يحمل
وابن هاشم يعرف رأى الدكتور راهد على عن معنى لتوحيد عند الإسمعية بقوله
مخاطباً الخليفة المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم ذات الواحد القهار
يقول الدكتور إن الإسميلية تنزه الخالق عن اصعات مطلقا ، وتوقعها على المبدع الأول
وهو الأمر والكلمة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، لجميع
صفات البارئ واقعة عليه ، فلا عجب أن أطلق الشاعر « الواحد القهار » على المعز ولكن
يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شاءت الأقدار » يصنف هذا التفسير ، لذلك عاد
الدكتور فعقب على تفسيره اندكور بقوله إن الشعراء كثيراً ما يمانون فيما يقولون . . .
وقد قيل : « أحسن الشعر أكده » فليكن إدأ هذا القول الأخير هو وحده الذي يعتذر
به عن إسراف الشاعر وغلوه ،

نتبين من كل ما تقدم أن ابن هانيء عرض في شعره لأهم حوادث العالم الإسلامي في عصره . صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبيّن من الوجهة الشيعة علاقة هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة هامة من عقائد الشيعة الإسماعيلية . وكأني به ، يقول : إن السر العظيم في قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكوّناتها ، إنما هو في سياستها الحكيمة التي جرت عليها : سياسة المدل والإحسان والتنظيم في الداهل ، والانتصار لقضية الإسلام لعامة بإزاء أعدائه في الخارج ، وإن فواصل إفريقيا كانوا بتأئين ولم يكونوا هدامين كالقرامطة والحشيشة والملاحنة الذين ينشرون إلى المذهب الإسماعيلي . وليت شعري هل يستطيع أكثر المؤرخين تصفاً لفهم الحوادث ، أن يصل إلى أعماق وأصدق مما وصل إليه هذا الشاعر ؟

بنو فراس بن غنم (*)

يروى أنه لما توارثت لأحبار على الإمام على بن أبي طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بعد وفاة صفين ، قام على المبرص صحرأً يناقل أصحابه عن الجهد ومخالفتهم له في رأي ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه المارة : « أما والله لو ددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن عمر » وهذا العدد الذي نمتد الإمام على قنيل جداً بالنسبة إلى جيشه الذي بلغ في وقته صعبين ألفين ألفاً مقدس على أقل تقدير . فن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلاً من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبي الحديد في شرحه على كتاب « نهج البلاغة » « قال القصب الرازي : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويحظى ابن أبي الحديد بمخبر هذا التفسير ويقول الصحيح أنهم بنو فراس بن عمر بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حي مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جد الطمان ، ومنهم ربيعة بن مسكند بن حامي الطمان حياً وميتاً ، ولم ينجح الحريم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بني سليم ومعه طعان من أهلهم بمبيهم وحده ، فطاعهم ، فرماه أحداهم سهم أصاب قلبه ، فمضب ربحه في الأرض وعتمد عليه وهو ثالث في شرحه لم ير ولم يمل ، وأشار إلى الطعان بالزواج ، فصر حتى نمن بيوت أخى ، ونمو سليم قيام إراد لا يقدمون عليه ويطلبونه حياً ، حتى قال قائل منهم إلى لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لتحرك ؛ إنه والله لمثل ركب على هيئة واحدة لا يرق يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدومعه حتى رموا فرسه سهم فشب من تحتها ، فوق وهو ميت وقتلهم الطمان .

ومما يعزى بحري النورية بين بني فراس وأشدهم ، ما يروى من أن لمصور بن

عاصر الأندلسى كان في عمدة له موقف على شز من الأرض فرأى حيوشه قد ملأت السهل والحد ، فأنعمه ذلك ، والتفت إلى مقدم معكم ، ويعرف بابن المصحى ، وجرى بينهم هذا الحوار :

المصور لا يمحرا أن يكون في هذا جيش ألف مقاتل من أهل الشععة والسالة ؟
ابن المصحى — يطرق ساكتاً .

المصور — ما سكوتك ؟ أليس في هذه الحيوش ألف مقاتل ؟
ابن المصحى — لا !

المصور (مستعجباً) — أليس فيهم خمسة رجل من الأبطال المدودين ؟
المصحى — لا !

المصور (مستعجباً) — أففيهم مائة رجل من الأبطال ؟
ابن المصحى — لا !

المصور — أففيهم خمسون من الأبطال ؟
ابن المصحى — لا !

عند ذلك سدشاط المصور عصاً وأمر بمقدم العسكر فخرج على أقيح صفة .
وما توسطوا ملاذ العدو ونصاف الحمان ، نزل علاج من صفوف الأعداء شاك في سلاحه يكر ديعر وهه يمدى : هل من مائة ؟ فبرر إياه رجل من المسلمين ، فتداولوا ساعة فقتله الصبح فصاح بتركوا ودل المصون ، وكادت تكون كسرة فقبل للمصور ، ماها غير ابن المصحى ' فمشت إياه ، فحصر . فقال له المصور : ' لا ترى ما صنع هذا الصبح الكلب منذ اليوم ؟ ' فسمى جميع ما جرى ' قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما لدى ريب . ؟ قال أن تسكني لمسين شره ، فان . سر ، لأن ' .

ثم قصد ابن المصحى إلى رجل يعرفه ، فاستقله رجل من أهل الثور على فرس قد نشرت دورا كلها هزلا ، وهو يحمل فرقة ماء بين يديه على الفرس ، فقال له ابن المصحى : ألا ترى ما صنع هذا الصبح منذ ليوم ؟ قال : قد رأيته ! قد رى فيه ؟ قال - أريد رأسه الآن ! قال نعم !

يحمل الرجل القرية إلى رحله ، وليس لأمة حربه ، ومرت إليه ، فتحاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا الرجل يحمل رأس العليج ، فألقى الرأس بين يدي المنصور .

هذه ذلك قال ابن المصحف للمنصور : أخبرتك أنه ليس في معرك من مثله ألف ، ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . هذه المنصور إلى مراكه وأكرمه .

• • •

وسعد ، فيقال إن عنة المسلمين في جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم رهاء ثلثمائة مليون من الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بنى فراس ، ويشبه هذا الفارس الأندلسي الموار ؟ لهذا يجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولكننا ، ونحن في مشهل عام هجري حديد ، مشهل إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يحلهم جميعاً على شاكلة بنى فراس ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز .

قرطبة الإسلامية

تقع بين الجبل المسوب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، وبين الوادي الكبير من ناحية الجنوب . وتمتلئ بقمة خصبة عنية بالمراعى والكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما يحود في هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهي مدينة عادية قديمة ، لا يدرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها في الحرب البونية الثانية . وبه اسمها على عهد الروم والبريطانيين ، ثم اضمحل شأنها زمن القوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة للحكم .

فتحها عنوة مغيث الرومي ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك عقب وقعة البحيرة التي كانت في سنة ٩٢ هـ . واتخذها الولاى العربى السمع بن مالك الحولالى قاعدة لأمارة الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ وبما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لها ما كتب به السمع إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشير به بملحه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض في الشتاء عامة ، فإن رأى أمير المؤمنين بنيان سور المدينة مملت ، فإن قلب قوة على ذلك من خراجها بمد عطايا الجنود ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرقت صخر ذلك السور قبضت حصرهم . فيقال إن عمر أمر سيان القطرة بصحر السور ، وأن بني السور بالليل ، إذ لا يجد له صحرأ ، فوضع يداً بين القطرة في سنة إحدى ومائة هـ (أخبار مجموعة ص ٢٤) .

هكذا ابتدأ العهد العربى الإسلامى من حية قرطبة وهو أزهى عهودها على الإطلاق . بلغت فيه قرطبة من النمو والازدهار ما عفى على تاريخها القديم والحديث ، فقد تتابع أمراء العرب ومملوك بنى أمية وحلفاءهم على عمارتها وتوسعتها وتجميلها ، حتى أصبحت في القرن الرابع الهجرى أعظم مدن المغرب الإسلامى قطرة ، ومن أهميات المواصل الإسلامية ، وكانت تعدل في اتساعها أحد جابى بغداد

أتمدها السبع بن مالك كما قدمنا قاعدة وبنى جسرهما ورم سورهما ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى في شمالها قصر الرصافة لبرله حاصه وراذ عبد الرحمن الأوسط في مسجدها الجامع ، وجريلى قرطبة الماء العذب من الجبل الشمالى فى أتابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر فى المسجد وابتنى الزهراء غربى قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر فى المسجد الجامع وجهه وقمعه ، وأتم بناء الزهراء ؛ فم كان زمن المتصور بن أبى عامر راد فى مساحة المسجد الجامع وبنى الزاهرة والعاسرية شرق قرطبة ، كما عقد جسراً آخر على الوادى الكبير . وبذلك ملئت قرطبة فى القرن الرابع المحمري أو العاشر الميلادى غاية اتساعها وعمرانها . وبفصل بقرى فى كتابه « مع الطيب » الكلام على هذا الممران وذلك الاتساع فيقول « أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، أيام ابن أبى عامر فسكات مائتى ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وحاصه الملك فتستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصارى (أى غرف) الكراء ، والحمامات ، والخانات وعدد الحوايت تمدون ألف حاوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حاوتاً » . وينقل المقرئ كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تفاهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستائة مسجد ، والحمامات تسماية حمام » ويقول « إنها تحمق بها الساتين ، والزيتون ، والقرى ، والحصون والمياه ، والعيون ، من كل جاب ، وبها المحرث المظايم الذى ليس له فى بلاد^(١) الأندلس نظير ، ولا أعظم منه ركة » .

أما الشريف الإدريسى الذى تشق فى قرطبة فى أوائل القرن السادس ، فيقول فى كتابه « نزهة المشتاق فى احراق الآفاق » « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاحز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والتساقق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمسجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسى أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هى ما يعرف « بالقصبة » أو « المدينة » وهى التى فيها المسجد الجامع وقصر الأمانة ، ثم امتدت غرباً فبنى الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو محرث السكامة للمتد حوى قرطبة على الصفة اليسرى لروادى الكبير

وانصلت العمارة بينهما وبين « المدينة » مشأ ما يعرف بالحاسب العربي ، كما امتدت من ناحية الشرق حتى ابن أبي عامر مدينة الزاهرة واتصلت العمارة بين المدينة المتوسطة وبينها ونشأ ما عرف بالحاسب الشرق ، وهذه هي المدن الخمس التي كانت مألف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في عبارته المتقدمة

لقد جمع الشاعر ما امتازت به قرطبة الإسلامية من المعالم في قوله :
 أربع فاقت الأمصار قرطبة ومن فطرة الوادي وجاءها
 هانئ ثقات والزهراء ناشئة والعلم أعظم شيء وهو راسها
 ولم يعد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة هي النحو المذكور فاستيعب هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ — أما القنطرة القديمة ، بناها الروم على نهر الوادي الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السج من مالكا كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . هزمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأبقى في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري ووصفها في كتابه بالصخامة والمتانة وبأن أقواسها سبع عشرة وبأن تحتها في قاع النهر أرحاء يديرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الهيئة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجموية ومن ثم عناية ولادة الأمور الأموية بأسرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثيل في مساجد المسلمين بنية وتسيقاً وطولاً وعرضاً » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس فسست . ويحكى مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نفس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأموي المشهور بدمشق فيقولون إن القاتحين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فم جاء عبد الرحمن الداخل ورأى صيق المسجد بالمصلين سارم بهار قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشترأ منهم ثمن ارتضوه ، وفوق ذلك أجار لهم إعادة

الكنايس الأخرى التي هدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل المسجد من حديد من أحاسن الصنم . وذلك سنة ١٧٠ هـ . واقتنى مع مولد بني أمية وحلفائهم على المسجد بزيادة في مساحته ، وتمييقه ورحرفته فراد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبيلة المواجهة للبحر . وبنى الأمير محمد مقصرتة ، ومد الأمير عبد الله بين القصر وبينه ساطعا مستقوا يمر منه من القصر إلى المسجد . وابتنى الدصر اشدية ذات الدرجين المعروفة بالصومعة والمباراة على أن ألدع أحراء المسجد وأروعه زيادة التي زادها الخليفة الحكم المستنصر في المسجد من الجهة القبيلة ، لاسيما الخراب والمبر والمقصورة ، وقد استعان الحكم في رحرفة هذا الجزء بصانع يوناني ماهر في الزخرفة بالفسيفساء ، أرسله إليه الامبراطور البيزنطي تقفور فوقاس مع مقادير صمغية من الفسيفساء ، وكان ذلك طلب من الحكم نفسه أسوة بما صنمه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموي بدمشق . فاما كان زمن المنصور بن أبي عامر ، ورأى صديق المسجد بالمصدين انوافد البرر من المغرب زاد في المسجد من الجهة الشرقية زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ، وبذلك كل المسجد وأصبح أكبر وأظم مساحد العالم الإسلامي ، وكان طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً وكان ثلث مساحته ممتنا مكشوفة ، وبقية المسجد مسقوفة ويشتمل على أكثر من ألف سارية تحمل المسجد أشبه بعمامة من النخيل . وقد أورد ابن عذاري في تاريخه تفصيلات طريفة عن الزيادة التي رادها ابن أبي عامر كما أورد إحصاء لما كان المسجد يشتمل عليه من عدد السوارى والزيات والمصاييح ، وما كان مرتباً له من مقادير الزيت ولشمع والبخور ، وعدد أئنته ، ومقرنيه ، ومؤديه ، ومدنته ، وحدهه ، وهو شيء كثير (ص ٢٠٨) ومع أن المسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك ورم القدم ، لا يزال ساطعاً بروعة وحلاله القديمين

ولسكلام على « الزعماء » يقتضى أولاً التبريف بقصر الإمارة قرطبة .

لقد كان حکام قرطبة من القوط يملكون قصراً يقع على كنيسة القديس فيست ، ولما صدرت قرطبة قاعدة إمارة الأندلس عقب الفتح العربي ، اتخذ أمراء العرب هذا القصر

مقرأ لهم ، فعاد عبد الرحمن الداخل جدد بناءه في سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر الرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقرأ للأسراء بنى أمية يديرون منه شئون الأندلس كلها ، كما كان جاب منه مدفاً لم يتوفى منهم وقد تألق الأمويون في بناء مجاس هذا القصر وتنسيق مبانيه ومن هذه المجالس فيما يروى المؤرخون « الكامل » ، والروضة ، والمديع ، والمشوق ، والتج . . الخ » وكان يحيط بكل القصر سور ماع فيه أبواب كبار منها باب الجامع الذي كان مقابلاً للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عبد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واغلا في مدينة يتكاثر سكانها وتزايد مساحتها أحب أن يتجنى نفسه وحرمة ودواوينه وحده وحشيه وحرسه ، مكاماً خارج قرطبة يخطط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع المصور العباسي عندما احتل المدينة المدورة ببغداد ، فشرع في سنة ٣٢٥ هـ في بناء مدينة الزهراء ، وقد سماها باسم حارية كانت حظية لديه ونقش صورتها على بابها فيما يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة في سنة ٣٤٧ وقد تولى الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأنعم من بعده ابنه الحكيم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) فكان يابها استغرق نحو أربعين عاماً

وتقع مدينة الزهراء على قرطبة بحمة كيلومتر في مسحد من الأرض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أفاض المؤرخون ، لاسيما المقرئ ، في وصف مدينة الزهراء وما اشتملت عليه من قصور وروعات وسانين ، وما كانت تضم من حرم وخدم وحشم وحرس ، وما أفق عليها من أموال حسام أنار إعاقوا اعتراض المقرئين وقد الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسي ، وقد دب إليها الخراب فقال « وهي في ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة السية ، مدينة فوق مدينه ، سطح التلث الأعلى يوارى على الجزء الأوسط ، و سطح التلث الأوسط يوارى على التلث الأسفل ، وكل تلث منها له سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط سانين وروضات ، والجزء الثالث فيه الدبار والجامع » ثم يقول « وهي الآن حراب وفي حال الذهاب » .

ويرجع اضمحلال الزهراء ثم خرابها الذي تشير إليه عبارة الإدريسي إلى أمرين :

(١) اتخاذ المصور بن أبي عامر ، عند ما استقيد نصر الأندلس ، مدينة احتطها شرق قرطبة في بعض منطقات الوادي الكبير وسماها « الزاهرة » فكان ذلك مما أدخل « الزهراء » وأدى إلى اضمحلال أمرها ، (٢) ثم الفتن الكبيرة التي كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتي أطاحت بالدولة الأموية وأدت إلى تحريب الزاهرة والزهراء وضمحلال قرطبة والأندلس بوجه عام .

ولقد دلت أعمال الحفر والتنقيب التي أجراها علماء الآثار الإسبان في مطلع القرن الحالي في موقع الزهراء ، على أن ما ذكره مؤرخو العرب عن نخبة الزهراء وروعة بنائها لم يكن مبالغاً فيه .



لقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عهودها ، أي في القرن الرابع الهجري ، نحو نصف مليون نسمة على تقدير المسشرق الكبير دورى وكاوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة ، وظهر في أيام الفتن التي وقعت في أواخر الدولة الأموية عنصر السودان ، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً حاليث من النصارى واليهود لها شأن في الحياة الاقتصادية والعامة بقرطبة . ولم تكن هذه العناصر مؤتمنة بل كانت مختلفة الأهواء . وظهر ما كان هذا الاختلاف في الفتن والاضطرابات السياسية . ثم إن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا طبقتين عامة وخاصة . أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكاوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات وكان فيهم روع عجيب إلى الشعب ، وميل شديد إلى الفتن وينقل المقرئ عن ابن سبيد قوله فيهم « إلا أن عانتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدّهم تشعيماً ، ويعصب مهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى أن السيد أبا يحيى أما السلطان يعقوب لمصور قيل له ما انفصل عن ولايتها ، كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجل : إن حفت عنه الجل صاح ، وإن أتفته به صاح ، ما بدرى ابن رصام فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عانتها شراً من عامة العراق ١١ »

وعلى العكس من العامة كانت الخاصة أو الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة ، وكانت تتألف من أعيان النبوة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة ، يسكنون مباني تديعة

تحيط بها الحدائق والبساتين إما في أطراف المدينة أو في أرباضها ، كما تتألف من كبار التجار ذوى الثراء الواسع والمتجر العريض ، ومن العلماء والفقهاء والأدباء ومن لم ميل إلى العلوم والمعارف ، ويصف المؤرخون هذه الطبقة بأجل الصفات ويمتثلونهم بأحسن التسوت ، وهم لمشيون بقول الإدريسي « ومصائل أهل قرطبة أكثر واشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أطهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء في السناء والثناء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الرى في اللباس والراكب ؛ وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم والشارب ، مع جميل الخلائق ، وحيد الطرائق » .

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت محلاً لحياة عامة قوية نشطة كانتى مجدها في بغداد والقاهرة والقسطنطينية في العصر الوسيط ، ففي مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشق العروض الصادرة والواردة ، يقوم كل نصريفها طائفة من التجار اللياسير الذين لم اتصال بحرى وثيق بأمالك الطيفة بالبحر الأبيض المتوسط . وفي مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية كانت قرطبة كثيراً ما تقابل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لاسيما القسطنطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية المسيحية الشمالية . وكثيراً ما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تقدم لهم حفلات استقبال فخمة في قصر قرطبة أو في مدينة الزهراء . وقد ألم القرى بوصف بعض هذه الحفلات في شيء من التفصيل . كما أنه قلما كان يمر عام دون أن نشهد قرطبة عرض الجيوش الأندلسية عند تحركها للفزو ، أو عند عودها مظفرة منصوره .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة في مسجد الم أعظم مناظر فخمة متنوعة طوال العام ، في كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة في الثالب يؤدي فيه عريضة الجمعة ، ويؤديها معه هذا رجال الدولة وأعيان الناس ، ثلاثة آلاف من لاسى القلاس ، وكان هؤلاء المفلسون هم الذين لم حق التقيا في الأحكام والشرائع في القرى التي تقع خارج قرطبة ، كل في قريته . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة لفصلا مع الخليفة ، والتسليم عليه ، ومطالعة بأحوال بلدهم . ولكن المسجد كان أحفل ما يكون ، وأبهى ما يكون ،

في ليالى شهر رمضان والعيدىن ، إذ يلتج بقصاده وعماره ، ويفضره قيص من سنا ثرياته ، وشموعه ، ومصاييحه ، وتتقطر أرجاؤه شذا ما كان يطلق فيه من المخور والطيوب .



يبد أن ناحية هامة من هذه الحيوية المجدبة ، وذلك النشاط العلمى ، نلاحظها في بيئة العلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، بيئة العلم الذى هو أعظم شئ . وهو رابع معالم قرطبة كما رتبها الشاعر في بيتيه المذكورين في مطلع هذا المقال . لقد استحال المسجد الجامع جامعة تزخر بالطلاب الذين وفدوا إليها للأخذ عن أئمة اللغة والبيان والفلسفة والأدب . وازدادت قرطبة نفخة من الطراز الأول من العلماء والفكرين خلدها التاريخ في صحائفه ، أمثال ابن عبد ربه وأبى حلى القالى ، وابن زيدون ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وكانت الراهبة الشاعرة الكسونية « هرورثينا » شديدة الإعجاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جوهرة الدنيا » كما ذكر العلامة ذوى .

وكان لأهل قرطبة ولع شديد بالكتب وغرام باقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الكتب من أروج متاجرها . ولقد من لم هذه السنة الحيدة ملك بن أمية وخلفاؤها لاسيا الحكم المستنصر الذى جمع في مكتبته الآلاف المؤلفات من الكتب المصنفة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل المقرئ في كتابه نفع الطيب « أنه حرت مناظرة بين يدي يعقوب المصور الموحدى ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد والوزير أبى مكر بن زهر ، وكان الأول قرطبياً والثانى إشبيلية ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفصيل قرطبة ما أدرى ما تقول ، غير أنه إدامات عالم بأشبيلية ، فأريد بيع كتبه ، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » . ونقل المراكشى عن ابن عباس أنه « كان بالر بصر الشرق من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكنين للمصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها » .



ظلت قرطبة عاصمة الأندلس وأم مدائن المغرب الإسلامى ثلاثمائة سنة (١٠٠-١٤٠٠ هـ)

ثم فقدت زعامتها السياسية بروال الدولة الأموية في سنة ٤٢٢ هـ . وتناوبت عليها القن والحزن السياسية في أحرىات العهد الأموي ورمس الطوائف والمراطين والموحدين وإن ظلت متماسكة مضمطة بمكانتها الأدبية ، وإلى تلك الحال يشير الإدريسي بقوله « ومدينة قرطبة في حين تأليف هذا الكتاب طمحتنا رضى الفطنة ، وغيرها حول المصائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير » .

كان ذلك إيذاناً بالنهاية ، ففي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ استولى عليها الأسيان وبذلك طويت مصيفتها من حيث هى مدينة إسلامية جليلة القدر اصطلمت بالزعامة السياسية للغرب الإسلامى أتم اصطلاح ، وأدت رسالتها الثقافية لشرق وللعرب عامة أحسن الأداء .

لفتة نحو الأندلس^(*)

هناك في القسم الجنوبي من إسبانيا ثلاث مدن عظام هن « قرطبة » ، وإشبيلية ، وغرناطة . فإذا ما عرجت على جبل طارق سفينة رانحة أو عادية ، وكان يقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تقصد قصدها ، فكثيراً ما يضم التشوفون المتطلعون من أهل السفينة الأولى عرصة ما بين الميادين فيرورون « المثلث » ، وما المثلث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين اللدائن الثلاث .

ولقد أسمدني الحظ فزرت ذلك المثلث منذ عام وبمصر عام زيارة باحث مستفيد ، لا زيارة راكب مجتار

وأما امرؤ عاش بالذاكرة والدكرى والخيال في تلك المدائن منذ أعوام طوال ، ولكن لم أظفر بالعيش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرحو وآمل أن يكون مدانة عهدى بها لا آخره .

طوفت في أنحاء قرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة ، وشهدت معالمها ، وقت في دمنها وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح الحاطر المشغول والوقت المحدود ، فخلصت من كل ذلك إلى أن هذا الثالوث لا يزال أبلغ ما يمر عن مقاطع التاريخ الأندلسي الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، وعرناطة .

أما قرطبة فإنها سهرها المنحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وهرماتها الداوسة ، وأرقعتها الصاعدة الهاطلة العربية الأسماء ، وأهلها الذين يغاب عنهم حس السمت وتنام الوفاة ، تصور لأمين الباحث المتأمل سذاجة عصر الخلافة وقوته ، ونخامته وروعته . كما ترمز باجتماع المسجد والقصر إلى اجتماع الدين والسياسة في النظام السياسي الإسلامي ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية شوقاً ، واكتمالاً ، وهرماً ، وزوالاً .

زالت الخلافة ، واضطرب عقد الدولة ، وعاد أمر الأندلس جاهلية كما بدأ . سيف
و درع ، وشعر ومسح ، وطاس وكاس ، وجارية وغلام . تلك معالم الحياة العامة على عهد
الطوائف ، عهد ابن عباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زيدون ، وابن
عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، واعتماد ، وقر . فإن شئت أن تتمثل
ذلك العصر ، وتشق عيره ، وتحس شوته ، فخل جولة في طرق إشبيلية ، وقف وقفة بفناء
قصرها ، واخش أديمها في أى وقت شئت من نهار أو ليل ، فستجدها على طول العمر
وتقدم المهد ، لا تزال أسرح البلدان ، وأجدها ، وأطربها ، وآنفها . هي بلد الرياض
الضاحكة ، والقصور الداعة ، والبيوت الشرقية الوادعة ، وبلد الرقصة الملتكية الرشيقة ،
واضطربع الإنسان والثيران الذى يحيل القلوب فى الصدور ، ثم هي بلد ذوات الحسن
والخمر من النساء .



ولكن وأسماء ! فما رحلت ندة هذه الدنيا إلى ألم ، وعيمها إلى بؤس ، وفرحها
إلى حزن . وما رح نمر الخلاف مرأ سريرا ، وعاقبة التفرق ويلا وثمورا . لقد أسلم الإسلام
بالأندلس الروح إلا ذم استنقته عرابطة إلى أهل مسمى .

في عرابطة تجمع ما كان متفرقا في طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على الخلاف ،
وتهاوت على الترف .

أما الخلاف فلا يرل أثره ملحوظا في حى البيازين ، بأرقته الصيقة ، وبيوته العائسة ،
وأهله المعروفين بحدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلا عليه قصر الحمراء
بأسوار وأراج ، وردهاته وأسبائه ، وغرفه ومقاصيره ، وسقعه المرفوعة ، وعمده المنصوبة .
وتراويقه الموقفة ، ونهاويله الزائفة ، ومياهه الجارية ، ورياضه الناضرة . فهو صنع قوم
تمجّلوا في الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وأعكس التمرض .

خلاف وترف ! ألا لقد حق قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها
ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية . وحراء عراطة ! كم فيك من عطبات وعبر ! ولكر أين
من يتعظ ويعتبر ؟ أما أنا فشهد لقد رأيت ، وفكرت ، واعتبرت . ولكن من أنا ؟
فلما قصيت حق القلب والفكر من الدائن الثلاث ، آذنت بالرحيل ، وأنا على مثل
حال الشريف الرضي حين قال :

ولقد وقعت على ديرهم وحولها بيد البلى سهب

فبكيت حتى ضج من لعب بصوى ولج بعدلى الرك

وتلفتت عبي فذ خفيت غنى الطول تمت القلب

واطلق القطار لي وأصحابي نحو مدريد ، فودعت حر الجنوب واستقلت

برد الشمال .

دير الاسكوريال ومكتبته^(*)

الاسكوريال اسم يطلق على بناء صمم فم بصر ديرا وكنيسة ، وقصرا ومدفنا كاما للملك الأسبان وهو يعد عن مدر يد نحو أربعين كيلو مترا ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من رنى حد وادى الرملة ، ويقال إن مساحة الأرض التى يشعلها البناء تبلغ بصفة أفدية ، وأن للبناء خمسة عشر مدحلا وله سبعة أراج وما لا يقل عن اثنى عشر ألفا بين نافذة وباب . شيدته عاهل الأسبان هيبب الثانى وفاء لندرد ندره والحرب فاعمة بينه وبين فرنسا ، وقضى على تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأتى فى ذلك القاطير المقطرة من الذهب والنصه فخر من أصمم وأعظم ما سوى الإنسان وهو من قبيل المشآت الشخصيه الماثله التى لا يسر القيام به إلا فى أزمان الاستعداد والجهوت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك وكثيراً من مباني المصريين القدماء .

زرت الاسكوريال لثمان سنين حلت ، وقصبت أياما بمدودات باحثا متقبا فى مكتبته القيمة ، وكنت أقسم الأيام المذكورة قسمين فأحصل للاسكوريال النهار والمدر يد الليل ، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن مكن مقاعا فتمس أى مقاع ، فإن ليله لا يطلق وحشة ، وسكوكا ، ورهبة ، وشدة ، ومحاصة إذا كان الزمن شقاء .



والكنيسة ألهم أقسام الاسكوريال ، وهى وحدها تفتقر أكثر من خمس الأرض التى تقوم عليها حمة البناء ، وسها الشئ الكثير من روائع الفن على هيئة قباب ، وتماثيل وصور أبدعها ريشة أعظم مصوى الأسبان أشال الحريكو وفسكوير . ويقع أسفل الكنيسة بمبنى لخراب مدعى لأسرة التى ملكت لأسبان عصر اطويلا ، وهو مدفن رهيب هابط فى الأرض منظم ، ليس صعداً من مؤمر فيها رفات الملوك العارفين مرتبة ترتيب محيهم إلى هذه لدير وحروجههم ، وأحدثها وآخرها نابوس كان أعد لجثمان الملك الذى خلعه بعد سنوات

وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، وهى قسبان ، قسم أوربى عام يشتمل على مجموعة الملك الذى أنشأ الأسكوريال وما ضم إليها من مكاتب الأدب والكائنات ، والمدن ، والمكاتب الخاصة . وهذا مادون ريارته للأجانب ، وقد درته فى حصة بعض رهبان الدير .

والقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤدى لأجنبى أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فىنبى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى الراهب المختص بذلك القسم فىحضر له ما أراد فى العرفة الخاصة بالمطالعة . ورهبان الدير يعملون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى المذكور على نحو النى كتاب عربى مخطوط بعضها فى عبة النعاسة ومعدوم الطير ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع الهجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبي ، وسحة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القالى وسرنية ترتيبا مختلف عن ترتيب السحة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكرمها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصلين :

(١) بقايا المكاتب الأندلسية القديمة التى سلمت مما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فىليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ماحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسينيين من سلاطين مراکش (٩٥١ — ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وقعت فتنة بين مولاي زيدان سلطان مراکش (١٠١٢ — ١٠٣٨) وبين أخيه أبى فارس التائر عليه ، واضطر مولاي زيدان إلى التحول عن مراکش — فاستأجر سعية مرسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثمرات العرب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بينه وبين رباب السفينة على مبلغ الأجرة المستحقة ، فما كان من الرابان أن اسل بالكتب تحت جناح الليل يؤم مرسيليا .

فلما كان ببعض الطريق عرضت له سفينة أسبانية غصته الكتب واطلقت بها إلى أسبانيا وكان حاتمة مطاف تلك الكتب أن أودعت هي أيضاً دير الأسكوريال .

كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوروبا كثرة كتب وعامة قيمة ، ولكن شت النار في مبنى الأسكوريال كلها في عام ١٧٦١ م فاحترق من المكتبة نحو ثلاثة أرباعها وسلم الرعب فقط ولا تزال آثار الحريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم

وأول من درس محتويات القسم العربي ووضع لها فهرساً ماللاتينية راهب ماروني اسمه ميخائيل العزيري ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ - ١٧٥٣) وقد ظل ذلك الفهرس الدليل المعتمد للمكتبة إلى أن شرع في أواخر القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسي هر تويغ دربورغ في وضع فهرس جديد بالفرنسية وقد ظهر الجزء الأول من الفهرس المذكور في عام ١٨٨٤ وظهر الثاني في عام ١٩٠٥ ثم توفي هذا المستشرق قبل تمام عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً في عام ١٩٢٧ بإشراف مستشرق فرنسي آخر هو الأستاذ ليفي بروفسال .

وقد أخبرني قيم المكتبة الأب ملخور أنطوما أنه هو وزملاءه يمدون فهرساً علمياً مظلولا للقسم العربي من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شيء حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التي يقال إن حكومة مدريد نقلتها من الدير إلى مكان آخر حرير خوفاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينا وبين الخارجيين عليها في هذه الأيام .

بلاد عربية تحتضر فيها العروبة (*)

لست أقصد أيها القارئ الكريم تلك البلاد إلا للمغرب الإسلامي الذي يمتد من حدود مصر شرقا إلى أمواه المحيط الأطلسي غربا ، ومن سواحل بحر الروم شمالا إلى محافل السودان جنوبا ، والذي تمرله من الخلائق من لا يحصهم سوى خائفهم ورازقهم

* * *

كان المغرب ولا يزال ميدانا عظيما من ميادين الصراع الأولى الأبدى العنيف بين الشرق والغرب ، فيه تصارلت وتطاحنت قرطجة الشرقية الدامية ورومية الغربية الآرية ، فكثب الفؤز للناحية على الأولى . وعبر المغرب قروما عدة وهو قطر روماني حائل اللون لم ترسح فيه المدينة الرومانية ولا تفررت فيه أصولها . مما مهض الشرق بهيمته الكبرى في ظل الإسلام والعروبة ، ولما سبل الفتوح العربية وعب عمايه ، وغذب العرب تحاهه على أسره ، عاد المغرب أرضا شرقية ولسكن في صورة حديدة قوامها العروبة والإسلام ، غير أن الصراع القديم بين الشرق والغرب لم ينقطع ، في آخريات العصور الوسطى تهاوت جموع الصليبيين على المغرب فلم تثبت لهم به قدم وبأوا بحمران ميين . ثم تحدد الصراع في العصر الحديث ، فكثب الفؤز مرة أخرى للمغرب على الشرق ، وأصبح المغرب محملته مستعمرات أوربية ، ووقف الأمر عند ذلك حتى اليوم .

وفي أثناء تلك المحاولات والمساومات نتج بالمغرب رجال أصبحوا مصرب الأمثال في البطولة والشجاعة والتصحية ، منهم في الزمن القديم مملكار ، وأسدرو مال ، وهيبيل ، ومنهم في العصر الوسيط عقبة ، والكاهمة ، وكسيلة ، وحسان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي وسلالاته العظيمة من أمراء الموحدين ، ومنهم في العصر الحديث الأمير عبد القادر الحزائري ، والميد السنوسي الكبير ، والأمير عبد الكريم

(*) مجلة المراجعة العربية ، في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٧ والحبيب أن الأحداث اعارية الآن في تونس وصها كثر تقل على أن مصى ستة عشر عاما لم خبر شيئا من أحوال التي يصعبها حد القربا

الخطاى بطل الريف وقريع أسبانيا وفرنسا ، والذى لا تزال وقائمه مع هاتين الدولتين معقوداً
غبارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصداها يدوى فى الإسماع .

ويسمى أن نسه إلى أن المغرب أصبح غذاة الفتح العربى أرضاً عربية ، وإن شئت
الدقة فى القول فقل إن أحزانه الشرقية امتحالت أرضاً عربية ، فى حين أن أحزانه الغربية
أصبحت وقد استعرت ، وقدعاً قسم القدماء عرب الجزيرة نفسها قسمين عاربة ومستعربة
فلم يقدح ذلك فى عروبة من استعرب ولا وحده فيه غضاصة على نفسه .

لقد صار المغرب عربياً تامرين : سهرة العرب إليه واستعرب العرب أنفسهم .
أما المهجرة فابتدأت بالجرع التى تدهقت على امغرب من الجزيرة فى القرنين الأول والثانى
المحجرين وانتهت سهرة العرب الملالية فى القرن الرابع ، وأما الاستعاب فم باعتراف
العرب الإسلام و كلمهم العربية وارتباطهم بالفتح بربط الصهر والزواج بحيث لم
يتبدى فى القرن الرابع حتى كانت قد استعربت قبائل البربر الكبرى أمثال كنانة وزناتة
وصهاجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب و بربر بدأ واحدة على كل من داهم
بلادهم إنان الحروب العصبية ، الرمن الحديث كما سقت الإشارة . ونظام هذه الوحدة الرائنة
أمكن ازدهار المدنية الإسلامية فى روع المغرب ، وعدت القهروان ونوس و فاس ومراكش
مواطن للثقافة الإسلامية العربية وعدا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدارس الإسلام
الجامة ، وسبع المغرب من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى عرمهم
بالبقان . وتعدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكار نقاحاً هناً إيطاليا
للنهضة الأدبية العظيمة التى ظهرت بها فى القرن الخامس عشر الميلادى

ذلك القطر العربى أخذ بمح حياته المنقلة الشطة القوية المثرة فى الأموال مند وصع
الترك العثمانيون أبيديهم عليه فى القرن السادس عشر مع استثناء المغرب الأقصى . فله محز الترك
أنفسهم عن الدفاع عن أطرافهم فى القرن التاسع عشر تداعت بل تعاوت ذئاب الاستعمار
الأوربى على المغرب . فالتقت اسبابا لقيات من المغرب الأقصى ، وتمملت فرنسا على
الجزائر ونوس ومراكش فأرددتها ارداءاً . ثم اغتصت إيطاليا على طرابلس بنياً وعدواناً
فاستولت عليها بعد أن أبلى أهلها عذراً .

ولا يظن القارىء أن الاستعمار الأوربي دخل المغرب وهو يريد أن يسوسه على أساس الاحتياط وتقاليده وعاداته وإعناء موارده وترقية مرافقه والنهوض به لخير أهله واكتساب مودتهم وصدقاتهم ثم الخلاه عن بلادهم ويكون بذلك قد أسدى إلى الإنسانية بدءاً عظيمة ومنة باقية على الزمن . كلا ! كلا ! إن حطته التي جرى على نحو شخصية تلك البلاد وإفناؤها في الدول المستعمرة هدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . والاستعمار في الوصول إلى تلك النهاية طرق شتى منها أنه يعمل على عزل المغرب عن سائر العالم العربي بتصعيب أسباب الاتصال بين العرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد المراقبة على العربي لدى بدخل العرب فلا يسمح له بالاتصال بالأهلين إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أوسع في الوصول إلى الغرض . لاستعماري الشود هي القطع بين حاضر المغرب وماضيه وذلك بإصناف اللغة العربية وشرعنة المستعمرين ، والحد من الثقافة الإسلامية والتفكير للثقافة الأجنبية ، ومن ثم ذلك الهالك أدى سمعته على ترجمة الكتب العربية القديمة خاصة بتاريخ المغرب وأدبه وفقه إلى لغة مستعمرين وخاصة الفرنسية وذلك ليقرأ أهل المغرب تاريخهم وماضهم باللغة الفرنسية دون العربية وطريقة ثالثة هي تحجيب النجس الأجنبي إلى نفوس المغاربة وإثارة الحيرة الحسية المغربية في نفوس البربر ، وما من الظاهر الذي صدر في سراكش وحووب اتناغ العرب البربر في دور القضاء بعيد .

أما العمل على إدامة البرة القومية فحسب التذليل عليه . مرتين أو ثلاثة فقد سنوات ست احتفلت فرنسا في نفس المغرب بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وحسين سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب نفت رعات المارشال بيوتى عاصمة المغرب الأقصى إلى سراكش ودفنت بها باحتمال . شهود . هذا ولا تغت إيطاليا بمد استولت على طرابلس تروبيديها عمر وشرقاً وتعرض بأنها وارثة الرومان القدماء في البحر الأبيض المتوسط فيبغى أن يؤول إليها ميراث رومان في هذا البحر كاملاً غير منقوص

الحق أن العروبة والإسلام مانا في لأندلس باليف ، أما في المغرب فهما يقصيان صبراً ، إلا أن تنوحه أهل المغرب إلى الله يقوهم وعزائمهم ، ويقدرهم الله بصره ورحمته « ولينصرون الله من مصره ، إن الله أقوى عزيز »

فهرس الموضوعات

صفحة

تقدمة وإهداء ٥

القسم الأول . عصر الدولة العباسية

أبو العباس « السفاح »	١
هارون الرشيد بين التاريخ والقصص	٨
أم الحسين : السيدة ريبة	٢٣
بين هارون الرشيد وشرلمان	٣٥
الرشيد وأبو نواس	٣٧
مع أبي نواس الزاهد	٤٧
كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى	٥٤
أبو العلاء السيسى	٦١
ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء المرى	٦٩
السلطان يعين الدولة محمود المزموى	٧٨
١ - الفردوسى	٨٣
٢ - الفردوسى (تتمة)	٩١
سيرة أحمد بن طولون لأبى محمد عبد الله بن محمد المذنبى النوى	٩٩
من مواقف البطولة الإسلامية فى القتال	١٠٦
كعب الحسبة وفائدها فى وضع المعمين الوسيط والكبير	١١٤
ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى ساعدت على نمو العربية وانتشارها	١٢٢
أثر مصر فى الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر العباسى الأول	١٣٠

القسم الثاني : المغرب والأندلس

١٤٤	موسى بن نصير
١٤٨	حديث الفقيه المغربي من أهل لشونة
١٥٣	زرياب اللغني
١٥٩	حكيم الأندلس عباس بن قرناس
١٦٤	قاض فاضل
١٦٨	بن حليمة وقاض
١٧٥	١ — الناحية التاريخية من شعر ابن هاني الأندلسي
١٨١	٢ —
١٨٥	٣ —
١٩٠	بنو قرناس بن غم
١٩٣	قرطبة الإسلامية
٢٠٢	لفتة نحو الأندلس
٢٠٥	دير الأسكوريال ومكتنته
٢٠٨	بلاد عربية تحضر فيها الرواية
٢١١	فهرس الموضوعات

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 073830018

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م